اللسان ميزان

بين الصمت والكلام

الدكتور عبد البارى محمد داود

- معنى اللسان وحفظه وآفاته.
- الصمت والكلام عند الأنبياء والصحابة.
- أقوال العلماء والحكماء في الصمت والكلام.
- الأمثال والحكم العربية والإسلامية.
- صمت الحكيم.
- الصمت والكلام في الوعظ والبلاغة.
- المدح والذم، والجدال والمراء.
- والمزاح والضحك، والحسد.
- الصمت والفكرة وكتمان السر.
- الإشارة أو الرمزية في التعبير.
- البلاغة في الإيجاز.

اللسان ميزان
بين الصمت والكلام

اللسان ميزان
بين الصمت والكلام

الدكتور

عبد الباري محمد داود

كلية آداب . جامعة بنها

- الصمت والكلام عند الأنبياء والصحابة.
- الأمثال والحكم العربية والإسلامية.
- الصمت والفكر وكتمان السر.
- الإشارة أو الرمزية في التعبير.

وأقوال أخرى

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

الكتـــــاب : اللسان ميزان بين الصمت والكلام

المؤلـــــف : د. عبد الباري محمد داود

رقـم الإيداع : ٤٧٢٦/ ٢٠٠١

الترقيم الدولى : ISBN
977 – 303 – 342-2

تـاريخ النشـر : ٢٠٠١

الناشــــر : دار قباء



للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة :

٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون

الدور الأول – شقة ٦

☎ ٦٣٦٢٥٦٢ – فاكس/ ٦٣٧٤٠٣٨

المكتبـــة :

١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)

المطابـــع :

مدينة العاشر من رمضان – المنطقة الصناعية (C1)

☎ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

www. alinkya.com/kebaa
e-mail: qabaa@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : « قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ
ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا »

صدق الله العظيم

إهداء

﴿ بعيداً عن المُجاملةِ في التعبير والدقة في الأسلوب والرقة في التعبير، أجد نفسي متوجهاً بخالص شكري وتقديري لدار قباء التي رحبت بهذا المُؤَلَّف والمُؤلِّف وحرصت على نشر المُؤلَّف ﴾

الدكتور

عبد الباري محمد داود

مقدمة عامة

الحمد لله الذى أحسن خلق الإنسان وعدله وألهمه نور الإيمان فزينه به وجمله وعلمه البيان فقدمه به وفضله وأفاض على قلبه خزائن العلوم ثم أرسل عليه ستراً من رحمته وأسبله، ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله ويكشف عنه ستره الذى أرسله وأطلق بالحق مقوله وأفصح بالشكر عما أولاه وخوله من علم حصله ونطق سهله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله الذى أكرمه وبجله ونبيه الذى أرسله بكتاب أنزله وأسمى فضله وبين سبله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن اللسان من نعم الله سبحانه وتعالى العظيمة ولطائف صنعه الغريبة فإنه صغير جرمه، عظيم طاعته وجرمه إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان، ثم إنه ما من موجود أو معدوم، خالق أو مخلوق، متخيل أو معلوم، مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي، فإن كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل، ولا شئ إلا والعلم متناول له، وهذه خاصية لا توجد فى سائر الأعضاء، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والآذان لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء. واللسان رحب الميدان ليس له مرد ولا لمجاله منتهى وحد، له فى الخير مجال رحب، وله فى الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبه اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان فى كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع فلا يطلقه إلا فيما ينفعه فى الدنيا والآخرة ويكفه عن كل ما يخشى غائلته فى عاجله وآجله، وعلم ما يحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز، والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان فإنه لا تعب فى إطلاقه ولا

مؤنة فى تحريكه. وقد تساهل الخلق فى الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصائده وحبائله وأنه أعظم آله الشيطان فى استغواء الإنسان.

ومما يروى فى هذا الشأن قول الإمام علي، كرم الله وجهه: الألسن ثلاثة: لسان العلم، ولسان العطاء، ولسان الوحدانية. فأما لسان العلم: فإنه يعبر عن الحلال والحرام والحدود والأحكام. وهو زين المؤمن وفضيلته. وأما لسان العطايا: فإنه يعبر عن الأخطار والإلهام، والفهم والفطنة، وعلو المراتب والدرجات. وهو شرف المؤمن وفائدته. وأما لسان الوحدانية: فإنه يعبر عن الله بالله لله!

ولقد قيل: إذا ذاق العبد حلاوة الإيمان ووجد طعمه ظهرت ثمرة ذلك على جوارحه ولسانه فاستحلى اللسان ذكر الله تعالي.

وأحب أن أوجه عناية القارئ فى هذا المقام إلى أن الإمام الغزالى تصدى لهذا الموضوع بإسهاب تحت عنوان :"آفات اللسان" وأورد منها عشرين آفة، حللها من عدة جوانب، وساق على كل منها الأدلة والبراهين فى أسلوب واضح، وعبارة أخاذة.

وإذا كان الغزالى عالج هذا الموضوع فى عبارة مرسلة، وإن كانت غنية بالاستشهاد والتعليل، فإن الماوردى كان فى علاجه لهذه الصورة واضح التقسيم، على المنهج مما ييسر الفهم ويوطئ سبيل الاستيعاب.

يقول الماوردي: إن اللسان آلة الكلام، والكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضمائر، ويخبر بمكنونات السرائر، والكلام لا يمكن استرجاع بوادره، ولا يستطاع رد شوارده، فحق على العاقل أن يحترز من زلله بالإمساك عنه، أو بالإقلال منه، مصداقاً لقول رسول الله (ﷺ): **[رحم الله من قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم].**

ويقول الإمام على كرم الله وجهه: "اللسان معيار أطاشه الجهل وأرجمه العقل".

كما قال بعض البلغاء :"الزم الصمت فإنه يكسبك صفو المحبة، ويؤمنك سوء المغبة، ويلبسك ثوب الوقار، ويكفيك مؤنة الاعتذار".

وما أبدع ما صور به الإمام الغزالى اللسان فى قوله: إنه نعم الله العظيمة ولطائف صنعته الغريبة، فإنه صغير جرمه، عظيم فى طاعته وجرمه لأن كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان، ولا شيء إلا والعلم متناول له، وهذه خاصيته يتميز بها عن سائر الأعضاء، فالعين لا تصل إلا للصور والألوان، واليد لا تصل إلا إلى الأجسام، ولكن اللسان رحب الميدان، ليس له مرد، ولا لمجاله منتهى وحد، فخطره عظيم، ولا نجاة من هذا الخطر إلا بالصمت.

ويصور أهمية اللسان قول الشاعر :

لســان الفتى نصف ونصف فؤاده ∴ فلــم يــبق إلا العظــم واللحــم

فاللسان هو أداة التعبير الأولى عن النفس. والنفس ميالة لأشياء كثيرة، واللسان هو أقرب الطرق للتعبير عن هذه الأشياء. وما أكثر الأشياء التى تميل إليها النفس ولا يصح أن تظهر على اللسان.

يعالج هذا البحث موضوعاً على جانب كبير من الأهمية، وهو يعد بحق من الدراسات الإسلامية الهامة والرئيسية، وكان ذلك دافعاً من دوافع اختيارى لهذا الموضوع واهتمامى به.

ولاشك أن هذا الموضوع يلقى الضوء على اللسان باعتباره جارحة من جوارح الإنسان ينبغى الاهتمام به والحذر من الكلام إلا عند الضرورة أو الحاجة.

ولقد اشتمل هذا البحث على عدد من الدراسات الإسلامية التى ألقت العناية الكافية حول هذا الموضوع. وسوف يتضح للقارئ فى هذا البحث تلك الجوانب التى تضمنها بين صفحاته.

كما يجد القارئ أيضاً ما يريح نفسه ويُطمئِن قلبه لاستخدامنا المنهجَ الإسلامى فى هذه الدراسة، منهج القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف حكماً

فى كل ما تعرضت له، بعيداً كل البعد عن أى حكم ظني، فالظن كما يقول منهج العقل القرآنى لا يغنى عن الحق شيئاً.

كما لا يغفل البحث أيضاً استخدامنا للمنهج النفسى أو إن شئت فقل :

"منهج الاستبطان النفسى الداخلي".

ولا شك أن هذا المنهج يعتبر منهجاً أساسياً قامت عليه هذه الدراسة لكون الصمت والكلام حالاً من أحوال النفس يعبر عما يدور بخاطرها. وهذا ما أسهبت فيه هذه الدراسة بين صفحاتها.

واستخدمنا أيضاً فى هذه الدراسة المنهج التاريخى التحليلى المقارن عندما تعرضنا لدراسة الصمت والكلام عند الأنبياء والصحابة والتابعين.

فكانت تاريخيته فى بعض الجوانب التى أشرنا إليها من خلال عرضنا لهذا البحث. لذلك جاءت المقارنات التى أوردناها فى ثنايا عرضى لهذا الموضوع ملائمة لسياق هذا البحث.

وبناء على ما تقدم انحصرت معالجتنا لهذا البحث فى أحد عشر فصلاً رتبناها على الوجه التالي:

الفصل الأول: جاء بعنوان :"مفهوم اللسان ووصفه وبيانه"

فاللسان يعنى اللغة والكلام، وهو جارحة الكلام.

إن الله سبحانه وتعالى أنطق اللسان بالبيان وافتتحه بالكلام وجعل القلوب أوعية للعلم ولولا ذلك لكان الإنسان بمنزلة البهيمة يومئ بالرأس ويشير باليد. ولقد قيل: إن قلب الأحمق فى فيه، ولسان العاقل فى قلبه. أى لا يستطيع الأحمق إخفاء ما فى نفسه فيبديه من حيث لا يدرى به. فمن هنا يجب مقاطعة الحمقى والتوقى عن صحبتهم بل عن مشاهدتهم. كما لا يغفل هذا الفصل الحديث عن معانى اللسان فى القرآن الكريم والحديث النبوي.

الفصل الثانى: يحدثنا عن :"**حفظ اللسان**". فحفظ اللسان من كرامة الإنسان فمن حفظ لسانه نجا. ومن كف لسانه ستر عورته بينما فلتات اللسان تؤدى إلى هلاك الإنسان. وهذا يؤكد أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة منه إلا النطق بالخير. فاللسان أحد الحواس وعضو التكلم وأنه الوسيلة الوحيدة لنقل الأفكار. فالسلامة فى السكوت. فينبغى للعاقل ألاّ يتكلم بكلام لا فائدة له فيه. وينبغى أن يتكلم بكل كلام فيه منفعة فى أمر دنياه وآخرته ويحفظ فرجه ولسانه.

وكذلك لابد أن ننبه أن اللسان ترجمان القلب. من هنا قيل: لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه.

الفصل الثالث: خصصناه للحديث عن :"**آفات اللسان**"

وتوسعت هذه الدراسة بإفاضة عن آفات اللسان بشىء من الإيضاح والتحليل نذكر منها: الخطأ فى فحوى الكلام فيما يرتبط بأمور الدين، وآفات العوام وسؤالهم عن صفات الله سبحانه وتعالى وكلامه. كما استعرض هذا المبحث حديثاً عن الخصومة، والكلام فيما لا يعني، والخوض فى الباطل، وكذلك التقعر فى الكلام.

الفصل الرابع: يأتى متناولاً :"**الصمت والكلام عند الأنبياء والصحابة**"

وهذا الفصل يحدثنا عن :"**الصمت والكلام عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام**". فالأنبياء تولاهم الحق سبحانه وتعالى بالنبوة، أحل لهم أموراً وحرم عليهم أخرى، قصرها عليهم دون غيرهم. والأنبياء هم خيرة الخلق وصفوة البشر. وهذا الإكرام لهم بالنبوة إنما هو بفضل الله وبمحض الفعل الإلهى والحكمة الربانية. وقد كانوا لا يتكلمون إلا بالحكمة والموعظة الحسنة، كما كان الصمت حالاً من أحوالهم اتخذوه مسلكاً وطريقاً لعبادة الله وطاعته.

وخصصنا جانباً من دراسته يدور حول: "**الصمت والكلام عند الرسول (ﷺ)**". كان رسول الله (ﷺ) كثيراً ما يعيد الكلام ثلاثاً ليعقل عنه،

وكان إذا سلَّم سلَّم ثلاثاً. وكان (ﷺ) طويل الصمت لا يتكلم فى غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم.

وقد جمع العلماء من كلامه (ﷺ) المفرد والموجز البديع الذى لم تسبق إليه دواوين.

وكان من خصائصه (ﷺ) أنه كان يكلم كل ذى لغة بلغته على اختلاف لغات العرب وتركيب ألفاظها وأساليب كلامها.

كما كان رسول الله (ﷺ) أكثر الناس صمتاً فى غير تكبر وأنصحهم للناس فى غير تطويل.

كما أفردنا جانباً من دراسته: أفردناه للحديث عن :"**الصمت والكلام عند الصحابة رضوان الله عليهم**". لقد قدم الصحابة نماذج رائعة من الصمت بل دروساً عملية لكى تكون نبراساً فى حياتنا. وكان جهادهم النفسى فى تعلم الصمت وتطبيقه خالصاً لوجه الله تعالى.

الفصل الخامس: يعالج هذا الفصل: "**أقوال العلماء والحكماء فى الصمت والكلام**". موضحاً الفرق بينهما. فالصمت سكوت وفى وقته صفة من صفات الرجال، كما أن النطق فى موضعه من أشرف الخصال.

فالكلام لسبب والسكوت لحكمة. ولكن هناك فرق بين عبد يسكت تهاوناً وكذباً وغيبة، وعبد يسكت لاستيلاء سلطان هيبة الله عليه وخوفه أن يقع فى معصية.

وهنا تتضح حقيقة الصمت. فالتكلم بالخير خير من السكوت عنه. والصمت عن الشر خير من التكلم به، فأما الصمت الدائم فبدعة منهى عنها. وكذلك أوضح هذا الفصل خصال اللسان. وبين أن الحكماء ورثوا الحكمة بالصمت. ويُفهم من هذا، إذا تم العقل نقص الكلام. فالكلام كالدواء، إن أقللت منه نفع وإن أكثرت منه قتل.

لذلك كان الصمت مفتاح السعادة. فالواجب على العاقل أن يروض نفسه على ترك ما أُبيح له من النطق، لئلا يقع فى المزجورات، فيكون حتفه فيما يخرج منه،لأن الكلام إذا أكثر منه أورث صاحبه التلذذ بضد الطاعات.

ولقد جاء فى الخبر: العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنة قائمة، ولا أدري. ويدعونا هذا الفصل إلى ترك فضول الكلام.

الفصل السادس: موضوع دراسته: "**الأمثال والحكم العربية والإسلامية**". وتُظهر دراسته ما اتصف به العرب فى جاهليتهم بالفصاحة والبلاغة، وهو ما نلاحظه فى كلامهم المنثور الواصل إلينا.

الفصل السابع: يجيء هذا الفصل ليحدثنا عن: "**صمت الحكيم**": ويُعد هذا الفصل من أكبر فصول هذا البحث. ولأهمية دراسته التى جاء بها بين أن الصمت يُعد طريقاً إلى الصحة النفسية والكمال الأخلاقى والإنساني.

ومن ناحية أخرى ينبغى أن نوضح أن الصمت قدرة، والقدرة من الحكمة... ومن كان عنده قدرة من غير حكمة هلك .. ولذلك فكلام صاحب الحكمة مقبول فى الباطن سواء وافق الظاهر أو لم يوافقه.

ومن الأمور الجديرة بالاعتبار أن الصمت صدق مع النفس. لذلك لا يتحلى به إلا أهل الصدق الذين عانقوا العبودية واستقاموا. من هنا كان إمساك اللسان عمّا لا يعنيه هو الطريق المستقيم الذى يوصل إلى الكمالات الأخلاقية.

وينتقل بنا هذا الفصل ليستكمل الحديث عن حقيقة الصمت فى مخالفة النفس. من هنا يرى أهل الحق فى الصمت لسان الحكيم، لأن عفة اللسان صمته.

كما أكد هذا الفصل من جانب آخر أن الصمت حرب على الغيبة والنميمة. وبذلك يصبح نوعاً من أنواع الرياضات الكبرى لأنه مخالفة للنفس، ورعاية لها من الوقوع فى براثن الضلال ومكائد الشيطان، كما أنه ترويض لجنوحها وتهذيب لأخلاقها.

الفصل الثامن: يتناول موضوع: "**الصمت والفكرة**":

فالتفكر يدعو إلى الخير والعمل. كما أن التفكر والتدبر من صفات العقل الذى جعله الحق تبارك وتعالى آلة يقطع الإنسان بحدها كل شيء والقلب وعاء الكل وإصلاح الأطعمة أصل ذلك.

وقد قيل: ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل.
فالتفكر فى الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه.

من هنا قيل: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر.

كما قيل فى الفرق بين الفكر والتفكر: "إن التفكر جولان القلب والفكر وقوف القلب على ما عرف".

فالتفكر صحة الاعتبار والفكر ما ملأ القلب من حالة تعظيم لله تعالى.

الفصل التاسع: يُبين هذا الفصل بشيء من الدقة والتركيز الحكمة فى " **كتمان السر** ". ولقد أفاض بجانب كبير من التحليل والإيضاح والتفسير أن من الواجب على كل عاقل أن يكتم سره لأن كتمان الأسرار من أقوى أسباب النجاح وأدوم لصلاح الأحوال.

ومن الأمور الجديرة بالاعتبار أنه ينبغى حفظ السر وكتمه لأن السر أمانة، وإفشاؤه خيانة، والقلوب حصون لأسرار الرجال. والرجل العاقل الذى لا يتعداه سره ولا يفشيه إلى أحد.

فيجب على العاقل أن يكون صدره أوسع لسره من صدر غيره، بألا يفشيه. وتحصين السر للعاقل أولى به من التلهف بالندم بعد خروجه منه.

وهنا يقول أحد الحكماء: اجعل سرك إلى واحد ومشورتك إلى ألف.

كما قيل: سرك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره.

وما أروع ما سجله الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه: العادات قاهرات فمن اعتاد شيئاً فى سره وخلوته فضحه فى جهره وعلانيته.

من هنا كان لابد من كتمان الأسرار وعدم تبليغها لأحد. لذلك قيل: قلوب الأحرار قبور الأسرار.

فمن كتم سره كان الخيار إليه ومن أفشاه كان الخيار عليه.

ولذلك قيل: **احذر عدوك مرة، واحذر صديقك ألف مرة**

فربما انقلب الصديق فكـــان أعلم بالمضرة

فالرجل الحازم الذى لا يتعداه سره ولا يفشيه إلى أحد. فكتمان الأمور فى كل حال فعل الحازم. ورب كلمة جرى بها اللسان هلك بها الإنسان. فينبغى كتمان ما لا يصح إظهاره.

فكتمان السر محمود وإفشاء السر من الأخلاق الرديئة. فمن كتم سره ملك أمره. فالسر فى المتكلم لا فى كلامه، فمتى انبسط المتكلم إلى السامع انشرح له كلامه وإن قل، ومتى انقبض المتكلم لم تنبسط للسامع معانى كلامه وإن كثر. ومن حفظ لسانه سلم فى الدنيا والآخرة.

الفصل العاشر: يناقش موضوع: "**الإشارة أو الرمزية فى التعبير**": كذلك يوضح الفرق بين العبارة والإشارة. فعلم الإشارة يكشف المعانى المذكورة، واللطائف والأسرار المخزونة، وغرائب العلوم وطرائف الحكم فى معانى القرآن الكريم، ومعانى أخبار الرسول (ﷺ). فلغة الرمز تعلو على الحس. ومن هنا يكون الكلام غريباً على السامعين. وتتفاوت الرموز أو الخواطر أو الإشارات تبعاً لمقام قائلها. وكذلك الرمزية فعل للتجرد والتصفية والتخلية.

فاستخدام الرمزية فى التعبير له أهمية أساسية وهو الحرص على المعانى والأسرار وصوناً للقداسة والروحانيات التى تحملها الإشارة..

وقد قيل: الحقيقة لا ينطق بها لسان، بل هى ذوق ووجدان. لأن اللسان يعجز عن التعبير عنها، لأنها سر من أسرار الله تعالى، فلا تتكيف بالحروف والكلمات.

وهنا يقول ابن مسعود رضى الله عنه: "من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن" وأن ذلك بلا ريب لا يكون بغير تعمق فى الفهم، وتعرف بالإشارة والمرامي، من غير اقتصار على ظاهر الألفاظ والمعاني.

الفصل الحادى عشر والأخير: يختتم هذا البحث بهذا الفصل الذى يتناول موضوع: "**البلاغة فى الإيجاز**":

والبلاغة فى الإيجاز باختيار الكلام وتصحيح الأقسام وحسن الاختصار عند البديهة والغزارة للإحاطة ومعرفة الفصل من الوصل والكلم الطيب.

وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول: "البلاغة الإيجاز" إنما تعنى اختيار الكلام الموجز وترك فضول الكلام.

وقد قيل: من تمسك بالعدل، وترك فضول الكلام، وأوجز فى النطق، وترك ما لا يعنيه، واقتصر فى أموره فهو عابد.

كما قيل: إثبات المسألة بدليلها تحقيق، وإثباتها بدليل آخر تدقيق، والتعبير عنها بفائق العبارة ترقيق، ومراعاة علم المعانى والبيان فى تركيبها تنميق، والسلامة من اعتراض الشرع فيها توفيق.

وينبغى أن نفهم إذا فهمت المعانى فلا مشاحة فى الألفاظ.

ومن البلاغة فى الإيجاز: أخذ كل موجود حظه مما قابله. بحسب: كلٌ ميسَّرٌ لما خُلق لَهُ.

ولقد قال العلامة ابن خلدون فى مقدمته: إن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها: حصول ملكة البلاغة للسان، فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه، يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم، وينظم الكلام على ذلك الوجه، وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فبه منحى البلاغة التى للعرب.

وفى نهاية البحث قدمنا النتائج التى أمكن التوصل إليها من خلال ما استعرضناه من موضوعات عارضاً فيها وجهة النظر النقدية بالإضافة إلى ما تضمنه البحث من استنتاجات.

وقد ذيلنا البحث بقائمة تحوى أهم المصادر والمراجع التى استخدمناها بالإضافة إلى مجموعة المراجع والأصول التى كان لها دور فعال فى هذا البحث.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه وابتغاء مرضاته وأن يتقبله بقبول حسن، ويجعله الحق جل علاه علماً نافعاً لطلاب العلم فى كل صوب وحدب. كما يجعله صدقة جارية ينتفع بها المسلمون. إنه سميع قريب مجيب الدعاء. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدكتور

عبد البارى محمد داود

الفصل الأول

مفهوم اللسان ووصفه وبيانه

الفصل الأول

مفهوم اللسان ووصفه وبيانه

معنى اللسان

اللسان جارحة الكلام، واللسان: اللغة والكلام، ولسان الحال: ما دل عليه حال الشيء، ولسان الصدق: الذكر الحسن.(١)

وقد وردت كلمة: "لسان" فى القرآن الكريم فى آيات كثيرة نذكر منها:

وقال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾.(٢)

وقال تعالى ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِى مُّبِينٌ ﴾.(٣)

وقال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.(٤)

وقال تعالى ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾.(٥)

وقال تعالى ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾.(٦)

وقال تعالى ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾.(٧)

وقال تعالى ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾.(٨)

وقال تعالى ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.(٩) أى طعنوا وسبوا.

(١) محمد إسماعيل إبراهيم: قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية، ص: ٣٤١.

(٢) سورة: النحل: الآية: ١٠٣.

(٣) سورة: مريم: الآية: ٥٠.

(٤) سورة: القصص: الآية: ٣٤.

(٥) سورة: البلد: الآية: ٩.

(٦) سورة: القيامة: الآية: ١٦.

(٧) سورة: طـه: الآية: ٢٧.

(٨) سورة: الشعراء: الآية: ١٣.

(٩) سوره: الأحزاب: الآية: ١٩.

وقال تعالى ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾.(١)

وقال تعالى ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾.(٢)

وقال تعالى ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾.(٣)

وقال تعالى ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾.(٤)

هذا العرض السابق للآيات القرآنية يوضح استعمال اللسان فى القرآن الكريم أنه جاء مفرداً أو جمعاً لأربعة معان:

الأولى: اعتبار اللسان أحد الحواس. **الثانية:** عضو للتكلم.

الثالثة: وسيلة لنقل الأفكار. **الرابعة:** طريق الذكر الحسن.

وفى المعنى الأخير: يُقرن بكلمة صدق. أى يقصد به لسان صدق.

وقد ورد هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ (٥).

أى أجرى الله القرآن الكريم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم كبشرى للمتقين.

وكذلك ورد فى القرآن الكريم اللسان كوسيلة للغيبة والنميمة، وذلك فى قوله تعالى:﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.(٦)

واللسان معناه: البيان عن علم الحقائق.

---

(١) سورة: آل عمران: الآية: ٧٨.

(٢) سورة: النساء: الآية: ٤٦.

(٣) سورة: الفتح: الآية: ١١.

(٤) سورة: الممتحنة: الآية: ٢.

(٥) سورة مريم آية ٩٧.

(٦) سورة الأحزاب: الآية: ١٩.

كتب أبو الحسين النورى رحمه الله إلى الجنيد كتاباً، فقال فيه: ياسيدى لك فى علم البلاء لسان. وفى علم البلاء سنان ـ يعنى بيانا عن علمه.

وسئل الشبلى رحمه الله عن الفرق بين لسان العلم ولسان الحقيقة فقال: لسان العلم ما تأدى إلينا بواسطة، ولسان الحقيقة ما تأدى إلينا بلا بواسطة.

فقيل له: ولسان الحق ما هو؟

قال: ما ليس للخلق إليه طريق ـ يريد به إذا قال: اللسان، يعنى بيان علمه والكشف عنه بالعبارة.(١)

ويعرض لنا الإمام الغزالى حديثاً عن الطاعة والمعصية فيقول: "إن الذى يظن أن طاعته أكثر من معاصيه، وذلك لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيها، فإذا عمل طاعة حفظها، واعتد بها كالذى يستغفر الله بلسان، ويسبح بالليل والنهار، ثم يلتفت إلى نفسه ومداومة الذكر، وما ورد فى الشرع فى فضل التسبيح، وينسى ويغفل ما ورد فى عقوبة الكذابين، والنمامين، والمنافقين، وكل ذلك محصن غرور ورياء لأن حفظ اللسان عن المعاصى أكثر مثوبة من التسبيح.

ولقد جاء في: "دستور معالم الحكم": هانت عليه نفسه من أمر عليها لسانه.(٢)

وقد قيل: لسانك ترجمان قلبك، ووجهك مرآة قلبك، يتبين على الوجه ما تضمر القلوب.(٣)

كما قيل إن الحكمة تنطق فى قلوب العارفين بلسان التصديق، وفى قلوب الزاهدين بلسان التفضيل، وفى قلوب العباد بلسان التوفيق، وفى قلوب المريدين بلسان التفكر، وفى قلوب العلماء بلسان التذكر.(٤)

---

(١) الطوسي: اللمع، ص: ٤٣٠.

(٢) ابن سلامة القطاعي: دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم، ص: ١٩.

(٣) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص: ١٥.

(٤) المصدر السابق، ص: ٣٢.

ومن أروع ما قيل: عبر بلسانك عن حالك، ولا تكن بكلامك حاكياً أحوال غيرك.

ويقول الداراني: الوارد الصادق أن يصدق ما في قلبك. وما نطق به لسانك. فإذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك.

ومن كلام الخراز: إن الله سبحانه تعالى عجل لأرواح أوليائه التلذذ بذكره، والوصول إلى قربه، وعجل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم، وأجزل نصيبهم من كل كائن... فعيش أبدانهم عيش الجنانيين.

وسأل رجل إبراهيم القصار: هل يبدى المُحب حبه؟ أو هل ينطق به؟ أو يطيق كتمانه؟ فأنشأ يقول متمثلاً :

ظفــرتم بكــتمان اللسان فمن لكم ∴ بكــتمان عين دمعها الدهر يذرف

حملــتم جــبال الحب فوقي، وإنني ∴ لأعجز عن حمل القميص وأضعف

وأدب اللسان أن يكون رطباً بذكر الله تعالى، وبذكر الإخوان بخير، والدعاء لهم، وبذل النصيحة والوعظ، ولا يكلمهم بما يكرهون، ولا يغتب ولا ينم، ولا يشتم، ولايخض فيما لا يعنيه، وإذا كان في جماعة تكلم معهم ماداموا يتكلمون فيما لا يعنيهم، فإذا أخذوا فيما لا يعنيهم تركهم وأمسك، ويتكلم في كل مكان بما يوافق الحال. فقد قيل: لكل مقام مقال. وقيل: خلق الله اللسان ترجماناً للقلب، ومفتاحاً للخير والشر.

كما قيل: إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ اللسان والزم الصمت، فإنه ستر للجاهل وزين للعاقل.(١)

قال صلى الله عليه وسلم: "وهل يكب الناس على وجوههم أو مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم".(٢)

وآداب السمع: ألا تسمع الفحش والغيبة والنميمة.

---

(١) ابن عجيبة: الفتوحات الإلهية، ص: ١٦٢.

(٢) رواه الترمذى وصححه، وابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

وأنشدوا :

أحب الفتى ينفى المناكر سمعه ∴ كأن به عن كل فاحشة وقراً

بل يسمع الذكر والوعظ والحكمة وما يعود إليه بالفائدة ديناً ودنيا، ويُحسن الإصغاء إلى مكلميه ومخاطبيه، ملتذاً بذلك.(١)

فالصمت فيه سبعة آلاف حكمة، جمعت فى سبعة: عبادة من غير تعب، وحصن من غير حائط، وهيبة من غير سلطان، وراحة الكرام الكاتبين، وستر للجاهل، وزين للعالم، وقلة الاعتذار.

ومن خواصه أنه: يلقح الفكرة، ويجلب الحكمة إذا كان مع الفكرة، وإلا فهو سهو.

وهذا مأخوذ من قول النبى (ﷺ): "إن الله أمرنى أن يكون نطقى ذكراً، وصمتى فكراً، ونظرى عبرة".

فالصمت الذى يصحبه الخواطر والوساوس هو بمنزلة الكلام.(٢)

وفى وصية الرسول (ﷺ) للإمام على بن أبى طالب: لا تعير أحداً بما فيه، فما من لحم إلا وفيه عظم ولا كفارة للغيبة حتى يستحله أو يستغفر له.

يا علي: ما خلق الله فى الإنسان أفضل من اللسان، به يدخل الجنة ويدخل النار فاسجنه فإنه كلب عقور.

يا علي: لا تلعن مسلماً أو دابة فترجع اللعنة عليك.(٣)

وعن عمر رضى الله عنه قال: "ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه ولا من فاسق بَيِّنٌ فسقه ولكن أخاف عليها رجلاً قد قـــرأ

(١) ابن عجيبة: الفتوحات الإلهية، مرجع سابق، ص: ١٦٢.

(٢) ابن عجيبة: الفتوحات الإلهية، ص: ٢٤٥.

(٣) الشعراني: وصية المصطفى (ﷺ) للإمام علي، هامش الوصية المتبولية، ص: ١١.

القرآن حتى أذلقه بلسانه ثم تأوله على غير تأويله".[1]

كما قال رضى الله عنه: "احذر من فلتات السباب كما أورثك النبز، وأعلقك اللقب فإنه إن يعظم بعده شأنك يشتد عليه ندمك".

وعن الأعمش قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

"عليكم بذكر الله فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس فإنه داء".

(١) خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه، جمعها وحققها وعلق عليها محمد أحمد عاشور (القاهرة: دار الاعتصام، سنة ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.، ص: ٩٧.

الفصل الثانى

حفظ اللسان

الفصل الثانى

حفظ اللسان

لقد أوضحنا فى أكثر من موضع من هذا المؤلف أن الحق سبحانه وتعالى أمرنا بحفظ اللسان لكونه عضو التكلم كما أنه الوسيلة الوحيدة لنقل الأفكار.

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أوصنى قال: عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلمين، وعليك بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن فإنه نور لك فى الأرض وذكر لك فى السماء، واخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان.

ويعلق الفقيه السمرقندى على ذلك بقوله: معنى قوله عليه الصلاة والسلام عليك بتقوى الله تعالى. فتقوى الله أن يجتنب عما نهاه الله عنه ويعمل بما أمر الله تعالى به، فإذا فعل ذلك فقد جمع الخير. وقوله عليه الصلاة والسلام: واخزن لسانك. يعنى احفظ لسانك إلا من خير، يعنى قل خيراً حتى تغنم أو اسكت حتى تسلم فإن السلامة فى السكوت. واعلم أن الإنسان لا يغلب الشيطان إلا بالسكوت. فينبغى للمسلم أن يكون حافظاً للسانه حتى يكون فى حرز من الشيطان ويستر الله عليه عورته.(١)

ولقد جاء فى "تنبيه الغافلين" أن عطاء بن أبى رباح قال: إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يُعدون كل كلام فضولاً ما عدا كتاب الله تعالى أن يقرأه أحد أو أمراً بالمعروف أو نهياً عن المُنكرأو تنطق بحاجتك فى معيشتك التى لابد لك منها. ثم قال: أتنكرون قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ

---

(١) السمرقندي، نصر بن محمد بن إبراهيم: تنبيه الغافلين (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ء. ت.) ص: ٧٦-٧٧.

إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(١)، أو يستحيى أحدكم أن لو نشرت عليه صحيفته التى أملاها صدر نهاره وأكثر ما فيها ليس من أمر دينه ودنياه.(٢)

وذكر عن لقمان الحكيم أنه قيل له: ما بلغ بك ما نرى. قال: صدق الحديث، وأداء الأمانة وتركى ما لا يعنيني.

وروى عن أبى بكر بن عياش أنه قال أربعة من الملوك تكلم كل واحد منهم بكلمة كأنها رمية رُميت من قوس واحدة. قال كسرى: لا أندم على ما لم أقل وقد أندم على ما قلت. وقال ملك الصين: ما لم أتكلم بالكلمة فأنا أملكها فإن تكلمت بها ملكتني. وقال قيصر ملك الروم أنا على رد ما لم أقل أقدر منى على رد ما قلت. وقال ملك الهند العجب ممن يتكلم بكلمة إن هى رفعت ضرته وإن لم ترفع لم تنفعه.

وروى عن الربيع بن خيثم أنه كان إذا أصبح وضع قرطاساً وقلماً ولا يتكلم بشىء إلا كتبه وحفظه ثم يحاسب نفسه عند المساء.(٣)

ويعود السمرقندى فيقول: هكذا كان عمل الزهاد أنهم كانوا يتكلفون لحفظ اللسان ويحاسبون أنفسهم فى الدنيا.

وهكذا ينبغى للمسلم أن يحاسب نفسه فى الدنيا قبل أن يُحاسب فى الآخرة؛ لأن حساب الدنيا أيسر من حساب الآخرة، وحفظ اللسان فى الدنيا أيسر من ندامة الآخرة.

قال حكيم من الحكماء ست خصال يُعرف بهن الجاهل:

أحدها: الغضب فى غير شىء، يعنى الغضب على ابن آدم وعلى الحيوان، وعلى كل شىء يستقبل منه مكروه. فهذا من علامة الجهل.

---

(١) سورة ق آية ١٨.

(٢) السمرقندى: تنبيه الغافلين. ص: ٧٧.

(٣) المصدر السابق، نفس الصفحة.

والثاني: الكلام فى غير نفع، فينبغى للعاقل أن لا يتكلم بكلام لا فائدة له فيه. وينبغى له أن يتكلم بكل كلام فيه منفعة فى أمر دنياه وآخرته.

والثالث: العطية فى غير موضع، يعنى دفع ماله إلى من لا يكون له فى ذلك أجر. وهو علامة الجهل.

والرابع: إفشاء السر عند كل أحد.

والخامس: الثقة بكل إنسان.

والسادس: أن لا يعرف صديقه من عدوه، يعنى أن الرجل ينبغى له أن يعرف صديقه فيطيعه ويعرف عدوه فيحذره، وأول الأعداء هو الشيطان فينبغى ألا يطيعه فيما يأمره.

وعن عيسى ابن مريم عليه السلام أنه قال: كل كلام ليس بذكر الله تعالى فهو لغو، وكل سكوت ليس بفكر فهو غفلة، وكل نظر ليس بعبرة فهو لهو.

فطوبى لمن كان كلامه ذكر الله تعالى، وسكوته تفكراً، ونظره عبرة.

وذكر عن الأوزاعى أنه قال: المؤمن يقل الكلام ويُكثر العمل، والمنافق يُكثر الكلام ويُقل العمل.(١)

وذُكر عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه يابنى من يصحب صاحب السوء لم يسلم، ومن يدخل مدخل السوء يتهم، ومن لا يملك لسانه يندم.

وعن الحسن البصرى أنه قال: كانوا يقولون إن لسان الحكيم من وراء قلبه، فإذا أراد أن يقول رجع إلى قلبه فإن كان له قال وإن كان عليه أمسك، وإن الجاهل قلبه على طرف لسانه لا يرجع إلى قلبه ما أتى على لسانه تكلم.(٢)

وقد قيل: ينبغى للعاقل أن ينظر فى شأنه ويعرف أهل زمانه ويحفظ فرجه ولسانه.

---

(١) السمرقندي: تنبيه الغافلين، ص: ٧٧-٧٨.

(٢) المصدر السابق، ص: ٧٨.

ولقد قال بعض الحكماء: إن جسد ابن آدم ثلاثة أجزاء، فجزء منها قلبه، والثانى لسانه، والثالث الجوارح. وقد أكرم الله تعالى كل جزء منها بكرامة، فأكرم القلب بمعرفته وتوحيده، وأكرم اللسان بشهادة أن لا إله إلا الله وتلاوة كتابه، وأكرم الجوارح بالصلاة والصوم وسائر الطاعات ووكل على كل جزء رقيباً وحفيظاً فتولى حفظ القلب بنفسه فلا يعلم ما فى ضمير العبد إلا الله ووكل على لسانه الحفظة.

قال تعالى:﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.(١)

وسلط على الجوارح الأمر والنهي، ثم إنه يريد من كل جزء وفاء، فوفاء القلب أن يثبت على الإيمان وأن لا يحسد ولا يخون ولا يمكر، ووفاء اللسان أن لا يغتاب ولا يكذب ولا يتكلم بما لا يعنيه، ووفاء الجوارح أن لا يعصى الله تعالى ولا يؤذى أحداً من المسلمين، فمن وقع من القلب فهو منافق، ومن وقع من اللسان فهو كافر، ومن وقع من الجوارح فهو عاص.

وعن الحسن قال: نظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى شاب فقال يا شاب إن وقيت شر ثلاث فقد وقيت شر الشباب: إن وقيت شر لقلقك يعنى لسانك، وذبذبك يعنى فرجك، وقبقبك يعنى بطنك.

وذُكر أن لقمان الحكيم كان عبداً حبشياً فأول ما ظهر من حكمته أنه قال له مولاه يا غلام اذبح لنا هذه الشاة وائتنى بأطيب مضغتين منها فجاء بالقلب واللسان. ثم قال مرة أخرى اذبح لنا هذه الشاة وائت بأبخث مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب، فسأله عن ذلك. فقال: ليس فى الجسد مضغتان أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا.(٢)

وروى عن رسول الله (ﷺ) أنه لما بعث معاذاً إلى اليمن فقال يا نبى الله أوصنى فأشار إلى لسانه. يعنى عليك بحفظ اللسان فكأنه تهاون به. فقال يا نبى الله أوصني. قال: ثكلتك أمك وهل يكب الناس فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم.

---

(١) سورة ق: الآية: ١٨.

(٢) السمرقندي: تنبيه الغافلين، ص: ٧٩.

وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى: من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر ماله كثر اسمه، ومن ساء خلقه عذّب نفسه.

وروى عن سفيان الثورى أنه قال: لأن أرمى رجلاً بسهم أحب إلى من أن أرميه بلسانى لأن رمى اللسان لا يخطئ ورمى السهم قد يخطئ.(١)

وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه أنه قال: إذا أصبح ابن آدم سألت الأعضاء كلها اللسان وقلن يا لسان ننشدك الله أن تستقيم فإنه إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا.

وقد قيل: إذا ذكر اللسان سكنت النفس، وإذا ذُكرت النفس سكن القلب، وإذا ذُكر القلب سكنت الروح، وإذا ذُكرت الروح سكن السر، وإذا ذُكر السر سكنت نفخة القدس، وإذا ذُكرت نفخة القدس ذُكر الله تعالى.(٢)

كما قيل: إن الرجل لا يُعطى لسانه وقلبه وروحه لأحد غير الله تعالى، فهو يُعطى لسانه للسالكين لتقوى رغبتهم، ولينجذبوا بالتلقين والسماع إلى مقامات الوصل والاتصال. ويُعطى قلبه للواصلين ليدار عليهم رحيق اليقين من القلب للقلب.

ويُعطى للمتمكنين روحه لتسوح أرواحهم فى ملكوت الله الأعلى فتشرف على قدس الله. أما لسانه وقلبه وروحه فلله وحده.(٣)

ومما قيل: عليك بالسكوت وارض بالقوت، والزم القنوت، حتى تموت.(٤)

ومن عدّ كلامه من عمله، قل كلامه.

وقد قيل: إن كان الكلام عن نور، حصل لمن سمعه السرور.

---

(١) السمرقندي: تنبيه الغافلين، ص: ٧٩.

(٢) أبو العزائم، محمد ماضي: من جوامع الكلم (القاهرة: دار المدينة المنورة، ط٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م) ص: ١٠.

(٣) المصدر السابق، ص: ١٥.

(٤) نفس المصدر السابق، ص: ٢٩.

حفظ اللسان من السخرية والكذب والغيبة والحسد:

من آفات اللسان السخرية والاستهزاء. فالسخرية تعنى الاستهانة والتحقير، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول، وقد يكون ذلك بالإشارة والإيماء.

قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.(١)

ويُعتبر الوعد الكاذب من الآفات التى تؤدى بصاحبها إلى النفاق. فيرى الإمام الغزالى أن اللسان سباق إلى الوعد، ثم إنَّ النفس ربما لا تسمح بالوفاء، فيصير الوعد خلفاً، وذلك من أمارات النفاق.

والكذب من الأخلاق الذميمة، ومن آفات اللسان، وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تجنب الكذب، فقال: "كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً، وهو لك مصدق، وأنت به كاذب ".(٢)

والغيبة من آفات اللسان، وتعنى الغيبة، ذكر الإخوان والأصحاب والأصدقاء بما يكرهون. وإلى هذا المعنى يشير الإمام الغزالى بقوله لمريده :"اعلم أن هذا غيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقص فى بدنه، أو نسبه، أو فى خلقه أو فى فعله، أو فى قوله، أو دينه، أو دنياه".

وقد نص الحق تبارك وتعالى على ذم الغيبة، وشبه صاحبها بأنه آكل لحم أخيه ميتاً. فقال تعالى: ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.(٣)

وقال رسول الله (ﷺ): "لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تناجشوا، ولا تدابروا، ولا يغتب بعضكم بعضاً، وكونوا، عباد الله، إخواناً".(٤)

---

(١) سورة الحجرات: الآية: ١١.

(٢) رواه الغزالى فى إحياء العلوم، ج٣، ص: ١١٤.

(٣) سورة الحجرات: الآية: ١٢.

(٤) رواه أبو حامد الغزالى فى إحياء علوم الدين، ج٣، ص: ١٢٣.

والأسباب الباعثة على الغيبة فيما يرى البعض إنما تكون بموافقة الإخوان والأصدقاء والأصحاب، ومساعدتهم على الكلام فى ذكر الأعراض، اعتقادا منهم أنهم يشاركونهم فى السراء والضراء، فيخوضون بعضهم مع البعض فى ذكر عيوب الناس. وما أعمق المعنى فيما يقول الغزالى فى هذا الشأن:

"الأسباب الباعثة على الغيبة موافقة الأقران، ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام، فإنهم إن كانوا يتفكهون بذكر الأعراض، فيرى أنه لو أنكر عليهم، أو قطع المجلس، استثقلوه، ونفروا منه، فيساعدهم، ويرى ذلك من حسن المعاشرة، ويظن أنه مجاملة فى الصحبة، وقد يغضب، فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم، إظهاراً للمساهمة فى السراء والضراء، فيخوض معهم فى ذكر العيوب والمساوئ".(١)

والحسد من الأسباب التى تدعو إلى الغيبة، وقد يكون الحسد مع الصاحب أو الصديق المخلص، والرفيق المُحسن، فقد يثنى الناس على شخص ما، لحبهم له، فيريد صاحبه زوال تلك النعمة عنه، فلا يجد سبيلاً إلا بالقدح فيه.

ومن الأخلاق المذمومة النميمة، وهى من آفات اللسان، التى يجب الصمت عنها، وحقيقتها إفشاء السر، وهتك الستر عما يكره الإنسان كشفه، فينقل للغير، القول الذى قيل فى حقه.

ومما يؤكد ذلك أن رجلاً قال لعمرو بن عبيد، أن الأسواري، ما يزال يذكرك فى قصصه بشر، فقال له عمرو: يا هذا ما رعيت حق مجالسة الرجل، حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أديت حقي، حين أعلمتنى عن أخى ما أكره.

وروى الإمام أحمد من حديث ثوبان عن النبى (ﷺ) قال: **[لا تؤذوا عباد الله، ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه فى بيته]**. (٢).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (٣).

(١) محيى الدين عبد الحميد طاهر: الصحبة، (القاهرة: مكتبة الأنجلو، سنة ١٩٩٤م) ص: ١٣٢.
(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده
(٣) سورة الأحزاب آية ٥٨.

ومن كلام يحيى بن معاذ الرازي: "ليكن حظ المؤمن منك ثلاثة: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تفرحه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه".(١)

ومما ينبغى أن يُفهم أن اللسان ترجمان القلب، فيجوز أن تتكلم بما لا تعتقده فتُعامل بما تكلمت، ولا يُفيدك سرد المعاذير، وإن أفادتك فى عدم إقامة الحد فلا تُفيدك من الشبهة التى أصبحت لا تفارقك ولا تدرى كيف التخلص منها.

وعن مُعاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله! أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار؟ قال: "لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير! الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل فى جوف الليل، ثم تلا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ (٢). حتى بلغ (يعملون).

ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه! قلت: بلى يا رسول الله! قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله! قال: فأخذ بلسانه وقال: كف عليك هذا! فقلت: يا نبى الله! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم، أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم".(٣)

ففى الحديث النبوى الشريف السابق أوضح الرسول (ﷺ) معالم كثيرة للمرء يسير عليها فى دنياه.

وحسبنا هنا أن ننظر فى قوله: "حصائد ألسنتهم". لأن الله سبحانه وتعالى منح الإنسان نعمة عظيمة وهى أن التصور القلبى ومجرد الهم لا يؤاخذ عليه

---

(١) مجلة لواء الإسلام، العدد الرابع، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م، ص: ٢١٥.

(٢) سورة: السجدة: آية: ١٦.

(٣) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

فمتي تكلم فقد كتب به عليه وعرض نفسه للمسئولية التى لولا لسانه لكان منها ناجياً وبريئاً.

ولنا عود للحديث الشامل الجامع لرسول (ﷺ) فى قول معاذ: "يا نبى الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟".

فهذا استفهام استثبات وتعجب واستغراب، فقال " ثكلتك أمك". أى فقدتك أمك، لفقدك إدراك المؤاخذة بذلك من ظهورها، وهذا مما غلب جريانه على ألسنتهم فى المحاورات، للتحريض على الشيء والتهييج إليه من غير إرادة حقيقية معناه من الدعاء على المخاطب بموته. "وهل" استفهام إنكار بمعنى النفى أى ما، "يكُب" بضم الكاف. "الناس" ـــ أى أكثرهم ـــ يلقيهم فى النار على وجوههم، أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم. أى ما تكلمت به من الإثم.

وحصائد: جمع حصيدة بمعنى محصودة، وهنا التشبيه لما تكسبه الألسنة من الكلام والحرام بحصائد الزرع، بجامع الكسب والجمع، وكذلك تشبيه اللسان فى تكلمه بذلك بحدِّ المنجل الذى يحصد به الناس الزرع .

وهذا الكلام جاء على سبيل الاستعارة المكنية من حيث تشبيه ذلك الكلام بالزرع المحصود واللسان بالمنجل.

والحصر فى ذلك إضافي، إذ من الناس من يكبه فى النار عمله لا كلامه، لكن ذلك خرج مخرج المبالغة فى تعظيم جرائم اللسان.

وهذا يؤكد أن خطر اللسان عظيم، ولا نجاة منه إلا بالنطق بالخير.

ومن هنا قيل: "لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه".(١)

ومصداق ذلك ما رواه ابن مسعود رضى الله عنه: "يا لسان قل خيراً تغنم، واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم".

(١) النووي: بستان العارفين، هامش ص: ٥٨.

ومن آفات اللسان وما يجر من ويلات: الخوض فى الباطل، وهو الكلام فى المعاصي، كحكاية أحوال النساء، ومجالس الخمر، ومقامات الفسق، وتكبر الجبابرة، ومراسمهم المذمومة، وأحوالهم مكروهة، مما لا يحل الخوض فيه.

ومنها التشدق وتكلف السجع والفصاحة، والتصنع فيه، فإنه من التكلف الممقوت، ومقصود الكلام التفهيم للغرض وما وراء ذلك من تصنع مذموم.

ومنها الفحش والسب وبذاءة اللسان، وهو مذموم ومنهى عنه ومصدره الخبث واللؤم.(١)

ولهذا كان سلفنا الصالح مثالاً حسناً فى الورع عن الخوض فى أعراض الناس، بل عن الفضول مما لا يعنى فى الكلام: مجالسهم محفوظة، وألسنتهم مكفوفة، وأبصارهم مغضوضة.

تراهم سكرى وما هم بسكرى، ومرضى وما هم بمرضى، بل غرقوا فى النظر إلى عيوبهم، وذهلوا عن غيرهم ... مشغولون بالبحث عن خفيات دخائل نفوسهم، انكمشوا عن غير الله، وأعرضوا عمن سواه، وأخلصوا دينهم لربهم.

وعن الإمام الشافعى رضى الله عنه قال: قيل لأبى بن كعب رضى الله عنه: يا أبا المنذر عظني! قال: "آخِ الإخوان على تقواهم، ولا تجعل لسانك بدأةً لمن لا يرغب فيه، ولا تغبط الحى إلا بما تغبط به الميت"!!(٢)

ومما ينبغى أن يفهم الواجب على كل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتركه فى المصلحة فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه وذلك كثير فى العادة والسلامة لا يعد لها شيء.(٣)

---

(١) النووي: بستان العارفين، هامش ص: ٥٨.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف: رياض الصالحين (الإسكندرية: دار القادسية، بدون تاريخ) ص: ٣٦٩.

قال تعالي: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾.(١)

وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.(٢)

وقال تعالى: ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.(٣)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: **[ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت]**.(٤)

وهذا الحديث صريح فى أنه ينبغى أن لا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً وهو الذى ظهرت مصلحته، ومتى شك فى ظهور المصلحة فلا يتكلم.

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أى المسلمين أفضل؟ قال: **[من سلم المسلمون من لسانه ويده]**.(٥)

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **[من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة]**.(٦)

وعن سفيان بن عبد الله رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله حدثنى بأمر أعتصم به، قال: قل ربى الله ثم استقم. قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: "لهذا".(٧)

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): **[لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي!]**.(٨)

---

(١) سورة الإسراء: الآية: ٣٦.
(٢) سورة ق: الآية ١٨.
(٣) سورة الحجرات: الآية ١٢.
(٤) هذا حديث متفق عليه
(٥) هذا حديث منفق عليه
(٦) هذا حديث متفق علبه
(٧) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح.
(٨) رواه النرمذي.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): **[من وقاه الله شر ما بين لحييه وشر ما بين رجليه دخل الجنة].**(١)

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: **[أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك].**(٢)

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى (ﷺ) قال: **[إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا].**(٣)

وهنا يحق لنا أن نقول: إن أدب اللسان يجب أن يكون رطباً بذكر الله تعالى، وبذكر الإخوان بخير، والدعاء لهم، وبذل النصيحة، والوعظ، ولا يكلمهم بما يكرهون، ولا يغتب ولا ينم ولا يشتم ولا يخض فيما لا يعنيه، وإذا كان فى جماعة تكلم معهم ماداموا يتكلمون فيما يعنيهم، فإذا أخذوا فيما لا يعنيهم تركهم وأمسك، ويتكلم فى كل مكان بما يوافق الحال، فقد قيل: لكل مقام مقال.

وقيل: خلق اللسان ترجماناً للقلب، ومفتاحاً للخير والشر.

وقيل: إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك، والزم الصمت، فإنه ستر للجاهل وزين للعاقل.(٤)

---

(١) رواه النرمذى وقال حديث حسن.

(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

(٣) رواه الترمذى

(٤) ابن عجيبة: الفتوحات الإلهية، ص: ١٦٢.

النهى عن الغيبة والأمر بحفظ اللسان

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.(١)

قال النووى رحمه الله: اعلم أنه ينبغى لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة. ومتى استوى الكلام وتركه فى المصلحة فالسنة الإمساك عنه لأنه قد ينجرُّ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه وذلك كثير فى العادة والسلامة لا يعد لها شيء.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ) قال: **[من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت]**.(٢)

كما قال النووي: وهذا صريح فى أنه ينبغى أن لا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً وهو الذى ظهرت مصلحته ومتى شك فى ظهور المصلحة فلا يتكلم.

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: **[قلت يا رسول الله أى المسلمين أفضل؟ قال: من سلم المسلمون من لسانه ويده]** (٣).

وقال (ﷺ): **[إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله تعالى له بها سخطه إلى يوم يلقاه]**.(٤)

وقال (ﷺ): **[لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي]**.(٥)

---

(١) سورة الحجرات: الآية: ١٢.

(٢) رواه البحارى ومسلم فى صحيحبهما.

(٣) رواه البخارى ومسلم

(٤) رواه مالك فى الموطأ، والترمذى وقال حديث حسن صحبح.

(٥) رواه الترمذي.

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: **قلت يا رسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار. قال: لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير! الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل فى جوف الليل، ثم تلا قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (١). ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه! قلت: بلى يا رسول الله! قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله! قال: فأخذ بلسانه وقال: كف عليك هذا ! فقلت: يا نبى الله! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم، أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم".** (٢)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول (ﷺ) **قال لمن حوله من أمته اكفلوا لى بست أكفل لكم الجنة. قلت ما هى يا رسول الله؟ قال: الصلاة والزكاة والأمانة والفرج والبطن واللسان.** (٣)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول (ﷺ) قال: **"أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول. قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته".** (٤)

وروى أن رجلاً قال للحسن بلغنى أنك تغتابنى. فقال ما بلغ من قدرك عندى أن أحكمك فى حسناتي.

---

(١) سورة: السجدة: الأية ١٦.

(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح.

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد لا بأس به.

(٤) رواه مسلم فى صحيحه.

وقال ابن المبارك: لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت والدى فإنهما أحق بحسناتي.

وقال ابن مسعود رضى الله عنه: ما من شيء أحق بطول السجن من اللسان.

وقال غيره: مثل اللسان مثل السبع إن لم توثقه عدا عليك.

وعن يحيى بن مسعود أن عيسى بن مريم عليهما السلام لقى خنزيراً على الطريق فقال له: "اذهب بسلام". فقيل له: تقول هذا للخنزير. فقال عيسى: "إنى أكره أن أعود لسانى النطق بسوء". (١)

لكن الذى لا ينبغى إغفاله حسبما يرى النووى أن الغيبة تباح بستة أسباب:

أحدها: التظلم فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضى وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه فيقول: ظلمنى فلان أو فعل بى كذا.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصى إلى الصواب فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر فلان يعمل كذا فازجره عنه ونحو ذلك.

الثالث: الاستفتاء بأن يقول للمفتى ظلمنى أبى أو أخى بكذا فهل له ذلك أم لا، وما طريقى فى الخلاص منه ودفع ظلمه عنى ونحو ذلك، وكذا قوله: زوجتى تفعل معى كذا وزوجى يضربنى ويقول لى كذا. فهذا جائز للحاجة والأحوط أن يقول ما تقول فى رجل أو زوج أو والد كان من أمره كذا وكذا. ومع ذلك فالتعيين جائز لحديث هند فى الصحيحين: "إن أبا سفيان شحيح". (٢)

الرابع: تحذير المسلمين من الشر وذلك من وجوه منها: جرح المجروحين من الرواة والشهود والمصنفين وذلك جائز بالإجماع بل واجب صوناً للشريعة. ومنها الإخبار بعيبه عند المشاورة فى مواصلته. ومنها إذا

---

(١) عبيد الضرير: نزهة الناظرين، ص: ٢١٠.

(٢) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما.

رأيت من يشترى شيئاً معيباً أو عبداً سارقاً أو شارباً أو زانياً تذكره للمشترى إذا لم يعلمه نصيحة لا بقصد الإيذاء والإفساد. ومنها إذا رأيت متفقهاً يتردد إلى فاسق أو مبتدع يأخذ عنه علماً وخفت عليه ضرورة فعليك نصيحته ببيان حاله قاصداً للنصيحة. ومنها ألا تكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها لعدم أهليته أو فسقه فيذكره لمن عليه ولاية ليستبدل به أو يعرف حاله فلا يغتر به أو يلزمه الاستقامة.

الخامس: أن يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته كالخمر ومصادرة الناس وجباته المكوس وتولى الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به ولا يجوز بغيره إلا بسبب آخر.(١)

السادس: التعريف فإذا كان معروفاً بلقب كالأعمش والأعرج والأزرق والقصير ونحوها جاز تعريفه.

وقال أبو الليث السمرقندي: الغيبة على أربعة أوجه: ففى الوجه الأول هى كفر وهو إذا اغتاب المسلم. فقيل له: لا تغتب. فيقول ليس هذا غيبة وأنا صادق فى ذلك فقد استحل ما حرم الله، ومن استحل ما حرم الله تعالى كان كافراً.

وفى الوجه الثانى هو نفاق. وهو أن يغتاب انساناً ولا يسميه عند من يعرفه أنه يريد به فلاناً فهو يغتابه ويرى من نفسه أنه متورع. وفى وجه هى معصية وهو أن يغتاب إنساناً ويسميه ويعلم أنها معصية وهو عاص وعليه التوبة. وفى الوجه الرابع مباحة وهو أن يغتاب فاسقاً معلناً بفسقه أو صاحب بدعة فهو مأجور لأنهم يحذرون منه إذا عرفوا حاله.(٢)

ومما سجله الغزالى فى هذا الصدد أنه قال: ثلاثة لا غيبة لهم الإمام الجائر والمبتدع والمجاهر بفسقه.

---

(١) عبيد الضرير: نزهة الناظرين، ص: ٢١٠.

(٢) المصدر السابق، ص: ٢١١.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: ليس لفاجر حرمة وأراد به المجاهر بفسقه دون المتستر إذ المتستر لابد من مراعاة حرمته.

وفى هذا المعنى يقول الإمام على رضى الله عنه: قلّ ما ينصفك اللسان فى نشر قبيح أو إحسان.(١)

كما قال: ما أضمر أحدٌ شيئاً إلا ظهر من فلتات لسانه وصفحات وجهه.

وقال أيضاً: من كتم سره عمن يحب كراهية أن يشهره عند غضب من المستودع.

وقد قيل: من أطلق طرفه كثر أسفه.

فمن كان حاد اللسان فاحش القول فليستغفر الله ... لحديث حذيفة حين قال: شكوتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذرب لسانى ... فقال: أين أنت من الاستغفار؟ إنى لأستغفر الله كل يوم مائة مرة.

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: "ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه ولا من فاسق بيّنٌ فسقه ولكن أخاف عليها رجلاً قد قرأ القرآن حتى أزلقه بلسانه ثم تأوله على غير تأويله".(٢)

كما قال: "لا تعترض لما لا يعنيك، واعتزل عدوك، واحتفظ من خليلك إلا الأمين، فإن الأمين من القوم لا يعادله شيء، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره، ولا تفش إليه سرك، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله عز وجل".(٣)

وقال أيضاً: احذر من فلتات السباب كما أورثك النبز*، وأعلقك اللقب، فإنه إن يعظم بعده شأنك يشتد عليه ندمك".

---

(١) ابن سلامة القطاعي: دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم، ص: ٢٢.

(٢) خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه، جمع وتحقيق وتعليق محمد أحمد عاشور (القاهرة: دار الاعتصام، سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص: ٩٧.

(٣) المرجع السابق، ص: ١٢٥.

*النبز: اللقب وهو يكثر فيما كان ذماً.

ويقول الإمام على رضى الله عنه: عفة اللسان صمته من الفراغ.

كما قال: من تجنب عيوب الناس بنفسه سلم من ألسنة الناس فهو السعيد، ومن تحفظ من سقط الكلام أفلح.

وقال أيضاً: خير ما ساس الإنسان به نفسه ضبط اللسان. ولقد قيل :

خاطبـــنى الحـــق مـــن جنانـــي ∴ فكـــان وعظـــى علـــى لســـاني

وقد جاء فى الخبر: "إنَّ أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه، وأكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم خوضاً فيما لا يعنيه".(١)

وفى اللسان التزين والتصنع للخلق، والتحريف والإحالة لمعانى الصدق وفيه المداهنة والمواراة والتملق لأهل الأهواء. وفى اجتماع هذا على العبد شتات قلبـــه، وفى شتاته تفريق همه، وفى تفريق همه سقوطه من مقام المقربين.(٢)

---

(١) رواه الطبرانى عن ابن مسعود.

(٢) أبـــو العزائم، محمد ماضى: أصول الوصول لمحبة الرسول (القاهره: دار المدينة المنورة، الطبعة الرابعة، سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ص: ١٤٤-١٤٥.

حفظ اللسان من الغيبة والشتم

قال النبى (ﷺ): [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت].[1]

وقال (ﷺ): [إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالأ يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالأ يهوى فى جهنم].[2]

ويروى: "يهوى بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب".[3]

وقال (ﷺ): [سباب المسلم فسوق وقتاله كفر].[4]

وقال عليه الصلاة والسلام: [إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة].[5]

وقال (ﷺ): [إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم].[6]

وقال (ﷺ): [تجدون أشر الناس يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه].[7]

وقال (ﷺ): [عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا].[8]

---

(١) هذا الحديث متفق علبه من حديث أبى هريرة.

(٢) رواه مالك والبخاري.

(٣) رواه البخارى ومسلم والنسائى.

(٤) هذا الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٥) هذا حديث من أحاديث أبى الدرداء.

(٦) رواه مسلم وأبو داود عن أبى هريرة.

(٧) متفق عليه من حدبث أبى هريرة.

(٨) منفق عليه من حديث ابن مسعود.

وفى رواية: [إن الصدق برُ والبر يهدى إلى الجنة، وإن الكذب فجور والفجور يهدى إلى النار].(١)

وقال: [ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس ويقول خيراً وينمى خيراً].

وقال: [إذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب].(٢)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): [كل أمتى معافى إلا المجاهرين، فإن المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه].

وقال عليه الصلاة والسلام: [أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ تقوى الله وحسن الخلق، أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس النار؟ الأجوفان: الفرج والفم].(٣)

وقال (ﷺ): [كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع].(٤)

وسئل (ﷺ): [ما النجاة؟ فقال: أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك].(٥)

وقال (ﷺ): [من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه].(٦)

وقال (ﷺ): [ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان ولا الفاحش ولا البذيء].(٧)

وقال عليه الصلاة والسلام: [ما كان الفحش فى شىء إلا شانه، وما كان الحياء فى شئ إلا زانه].(٨)

---

(١) رواه ابن حبان عن أبى بكر الصديق (رضي الله عنه)
(٢) رواه مسلم عن المقداد.
(٣) رواه الترمذى عن أبى هريرة.
(٤) رواه مسلم عن أبى هريرة.
(٥) رواه الترمذى عن عقبة بن عامر.
(٦) رواه الترمذى والواقدى عن أبى هريرة.
(٧) رواه الترمذى من حديث ابن مسعود.
(٨) رواه ابن ماجة والترمذى عن أنس.

وقال (ﷺ): [من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله].(١)

وقال (ﷺ): [لا تظهر الشماتة بأخيك فيرحمه الله ويبتليك].(٢)

ويقول عمر رضى الله عنه في نفس المعنى: لا تعرض لما لا يعنيك، واعتزل عدوك، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين، ولا لأمين إلا من خشى الله تعالى، ولا تصحب الفاجر، فتتعلم منه فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.(٣)

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير هذه الآية هم المشاؤن بالنميمة، المفرقون بين الأحبة.

وقيل: الهمزة: الغيبة فى الوجه. واللمزة: الغيبة فى القفا.

وقال ابن العباس أيضاً فى قوله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾(٤). أى يغتابك. وقيل: يعيب عليك لأعدائك.

وقيل: الهمزة تكون بالعين واللمزة تكون باللسان. ومثل الهمزة هماز وهو الوليد بن المغيرة، واللمزة هو أبى بن خلف.

وقال مقاتل: الأول كان كثير الحلف مهيناً ضعيفاً حقيراً أثيماً فاجراً ثم عتل سئ الخلق بعد ذلك، أى مع هذه الصفات، زنيم أى ليس من القوم.

وقيل أبو جهل قال لأمة هذه الصفات كلها فى إلا قوله زنيم هل أنا من أبى قالت لا بل مكنت عبداً منى فأنت منه فصار الزنيم هو ولد الزنا.

كما قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره فى قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾(٥). أنها كانت تمشى بالنميمة وقبل ذلك كانت تطرح الشوك ليلاً على طريق الرسول (ﷺ) فيكون تحت أقدامه كالحرير.

---

(١) رواه الترمذى عن معاذ بن جبل.

(٢) رواه الترمذى والطبرانى عن واثله.

(٣) سورة الهمزة: الآية: ١.

(٤) سورة: التوبة: الآية: ٥٨.

(٥) سورة المسد آية: ٤

وقال يحيى بن أكثم رضى الله عنه: النمام أشر من الساحر فإنه يعمل فى يوم ما لا يعمله الساحر فى شهر.

وقال أبو عمرو: إن الغيبة فاكهة القراء وضيافة الفساق وبساتين الملوك ومرتع النساء ومزابل الأتقياء وإدام كلاب الناس. وقيل: كلاب أهل النار.

وقد قيل: ضابط الغيبة أن تذكر أخاك بما يكره وإن كان فيه ولو بقلبك.

وقال النبى (ﷺ) **[أيما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برئ ليشينه بها فى الدنيا كان حقاً على الله أن يرميه بها فى النار يوم القيامة].**

وقال الرازى فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (١).

قيل: الخطيئة: الصغيرة، والإثم: الكبيرة.

وقيل: الخطيئة الذنب الذى يختص به الإنسان، والإثم الذنب المعتدى كالظلم والقتل.

وقيل: الخطيئة: كان عمداً أو سهواً. والإثم ما حصل بالعمد. فقد احتمل بهتاناً أى ذماً فى الدنيا وإثماً مبيناً أى عذاباً فى الآخرة. فصاحب هذا الفعل مذموماً فى الدنيا ومعاقب فى الآخرة.

ولا فرق فى تحريم الغيبة بين أن تكون لفظاً أو سخطاً أو إشارة.

وكما أن الغيبة تحرم يحرم استماعها أيضاً ويجب إنكارها إن لم يخف ضرر وإلا فيفارق ذلك المجلس وإن لم يقدر على المفارقة اشتغل بالذكر.

وقد قيل: النمام من بنى آدم مذموم عند الله سبحانه وتعالى وعند عباده.

وكان الدسوقى يقول: الغيبة فاكهة القراء، وضيافة الفساق، وبستان الملوك، ومراتع النسوان، ومزابل الأتقياء.(٢)

---

(١) سورة النساء آية: ١١٢.

(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ١٥٢.

وقال إمامنا الشافعى رضى الله عنه: من نم لك، نم عليك، ومن نقل إليك، نقل عنك. ومن إذا أرضيته، قد مدحك بما ليس فيك، وإذا أسخطته ذمك بما ليس فيك.

ولقد استثنى العلماء فى الغيبة أموراً ستة:

١- التظلم: فيجوز أن يقول للمظلوم: فلان ظلمنى وأخذ مالى، إذا كان يذكر ذلك لمن يقدر على إزالة الظلم. والدليل على ذلك قول هند حينما شكت إلى رسول الله (ﷺ) من أبى سفيان، من أنه رجل شحيح.

٢- الاستعانة على تغيير المنكر، بذكره لمن يقدر على تغييره، فيقول: فلان فعل كذا، فى حق من لم يكن مجاهراً بمعصية.

٣- الاستفتاء، بأن يقول للمفتي: فلان ظلمنى بكذا، فما طريقى إلى الخلاص منه؟

٤- تحذير المسلمين من الاغترار، كجرح الرواه، والشهود، ومن لم يتصدر للتدريس والإفتاء، مع عدم الأهلية. ودليله قوله (ﷺ): "أما معاوية فصُعلوك".

٥- ذكر من جاهر بفسق، أو معصية، أو بدعة كالمكاسين، وذوى الولايات الباطلة. فيجوز ذكرهم بما يجاهرون به. والدليل قوله (ﷺ): "اذكروا الفاجر".

٦- التعريف بالشخص بما فيه من العيب، كالأعور والأعمى والأعرج، ولا يراد بذلك انتقاصه أو غيبته. هذا وقد جمعها ابن أبى شريف فى قوله، أى جمع الخصال الست فى بيت من الشعر:

الذم ليس بغيبة فى ستةٍ ∴ مُتظلم ومُعرفٍ ومُحذِرِ
ولمظهر فسقاً ومستفت ومن ∴ طلب الإعانة فى إزالة منكرِ

كما قال شاعر:

فإن عيبت قوماً بالذى فيك مثلُهُ ∴ فكيف يعيب الناس من هو أعور

ومما يروى أن سليمان بن عبد الملك قال لرجل: بلغني أنك وقعت فيَّ، وقلت كذا وكذا. فقال الرجل: ما فعلت. فقال سليمان: إن الذى أخبرنى صادق. فقال الرجل: لا يكون النمام صادقاً. فقال سليمان: صدقت، اذهب بسلام.

وفى حديث آخر: "**إياكم والغيبة، فإن الغيبة أشد من الزنا، إن الرجل قد يزنى ويشرب، ثم يتوب ويتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر الله له حتى يغفر له صاحبه**".(١)

وقال على بن الحسين رضى الله عنهما: إياك والغيبة، فإنها إدام كلاب الناس. والأحاديث والآثار فى ذلك كثيرة مشهورة.

ومعنى الغيبة: أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه، سواء كان نقصاً فى بدنه، كالعمش، والعور، والحول، والقرع، والطول، والقصر، ونحو ذلك.

أو فى نسبه، كقولك: أبوه نبطي، أو هندي، أو فاسق، أو خسيس، ونحو ذلك.

أو فى خلقه: كقولك: هو سيئ الخلق بخيل متكبر ونحو ذلك.

أو فى ثوبه: كقولك: هو طويل الذيل، واسع الكم، وسخ الثياب.

والدليل على ذلك، أن النبى (ﷺ) سُئل عن الغيبة فقال: **[ذكرك أخاك بما يكره . قال: أرأيت إن كان فى أخى ما أقول يا رسول الله؟ قال: إن كان فى أخيك ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته].**

واعلم أن كل ما يُفهم من مقصود الذم، هو داخل فى الغيبة، سواء كان بكلام أو بغيره، كالغمز، والإشارة والكتابة بالقلم، فإن القلم أحد اللسانين.

وأقبح أنواع الغيبة، غيبة المتزهدين المرائين، مثل أن يُذكر عندهم إنسان فيقولون: الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان، والبذل فى طلب الحكام، أو يقولون: نعوذ بالله من قلة الحياء، أو نسأل الله العافية، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم.

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا في. "ذم الغيبة" وأبو الشيخ في: "التوبيخ" عن جابر وأبى سعيد، وفى سنده عباد بن كثير وهو متروك.

وربما قال أحدهم عند ذكر إنسان: ذاك المسكين قد بُلى بآفة عظيمة، تاب الله علينا وعليه، فهو يُظهر الدعاء ويُخفى قصده.

ومما ينبغى أن يُفهم أن المستمع للغيبة شريك فيها، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن يُنكر بلسانه، فإن خاف فبقلبه وإن قدر على القيام، أو قطع الكلام بكلام آخر، لزمه ذلك.(١)

وقد روى عن النبى (ﷺ) أنه قال: **[من أذل عنده مؤمن وهو يقدر أن ينصره أذله الله عز وجل على رؤوس الخلائق].**(٢)

وقال (ﷺ): **[من حمى مؤمناً من منافق يعيبه، بعث الله ملكاً يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم].**(٣)

ومما يُروى عن عمر بن عتبة أنه رأى مولاه مع رجل وهو يقع فى آخر، فقال له: ويلك نزه سمعك عن استماع الخنا، كما تنزه نفسك عن القول به، فالمستمع شريك القائل، وإنما نظر إلى شر ما فى وعائه فأفرغه فى وعائك، ولو ردت كلمة سفيه فى فيه لسعد بها رادها كما شقى بها قائلها.

الأسباب الباعثة على الغيبة وذكر علاجها:

الأسباب التى تبعث على الغيبة كثيرة نذكر منها:

السبب الأول: تشفى الغيظ، بأن يجرى من إنسان فى حق آخر سب يوجب غيظه، فكلما هاج تشفى بغيبة صاحبه.

السبب الثانى: من البواعث على الغيبة: موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم، فإنهم إذا كانوا يتفكهون فى الأعراض، رأى هذا أنه أنكر عليهم أو قطع كلامهم استثقلوه ونفروا منه، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة.

---

(١) ابن قدامة المقدسى: مختصر منها ج القاصدين، ص: ١٦٩-١٧٠.

(٢) رواه أحمد والطبرانى من حديث سهل بن حنيف، وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.

(٣) أخرجه أبو داود من حديث معاذ بن أسد الجهنى، وفى سنده مجهول وضعيف.

السبب الثالث: إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره، فيقول: فلان جاهل، وفهمه ركيك، ونحو ذلك، غرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه، ويريهم أنه أعلم منه.

وكذلك الحسد فى ثناء الناس على شخص وحبهم له وإكرامهم، فيقدح فيه لقصد زوال ذلك.

السبب الرابع: اللعب والهزل، فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة، حتى أن بعض الناس يكون كسب من هذا.

وأما علاج الغيبة، فليعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله تعالى ومقته، وأن حسناته تُنقل إلى المغتاب إليه، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة.[1]

وينبغى إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر فى عيوب نفسه، ويشتغل بصلاحها، ويستحيى أن يعيب وهو معيب. كما قال بعضهم:

وإن عبت قوماً بالذى فيك مثلُهُ ∴ فكيف يعيب الناس من هو أعور

وإن عبت قوماً بالذى ليس فيك ∴ فذلك عند الناس والله أكبر.

وإن ظن أنه سليم من العيوب، فليتشاغل بذكر الله والشكر على النعم، ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب وهو الغيبة، وكما لا يرضى لنفسه بغيبة غيره له، فينبغى ألا يرضاها لغيره من نفسه.

فلينظر فى السبب الباعث على الغيبة، فيجتهد على قطعه، فإن علاج العلة يكون بقطع سببها.[2]

الغيبة بسبب سوء الظن:

قد تحصل الغيبة بالقلب، وذلك سوء الظن بالمسلمين والظن ما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب، فليس لك أن تظن بالمسلم شراً، إلا إذا انكشف أمر لا

---

(١) ابن قدامه المقدسي: مختصر منها ج القاصدين، ص: ١٧١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٢.

يحتمل التأويل فإن أخبرك بذلك عدل، فمال قلبك إلى تصديقه، كنت معذوراً، لأنك لو كذبته كنت قد أسأت الظن بالمخبر، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيئه بآخر، بل ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة وحسد؟ فتتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك، ومتى خطر لك خاطر سوء على مسلم، فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك، فلا يلقى إليك خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة.

وإذا تحققت هفوة لمسلم، فانصحه في السر.(١)

واعلم أن من ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن، بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس، وذلك منهي عنه، لأنه يوصل إلى هتك ستر المسلم، ولو لم ينكشف لك، كان قلبك أسلم للمسلم.

كفارة الغيبة:

أما عن كفارة الغيبة، فاعلم أن المغتاب قد جنى جنايتين:

إحداهما: حق الله تعالى، إذ فعل ما نهاه عنه، فكفارة ذلك التوبة والندم.

والجناية الثانية: محارم المخلوق، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل، جاء إليه واستحله، وأظهر له الندم على فعله.(٢)

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) أنه قال: **[من كانت عنده مظلمة لأخيه، من مال، أو عرض، فليأته وليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده درهم ولا دينار، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا، وإلا اخذ من سيئات هذا فألقي عليه].**

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل، جعل مكان استحلاله الاستغفار له، لئلا يخبره بما لا يعلمه، فيوغر صدره.

(١) مختصر منهاج القاصدين ص: ١٧٢.

(٢) المصدر السابق، ص: ١٧٣-١٧٤.

وقد ورد فى الحديث: "كفارة من اغتيب أن يستغفر له".

وقال مجاهد: كفارة أكل لحم أخيك أن تثنى عليه وتدعو له بالخير، وكذلك إن كان قد مات.(١)

بيان ما يباح من الغيبة:

لما كانت الشريعة الإسلامية أمرتنا بحفظ اللسان ونهتنا عن الغيبة. ولكن ينبغى أن نوضح أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعى لا يمكن الوصول إليه إلا بها وهو ستة أسباب :

الأول: التظلم فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضى وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمنى فلان بكذا.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصى إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا فازجره عنه ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حراماً.

الثالث: الاستفتاء، فيقول للمفتى ظلمنى أبى أو أخى أو زوجى أو فلان بكذا فهل له ذلك؟ وما طريقى فى الخلاص منه وتحصيل حقى ودفع الظلم ونحو ذلك، فهذا جائز للحاجة، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول فى رجل أو شخص أو زوج كان من أمره كذا؟ فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين ومع ذلك فالتعيين جائز.(٢)

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه، منها جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين بل واجب للحاجة، ومنها المشاورة فى مصاهرة إنسان أو مشاركته أو إيداعه أو معاملته أو غير ذلك، أو مجاورته، ويجب على المشاور أن لا يخفى حاله بل يذكر المساوئ التى فيه بنية النصيحة. ومنها إذا رأى متفقهاً يتردد إلى

(١) ابن قدامة المقدسي: مختصر منهاج القاصدين، ص: ١٧٤.

(٢) النووي: رياض الصالحين، ص: ٣٧٤.

مبتدع أو فاسق يأخذ عنه العلم وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله بشرط أن يقصد النصيحة، وهذا مما يغلط فيه، وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد ويلبس الشيطان عليه ذلك ويُخيل إليه أنه نصيحة فليتفطن إلى ذلك. ومنها أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها، إما بأن لا يكون صالحاً، وإما أن يكون فاسقاً أو مغفلاً ونحو ذلك، فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله ويولى من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله ولا يغتر به، وأن يسعى فى أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به.[1]

الخامس: أن يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس، وأخذ المكس، وجباية الأموال ظلماً، وتولى الأمور الباطلة. فيجوز ذكره بما يجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفاً بلقب كالأعمش والأعرج والأصم والأعمى والأحول وغيرهم جاز تعريفهم بذلك، ويحرم إطلاقه على جهة التنقيص، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى.

فهذه ستة أسباب ذكرها العلماء وأكثرها مجمع عليه، ودلائلها من الأحاديث الصحيحة مشهورة، فمن ذلك: عن فاطمة بنت قيس رضى الله عنها قالت: أتيت النبى (ﷺ). فقلت: إن أبا الجهم ومعاوية خطباني، فقال رسول الله (ﷺ): **[أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو الجهم فلا يضع العصا على عاتقه].**[2]

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قالت هند امرأة أبي سفيان للنبى (ﷺ): **أن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطينى ما يكفينى وولدى إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم. قال: "خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف".**[3]

---

(١) النووى: رياض الصالحين ص: ٣٧٤-٣٧٥.

(٢) متفق عليه. وفى رواية لمسلم: "وأما أبو الجهم فضراب النساء". وهو تفسير لرواية: "لا يضع العصا على عاتقه". وقيل: معناه: كثير الأسفار.

(٣) متفق عليه.

النهى عن نقل الحديث وكلام الناس

لما كان القرآن الكريم يحمل فى طياته كل ما يمكن أن يفيد الإنسان فى رحلة حياته الدنيا إلى الآخرة من علم ومعارف أساسية فلقد جاء القرآن بالآيات التى تنهانا عن نقل الحديث وكلام الناس إلى ولاة الأمور إذا لم تدع حاجة إلى ذلك كخوف مفسدة ونحوها.

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.(١)

وعن أبى مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): **[لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئاً فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر].**(٢)

وقد قيل: **[صن اللسان إلا فى أربعة: فى الحق توضحه، وفى الباطل تدحضه، وفى النعمة تشكر بها، وفى الحكمة تظهره].**

ونستطيع أن نقول بيقين غش القلوب يظهر فى زلات اللسان. فاللسان الذى طوله ثلاث إنجات قد يقتل إنساناً طوله ستة أقدام. وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول: لا تدع لسانك يقطع رأسك.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): **[تجدون الناس معادن، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام. إذا فقهوا، وتجدون خيار الناس فى هذا الشأن أشدهم له كراهة، وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه].**(٣)

وعن محمد بن زيد أن ناساً قالوا لجده عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: "إنا ندخل على سلطاننا فنقول بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم، فقال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله (ﷺ) ".(٤)

---

(١) سورة المائدة: الآية: ٢.

(٢) رواه أبو داود والترمذي.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

(٤) رواه البخاري.

ومما قيل: حفظ اللسان من كرامة الإنسان.

كما قيل: خير القول ما أغناك جدّه وألهاك هزله.

وقيل أيضاً: صلاح الإنسان فى حفظ اللسان. فمن حفظ لسانه نجا بينما فلتات اللسان تؤدى إلى هلاك الإنسان. ومن وصايا حكيم فى هذا المقام أنه قال: "كن ورعاً تكن من أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن من أغنى الناس، وأحسن إلى من جاورك تكن مسلماً، ولا تُكثر من الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب، واحرص لسانك فى بيتك وابك على خطيئتك.

فآفات اللسان كثيرة ومتنوعة، ولها فى القلب حلاوة، ولها بواعث من الطبع، ولا نجاة من خطرها إلا بالصمت. فالصمت يجمع الهمة ويفرغ الفكر.

وفى الحديث، أن النبى (ﷺ) قال: **[من يضمن لى ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة].**

وفى حديث آخر: **[لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه].**(١)

وفى حديث معاذ فى آخره: **[كف عليك هذا] فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: [ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم، أو قال: على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم؟].**

وفى حديث آخر: **[من كف لسانه ستر الله عورته].**(٢)

وقال ابن مسعود: ما أحوج إلىَّ طول سجن من لسان.

وقال أبو الدرداء: انصف لسانك من فيك، فإنما جعلت لك أذنان وفم واحد لتسمع أكثر مما تتكلم به.

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى "الصمت" من حديث أنس، وفى سنده على بن مسعده.

(٢) أخـــرجه ابن أبى الدنيا في: "الصمت" من حديث ابن عمر، وفيه هشام بن أبى إبراهيم. قال الذهبى في: "الميزان" مجهول، وباقى رجاله ثقات، ومع ذلك فقد حسن إسناده العراقي.

وقال مخلد بن الحسين: ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أريد أن أعتذر منها.[1]

ومن المواعظ البليغة التى نقلها أمير المؤمنين على بن أبى طالب: يا ابن آدم من ترك الحساد ومن اجتنب الحرام خلص دينه ومن ترك الغيبة ظهرت محبته فى القلوب ومن اعتزل عن الناس سلم منهم ومن قل كلامه كمل عقله.

ولقد جاء فى بعض الأقوال والحكم: امسكوا أفواهكم عن قول الكذب والزيف والتأويل ولا تحبوا الأباطيل.

كما قيل: ويل لذى لسانين يصدر حكمين لغضبة واحدة.

وثمة رأى آخر: من لقى المسلمين بوجهين ولسانين جاء يوم القيامة وله لسانان من نار.

وقال الله تعالى: يا عيسى ليكن لسانك فى السر والعلانية لساناً واحداً وكذلك قلبك إنى أحذرك لنفسك وكفى بى من خبير لا يصلح لسانان فى فم واحد ولا سيفان فى غمد واحد ولا قلبان فى صدر واحد وكذلك الأذهان.

وفى وصية لقمان لابنه بعلوم وحكمة بليغة قال: "يا بنى من لا يملك لسانه يندم، ومن يدخل مداخل السوء يُتهم، ومن يصاحب السوء لا يسلم ومن يجالس العلماء يغنم".

ولقد قال الأصمعى لغلام: أيسرك أن يكون لك مائة ألف درهم وأنت أحمق، فقال الغلام: لا. قال الأصمعي: ولم؟، قال: أخاف أن يجنى علىَّ حمقى فيذهب بمالى ويبقى حمقي.

ويقول الشافعي:

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى ∴ وحظك موفور وعرضك صين

لسانك لا تذكر به عورة امرئ ∴ فكلك عورات وللناس ألسن

---

(١) ابن قدامه المقدسي، أحمد بن عبد الرحمن: مختصر منها ج القاصدين، تعليق شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط (القاهرة: دار التراث، ط٤، سنة ١٣٩٨ هـ)، ص: ١٦٥.

وعينيك وإن أبدت إليك معايباً ∴ فصنها وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ∴ وفارق ولكن بالتى هى أحسن

وحول جرائم اللسان يقول أحد الشعراء:

يصاب الفتى من عثرة بلسانه ∴ وليس يصاب المرء من عثرة
فعثرته فى القول تُذهب رأسه ∴ وعثرة بالرجل تبرأ على مهل

ويقول آخر:

احفظ لسانك أيها الإنسان ∴ لا يلدغنك إنه ثعبان
كم فى المقابر من قتيل لسانه ∴ كانت تهاب لقائه الشجعان
احفظ لسانك واستعذ من شره ∴ إن اللسان هو العدو الكاشح
وزن الكلام إذا نطقت بمجلس ∴ فإذا استوى فهناك حلمك الراجح
والصمت من سعد السعود بمطلع ∴ تحيا به والنطق سعد رابح

من هنا كان الواجب على المرء أن يحفظ لسانه عن الخوض فى الكلام عن الناس.

النميمة، وهى نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد:

قال تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ﴾.(١)

وفى الصحيحين عن حذيفة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة منان".(٢)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما رسول الله (ﷺ) **[مر بقبرين فقال إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير بلى إنه كبير. أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله].**(٣)

---

(١) سورة القلم: الآية: ١١.

(٢) رواه البخارى ومسلم فى الصحيحين.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه.

قال العلماء: معنى وما يعذبان فى كبير. أى كبير فى زعمهما. وقيل: كبير تركه عليهما.

وقال يحيى بن كثير: يفسد النمام فى ساعة ما لا يفسد الساحر فى شهر.

وقال الحسن: من نم إليك نم عليك.

وقيل لمحمد بن كعب القرظي: أى خصال المؤمن أوضع له؟ قال: كثرة الكلام وإفشاء السر وقبول قول كل أحد.

وقال الغزالي: وكل من حملت إليه نميمة وقيل له قال فيك فلان كذا لزمه ستة أمور:

الأول: أن لا يصدقه لأن النمام فاسق وهو مردود الخبر. **الثاني:** أن ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبح فعله. **الثالث:** أن يبغضه فى الله تعالى فإنه يبغض عند الله تعالى والبغض فى الله تعالى واجب. **الرابع:** أن لا يظن المنقول عنه السوء لقوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.(١) **الخامس:** ألا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث عن تحقيق ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.(٢) **السادس:** أن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه فلا يحكى نميمته.

وقد جاء أن رجلاً ذكر لعمر بن عبد العزيز رجلاً بشيء. فقال عمر رضى الله عنه: إن شئت نظرنا فى أمرك فإن لم تكن كاذباً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾.(٣) وإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾.(٤) وإن شئت عفونا عنك. قال: العفو يا أمير المؤمنين ولا أعود.

---

(١) سورة الحجرات: الآية: ١٢.
(٢) سورة الحجرات: الآية: ١٢.
(٣) سورة الحجرات: الآية: ٦.
(٤) سورة القلم: الآية: ١١.

ورفع إنسان رقعة إلى الصاحب بن عباد يحثه فيها على أخذ مال يتيم وكان مالاً كثيراً فكتب على ظهرها النميمة قبيحة وإن كانت صحيحة، والميت رحمه الله واليتيم جبره الله والمال أثمره الله والساعى لعنه الله.(١)

هذه أمثلة سقناها توضح فعل النميمة فى نشر الفساد والإفساد بين الناس. وفى الحديث أن النبى (ﷺ) قال: **[لا يدخل الجنة قتات وهو النمام]**.

واعلم: أن النميمة تُطلق فى الغالب على نقل قول إنسان فى إنسان، مثل أن يقول: قال فيك فلان كذا وكذا، وليست مخصوصة بهذا، بل حدها كشف ما يكره كشفه، سواء كان من الأقوال أو الأعمال، حتى لو رآه يدفن مالاً لنفسه فذكره، فهو نميمة. وكل من نقلت إليه النميمة، مثل أن يقال له: قال فيك فلان كذا وكذا، أو فعل فى حقك كذا، ونحو ذلك، فعليه ستة أشياء:

الأول: أن لا يصدق الناقل، لأن النمام فاسق مردود الشهادة.

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصحه.

الثالث: أن يبغضه فى الله، فإنه بغيض عند الله.

الرابع: أن لا يظن بأخيه الغائب السوء.

الخامس: أن لا يحمله ما حكى له على التجسس والبحث، قوله تعالى: ﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾.(٢)

السادس: أن لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه، فلا يحكى نميمته.

ويروى أن سليمان بن عبد الملك قال لرجل: بلغنى أنك وقعت فيَّ، وقلت كذا وكذا. فقال الرجل: ما فعلت، فقال سليمان: صدقت، اذهب بسلام.

وقال يحيى ابن أبى كثير: يفسد النمام فى ساعة ما لا يفسد الساحر فى شهر.

---

(١) عبيد الضرير: نزهة الناظرين، ص: ٢١١.

(٢) سورة الحجرات: الآية: ١٢.

وقد حكى أن رجلاً ساوم بعبد، فقال مولاه: إني أبرأ إليك من النميمة والكذب، فقال: نعم، أنت برئ منهما، فاشتراه. فجعل يقول لمولاه إن امرأتك تبغى وتفعل، وإنها تريد أن تقتلك، ويقول للمرأة: إن زوجك يريد أن يتزوج عليك ويتسرى، فإن أردت أن أعطفه عليك فلا يتزوج ولا يتسرى فخذى الموسى واحلقى شعره من حلقه إذا نام وقال للزوج: إنها تريد أن تقتلك إذا نمت، قال فذهب فتناوم لها، فجاءت بموسى لتحلق شعره من حلقه، فأخذ بيدها وقتلها، فجاء أهلها فاستعدوا عليه فقتلوه.

الفصل الثالث

آفات اللسان

الفصل الثالث

آفات اللسان

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وبدأ خلقه من طين، ثم جعل نسله من ماء مهين، وسواه فعدله، وجعله فى أحسن صورة، سخر له كل ما فى الوجود، حتي الملائكة لخدمته، خلقه ليعمر به ملكه وملكوته، وجعل له الأرض مقراً للإقامة، ومستقراً له بعد الموت. وكل ما فى الملك والملكوت مسخر لخدمته.

وصرفه الحق تبارك وتعالى بتصريف الربوبية فى الملك. لذلك كان الإنسان خليفة الله فى أرضه، ووعده الحق عند الاستقامة الفوز بالجنة.

ولما كان الإنسان على هذا الوصف السابق خلق الله سبحانه وتعالى له لساناً يعبر به عن اللغة والكلام.

ولقد خصصنا هذا الفصل للحديث عن آفات اللسان نذكر منها:

الخطأ فى فحوى الكلام فيما يرتبط بأمور الدين، لا سيما فيما يتعلق بالله تعالى، ولا يقدر على تقويم اللفظ بذلك إلا العلماء الفصحاء، فمن قصر فى علم أو فصاحة، لم يخلُ كلامه عن الزلل، لكن يعفو الله عنه لجهله.

مثال ذلك ما روى عن النبى (ﷺ) أنه قال: "لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شئت".(١)

وذلك لأن فى العطف المطلق تشريكاً وتسوية، وقريب من ذلك إنكاره على الخطيب قوله: "ومن يعصيهما فقد غوى". وقال: قل: "ومن يعص الله ورسوله".

وقال (ﷺ): **[لا يقل أحدكم: عبدى وأمتي، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامى وجاريتي]**.

وقال النخعي: إذا قال الرجل للرجل: يا حمار، يا خنزير، قيل له يوم القيامة: أرأيتنى خلقته حماراً، أو رأيتنى خلقته خنزيراً.

فهذا وأمثاله مما يدخل فى الكلام، ولا يمكن حصره، ومن تأمل ما أوردناه فى آفات اللسان، علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم، وعند ذلك يعرف سر قوله (ﷺ): **[من صمت نجا]**. لأن هذه الآفات مهالك وهى على طريق المتكلم، فإن سكت سلم.

ومن آفات العوام سؤالهم عن صفات الله سبحانه وتعالى وكلامه. اعلم: أن الشيطان يخيل إلى العامى أنك بخوضك فى العلم تكون من العلماء وأهل الفضل، فلا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم بما هو كفر وهو لا يدري.

قال النبى (ﷺ): **يوشك الناس أن يسألوا، حتى يقولوا: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟. فسؤال العوام عن غوامض العلم أعظم الآفات، وبحثهم عن معانى الصفات مما يفسدهم لا مما يصلحهم، إذ الواجب عليهم التسليم، فالأولى بالعامى الإيمان بما ورد به**

(١) وفى هذا الحديث دليل على أن المرء مؤاخذ بلفظه كما هو مؤاخذ بنيته. ولذا يجب على المسلم أن يخص الله سبحانه بالعبادة والدعاء والتوكل والاستعانة، ولا يشرك معه غيره بذلك.

القرآن، ثم التسليم لما جاء به الرسول (ﷺ) من غير بحث، واشتغالهم بالعبارات، فإن اشتغالهم بالبحث عن أسرار العلم، كبحث سائحة الدواب عن أسرار الملك.

ومن آفات اللسان: فضول الكلام: وهو أيضاً مذموم. وهذا يتناول الخوض فيما لا يعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره. ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول. أى فضل عن الحاجة وهو أيضاً مذموم وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر.(١)

قال عطاء ابن أبى رباح وإن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ﷺ) أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر أو تنطق بحاجتك فى معيشتك التى لابد لك منها أتنكرون أن عليكم حافظين كراماً كاتبين. عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد. أما يستحى أحدكم إذا نشرت صحيفته التى أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه.

وعن بعض الصحابة قال: إن الرجل ليكلمنى بالكلام لجوابه أشهى إلىّ من الماء البارد إلى الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولاً.

واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور فى كتاب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ (٢).

وقال (ﷺ): **[طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله].**(٣)

فانظر كيف قلب الناس الأمر فى ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان.

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ء. ت) ج٣، ص: ١١١.

(٢) سورة النساء آية : ١١٤

(٣) قال ابن عبد البر حديث الحسن. وقال البغوى لا أدرى سمع من النبى صلى الله عليه وسلم أم لا. وقال ابن منده مجهول لا نعرف له صحبة. ورواه البزار من حديث أنس بسند ضعيف.

وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال: قدمت على رسول الله (ﷺ) في رهط من بني عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا وأنت أفضلنا علينا فضلاً وأنت أطولنا علينا طولاً وأنت الجفنة الغراء وأنت و أنت. فقال قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان. إشارة إلى أن اللسان إذا أطلق بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها.

وقال ابن مسعود: أنذركم فضول كلامكم حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته.

وقال مجاهد: إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليسكت ابنه فيقول أبتاع لك كذا وكذا فيكتب كذاباً.

وقال الحسن: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل.

وقال إبراهيم التيمي: إذا أراد المؤمن أن يتكلم فإن كان له تكلم وإلا أمسك والفاجر إنما لسانه رسلاً رسلاً.

وقال الحسن: من كثر كلامه كثر كذبه، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه، ومن ساء خلقه عذب نفسه.

وقال عمرو بن دينار تكلم رجل عند النبى (ﷺ) فأكثر فقال له (ﷺ): **[كم دون لسانك من حجاب فقال شفتاى وأسناني. قال: أفما كان لك في ذلك مايرد كلامك].**(١)

وفى رواية أنه قال ذلك فى رجل أثنى عليه فاستهتر فى الكلام ثم قال ما أوتى رجل شراً من فضل فى لسانه.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه إنه ليمنعنى من كثير الكلام خوف المباهاة.

---

(١) حديث عمرو بن دينار تكلم رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال كم دون لسانك من باب، الحديث ابن أبى الدنيا ورجاله ثقات.

وعن بعض الحكماء أنه قال: إذا كان الرجل فى مجلس فأعجبه الحديث فليسكت وإن كان ساكتاً فأعجبه السكوت فليتكلم.

وقال يزيد بن أبى حبيب من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع، فإن وجد ما يكفيه فإن فى الاستماع سلامة، وفى الكلام تزيين وزيادة ونقصان.

وقال ابن عمر إن أحق ما طهر الرجل لسانه.

ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة فقال لو كانت هذه خرساء كان خيراً لها.

وقال إبراهيم: يهلك الناس خلتان فضول المال وفضول الكلام. فهذه مذمة فضول الكلام.

ومن آفات اللسان: الخصومة: وهى أيضاً مذمومة وهى وراء الجدال والمراء. فالمراء طعن فى كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير وإظهار مزية الكياسة. والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها، والخصومة لجاج فى الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضا. والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سابق. فقد قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله (ﷺ): "**إن أبغض الرجال إلى الله سبحانه وتعالى الألد الخصم**".(١)

وقال أبو هريرة رضى الله عنه. قال رسول الله (ﷺ) **[من جادل فى خصومة بغير علم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع]**.(٢)

وقد قيل: إياك والخصومة فإنها تمحق الدين.

ويقال: ما خاصم ورع قط فى الدين.

وقال قتيبة مرّبى بشر بن عبد الله بن أبى بكرة فقال: ما يجلسك هاهنا. قلت: خصومة بينى وبين ابن عم لي. فقال: إن لأبيك عندى يداً وإنى أريد أن

---

(١) رواه الغزالى فى إحياء علوم الدين.

(٢) رواه الغزالى فى إحياء علوم الدين، ورواه ابن أبى الدنيا، والأصفهانى فى الترغيب والترهيب.

أجزيك بها وإني والله ما رأيت شيئاً أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة. قال: فقمت لأنصرف فقال لى خصمى مالك قلت لا أخاصمك. قال إنك لعرفت أن الحق لي. قلت: لا، ولكن أكرم نفسي عن هذا. قال: فإني لا أطلب منك شيئاً وهو لك.

فإن قلت فإذا كان للإنسان حق فلابد من الخصومة فى طلبه أو فى حفظه مهما ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه وكيف تذم خصومته، فاعلم أن هذا الذم يتناول الذى يخاصم بالباطل والذى يخاصم بغير علم مثل وكيل القاضى فإنه قبل أن يتعرف أن الحق فى أى جانب هو يتوكل فى الخصومة من أى جانب كان فيخاصم بغير علم، ويتناول الذى يطلب حقه ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد فى الخصومة على قصد التسلط أو على قصد الإيذاء.

ويتناول الذى يمزح بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها فى نصرة الحجة وإظهار الحق. ويتناول الذى يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال وفى الناس من يصرح به ويقول إنما قصدى عناده وكسر عرضه وإني وإن أخذت منه هذا المال ربما رميت فى بئر ولا أبالي. وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جداً. فأما المظلوم الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام. ولكن الأولى تركه ما وجد سبيلاً. فإن ضبط اللسان فى الخصومة على حد الاعتدال متعذر.

والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب. وإذا هاج الغضب نسى المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان فى عرضه. فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى أنه فى صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب.(١)

---

(١) الغزالى: إحياء علوم الدين، ج٣، ص: ١١٥-١١٦.

فالخصومة مبدأ أكل شر وكذا المراء والجدال فينبغى ألا يفتح بابه إلا لضرورة. وعند الضرورة ينبغى أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جداً. فمن اقتصر على الواجب فى خصومته سلم من الإثم ولا تذم خصومته إلا أنه إن كان مستغنياً عن الخصومة فيما خاصم فيه، لأن عنده ما يكفيه فيكون تاركاً للأولى ولا يكون آثماً، نعم أقل ما يفوته فى الخصومة والمراء والجدال وطيب الكلام وما ورد فيه من الثواب إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة، ولا خشونة فى الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذى حاصله إما تجهيل وإما تكذيب. فإن من جادل غيره أو ما راه أو خاصمه فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام.

وقال عمر رضى الله عنه البر شىء هين وجه طليق وكلام لين.

وقال بعض الحكماء: الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة فى الجوارح.(١)

وقال آخر: كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضى به جليسك، فلا تكن به عليه بخيلاً فإنه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين.

وهذا كله فى فضل الكلام الطيب وتضاده الخصومة والمراء والجدال واللجاج فإنه الكلام المستكره الموحش المؤذى للقلب المنغص للعيش المهيج للغضب الموغر للصدر.

ولقد قال قائل محذراً من فضول الكلام: أنذرتكم فضول الكلام، بحسب أحدكم ما بلغ حاجته.

الكلام فيما لا يعني:

واعلم أن من عرف قدر زمانه، وأنه رأس ماله، لم ينفعه إلا فى فائدة، وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعني، كان كمن قدر على أخذ جوهرة، فأخذ عوضها مدرة، وهذا خسران العمر.(٢)

---

(١) الغزالى: إحياء علوم الدين، ج٣، ص: ١١٦.

(٢) ابن قدامه، المقدسى: مختصر منهاج القاصدين، ص: ١٦٥-١٦٦.

وفى الصحيح أن النبى (ﷺ) قال: **[من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه]**.

وقيل للقمان الحكيم: ما بلغ من حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيته، ولا أتكلم بما لا يعنيني.

وقد روى أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعاً، فجعل يتعجب مما رأى، فأراد أن يسأله عن ذلك، فمنعته حكمته فأمسك، فلما فرغ داود عليه السلام، قام ولبس الدرع ثم قال: نعم الدرع للحرب. فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله.

كلام ذى اللسانين:

وهو الذى يتردد بين المتعادين، وينقل كلام كل واحد إلى الآخر، ويكلم كل واحد بكلام يوافقه، أو يعده أنه ينصره، أو يثنى على الواحد فى وجهه ويذمه عند الآخر.

وفى الحديث: "إن شر الناس ذو الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه".

واعلم: أن هذا فيمن لم يضطر إلى ذلك، فأما إذا اضطر إلى مداراة الأمراء جاز، قال أبو الدرداء رضى الله عنه: إنا لنبشّ فى وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم. ومتى قدر أن لا يظهر موافقتهم لم يجزله.

الخوض فى الباطل:

وهو الكلام فى المعاصي، كذكر مجالس الخمر، ومقامات الفساق. وأنواع الباطل كثيرة. وعن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى (ﷺ) أنه قال: **[إن العبد ليتكلم بالكلمة يزل بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب]**.

وقريب من ذلك الجدال والمراء وهو كثرة الملاحاة* للشخصية لبيان غلطه وإفهامه، والباعث على ذلك الترفع.

---

* يقال: لاحيته ملاحاة ولحاء، وفى المثل: من لاحاك فقد عاداك، وقولهم: لحاه الله، أى قبحه ولعنه.

فينبغى للإنسان أن ينكر المنكر من القول، ويبين الصواب، فإن قبل منه وإلا ترك المماراة، هذا إن كان الأمر متعلقاً بالدين، فأما إن كان فى أمور الدنيا، فلا وجه للمجادلة فيه، وعلاج هذه الآفة بكسر الكبر الباعث على إظهار الفضل، وأعظم من المراء الخصومة، فإنها أمر زائد على المراء.

وهذا ما أوضحنا فيما تقدم.

وعن النبى (ﷺ) أنه قال: **[أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم]**.

وهذه الخصومة نعنى بها الخصومة بالباطل أو بغير علم، فأما من له الحق فالأولى أن يصرف* عن الخصومة مهما أمكن، لأنها توغر الصدر، وتهيج الغضب، وتورث الحقد، وتخرج إلى تناول العرض.

التقعر فى الكلام:

وذلك يكون بالتشدق، وتكلف السجع.

وعن أبى ثعلبة قال: قال رسول الله (ﷺ): **[إن ابغضكم إلى وأبعدكم منى يوم القيامة مساوئكم أخلاقاً الثرثارون المتشدقون المتفيهقون]**.

ولا يدخل فى كراهة السجع والتصنع ألفاظ الخطيب، والتذكير من غير إفراط، ولا إغراب، لأنه المقصود من ذلك.

الفحش والسب والإيذاء:

الفحش والسب والإيذاء، ونحو ذلك، فإنه مذموم منهى عنه ومصدره الخبث واللؤم.

وفى الحديث: "إياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش".

وفى الحديث أيضاً: "الجنة حرام على كل فاحش".(1)

وفى حديث آخر: **[ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذىء]**.

---

*يصدف: يعرض.

(1) أخرجه ابن أبى الدنيا وأبو نعيم فى "الحلية" من حديث عبد الله بن عمرو وإسناده ضعيف.

ومما ينبغى أن يفهم أن الفحش والبذاء هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ما يكون ذلك فى ألفاظ الجماع وما يتعلق به، فإن أهل الخير يتحاشون تلك العبارات ويكفون عنها.

- أما عن إفشاء السر، وإخلاف الوعد، والكذب فى القول واليمين، وكل ذلك منهى عنه، إلا ما رخص فيه من الكذب لزوجته، فإن ذلك يباح.

وضابطه أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب، فهو فيه مباح إن كان ذلك المقصود واجباً، فهو واجب، فينبغى أن يحترز عن الكذب مهما أمكن.(١)

وتباح المعاريض، لقوله (ﷺ): **[إن فى المعاريض مندوحة عن الكذب]**.(٢)

ورواه البخارى في: "الأدب" عن عمران بن حصين بلفظ:

"إن فى معاريض الكلام مندوحة عن الكذب".

والمعاريض والمعارض بإثبات الياء وحذفها جمع معارض من التعريض بالقول، قال الجوهري: هو خلاف التصريح، وهو التورية بالشيء عن الشيء.

وهنا ينبغى أن نوضح أن المعاريض إنما تصلح عند الحاجة إليها، فأما مع غير الحاجة، فمكروهة لأنها تشبه الكذب.

فمن المعاريض ما روى عن عبد الله بن رواحة رضى الله عنه أنه أصاب جارية له فعلمت امرأته، فأخذت شفرة، ثم أتت فوافقته قد قام عنها، فقالت: أفعلتها؟ فقال: ما فعلت شيئاً، قالت: لتقرأ، القرآن أو لأبعجنك بها، فقال رضى الله عنه:

وفيـــــنا رســـــول الله يـــــتلو كـــــتابه

إذا انشــق معروف من الفجر ساطع

---

(١) ابن قدامة المقدسي: مختصر منها ج الفاصدين، ص: ١٧٦.

(٢) أخرجه البيهقى وابن عدى من حديث عمران بن حصين مرفوعاً.

يبيــت يجــافى جنــبه عـــن فراشـــه
إذا اســتثقلت بالكافريــن المضاجع
أرانــا الهــدى بعــد العمــى فقلوبــنا
بــه موقــنات أن مــا قــال واقــع

قالت: آمنت بالله وكذبت بصري. وكان النخعى إذا طلب قال للجارية: قولى لهم: اطلبوه فى المسجد.

اللسان فى الفتنة أشد من وقع السيف

روى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله (ﷺ): **[ستكون فتنة تستنطف العرب قتلاها فى النار].**

أى ترميهم. والاستنطاف: الرمي. "اللسان فيها أشد من السيف".[1]

وفى رواية أخرى: أن رسول الله (ﷺ) قال: **[ستكون فتنة عمياء صماء بكماء من أشرف لها استشرفت له. وإشراف اللسان فيها كوقع السيف].**

وفى رواية لابن ماجه: "إياكم والفتن فإن اللسان فيها مثل وقع السيف. أى من حيث الكذب عند أهل الجور ونقل أخبار الناس إليهم فربما نشأ من ذلك النهب والقتل والجلاء والمفاسد العظيمة أكثر من وقوع الفتنة نفسها".

وفى الصحيحين أن رسول الله (ﷺ) قال: "إن العبد يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى إليها بالاً ــ وفى رواية ما يتبين فيها ــ يهوى بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب.

وفى رواية: **يهوى بها فى النار سبعين خريفاً.**

وفى الحديث عن النبى (ﷺ): **[ويل للذى يتكلم الكلمة من الكذب ليضحك الناس ويل له ويل له].**

---

(١) الشعراني: مختصر تذكرة القرطبى (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د. ت) ص: ١١٩-١٢٠.

الكـــذب :

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.(١)

قال قتادة: أى لا تقل رأيت وأنت لم تره وسمعت وأنت لم تسمعه وعلمت ولم تعلمه.

وقال رسول الله (ﷺ): **[إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذباً].**(٢)

وقال (ﷺ): **[أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها إذا اؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر].**(٣)

شهادة الزور وكتم الشهادة :

قال الله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.(٤)

وفى الصحيحين عن أبى بكر رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): **[ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين. وكان متكئاً فجلس فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت].**(٥)

اليمين الغموس والنهى عن الحلف بغير الله تعالى :

عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى (ﷺ) قال: **[من حلف على مال امرئ مسلم بغير حق لقى الله وهو عليه غضبان. قال عبد الله: ثم قرأ علينا رسول الله**

(١) سورة الإسراء: الآية: ٣٦.
(٢) رواه الشيخان.
(٣) رواه البخارى ومسلم.
(٤) سورة الحج: الآية: ٣٠.
(٥) رواه البخارى ومسلم.

(ﷺ) **مصداقه فى كتاب الله عز وجل: إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلاً إلى آخر الآية].**(١)

وقال (ﷺ): **[من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة. قالوا وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله. فقال: وإن كان قضيباً من أراك].**(٢)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى (ﷺ) قال: "أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين واليمين الغموس".(٣)

وسميت غموس لأنها تغمس صاحبها فى الإثم أو فى النار.

وعن جبير بن مطعم رضى الله عنه أنه افتدى يمينه بعشرة آلاف درهم ثم قال ورب الكعبة لو حلفت حلفت صادقاً وإنما هو شيء افتديت به يميني.(٤)

وفى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله (ﷺ) أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير فى ركب يحلف بأبيه، فقال **ألا إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت.**

قال النووي: قال العلماء الحكمة فى النهى عن الحلف بغير الله تعالى. أن الحلف يقتضى تعظيم المحلوف به وحقيقة العظمة مختصة بالله تعالى ولا يضاهى به غيره.

وقد جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما لأن أحلف بالله تعالى مائة مرة خير من أن أحلف بغيره فأبر.

اللعن:

فى الصحيحين عن رسول الله (ﷺ) قال: **[لعن المؤمن كقتله].**

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) رواه ومسلم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد جيد.

وقال (ﷺ): [لا ينبغى لصديق أن يكون لعانا].(١)

وقال (ﷺ): [لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة].(٢)

وقال (ﷺ): [ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذئ].(٣)

وقال (ﷺ) [إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ثم تأخذ يميناً وشمالاً، فإذا لم تجد مساغاً رجعت إلى الذى لعن إن كان أهلاً لذلك وإلا رجعت إلى قائلها].(٤)

السب :

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (٥).

قال رسول الله (ﷺ): [سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر].(٦)

قال النووى فى تأويله أقوال: **أحدها**: أنه فى المستحل. **والثاني**: أن المراد كفر الإحسان والنعمة وأخوة الإسلام لا كفر الجحود. **والثالث**: أن يئول إلى الكفر بشؤمه. **والرابع**: أنه كفعل الكفار.

وقال (ﷺ): [من أكبر الكبائر شتم الرجل والديه. قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه].(٧)

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾.(٨)

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

(٤) رواه أبو داود.

(٥) سورة الأحزاب آية: ٥٨.

(٦) رواه البخارى ومسلم.

(٧) سورة: الحجرات: الآية: ١١.

(٨) سورة: الحجرات: الآية: ١١.

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى لا يعب بعضكم بعضاً ولا يطعن بعضكم على بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾.(١)

والتنابز التفاعل من النبز وهو اللقب وهو أن يدعى الإنسان بغير ما يدعى به.

قال عكرمه: هو قول الرجل للرجل يا فاسق يا منافق يا كافر.

وقال الحسن: كان اليهودى والنصرانى يسلم فيقال له بعد إسلامه يا يهودى يا نصرانى فنهوا عن ذلك.

قال عطاء: هو أن تقول لأخيك يا كلب يا خمار يا خنزير.

قال النخعي: إذا قال الرجل للرجل يا حمار يا خنزير قيل له يوم القيامة أرأيتنى خلقته حماراً أو رأيتنى خلقته خنزيراً.

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: التنابز بالألقاب أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب عنها فنهى أن يعير بما سلف من عمله.

قال تعالى: ﴿بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾.(٢)

أى بئس الاسم أن تقول له يا يهودى أو يا فاسق بعد ما آمن ومن لم يتب عن ذلك فأولئك هم الظالمون.

الغنـــاء:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ (٣).

وعن عبد الله بن مسعود وابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير رضى الله عنهم قالوا لهو الحديث هو الغناء. والآية نزلت فيه.

(١) سورة الحجرات: الآية: ١١.
(٢) سورة الحجرات: الآية: ١١.
(٣) سورة لقمان : الآية: ٦.

ومعنى قوله: يشترى لهو الحديث يعنى يستقبل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن".

وقال إبراهيم النخعي: الغناء ينبت النفاق فى القلب. وكان أصحابنا يأخذون بأفواه السكك يتخرقون الدفوف.

وقيل: الغناء رقية الزنا.

قال قتادة: حسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق.

واختلف العلماء فى الغناء: فأباحه جماعة من أهل الحجاز وهى رواية عن مالك وحرمه أبو حنيفة وأهل العراق ومذهب الشافعى كراهته، وهو المشهور من مذهب مالك.

إنشاد الشعر :

قال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾.(١)

أى أهل الغى وهم الشياطين. فقيل: رواتهم. وقيل: السفلة والبطلة.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾.(٢)

قال ابن عباس: فى كل لغو يخوضون ويهجون بالباطل.

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾.(٣)

أى يكذبون فى شعرهم يقولون فعلنا وفعلنا.

ذكر أشياء ورد النهى عنها :

قال رسول الله (ﷺ): **[لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لى إن شئت اللهم ارحمنى إن شئت، ولكن ليعزم المسألة وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شئ أعطاه].**

---

(١) سورة الشعراء: الآية: ٢٢٤.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٢٥.

(٣) سورة الشعراء: الآية: ٢٢٦.

وفى الحديث: إن الله يغضب إذا مدح الفاسق.

وقال الحسن: من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه.

الحفظة :

قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.(١)

وقوله تعالى: يتلقى. أى يتلقن ويأخذ الملكان الموكلان بالإنسان عمله ومنطقه يحفظانه ويكتبانه عن اليمين والشمال، أى أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله. فالذى عن اليمين يكتب الحسنات والذى عن الشمال يكتب السيئات.

وقوله تعالى: قعيد: اكتفى بأحدهما عن الآخر. هذا قول أهل البصرة ما يلفظ من قول ما يتكلم من كلام فيلفظه. أى يرميه من فيه.

وقوله: إلا لديه رقيب: حافظ: وقوله: عتيد: حاضر أينما كان.

قال الحسن: إن الملائكة عليهم السلام يجتنبون الإنسان على حالين: الأولى عند غائطه. والثانية: عند جماعه.

وقال مجاهد: يكتبان عليه حتى أنينه فى مرضه.

وقال عكرمة: لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر فيه.

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): **[كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل. و كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات. فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا. وإن عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح ويستغفر].**

وقال سفيان بن عيينة بلغنى عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: قال الله تعالى للملائكة إذا هم عبدى بحسنة فاكتبوها واحدة، فإن عملها فاكتبوها عشرا. وإذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها فإن عملها فاكتبوها واحدة. فقام رجل فقال: يا أبا

(١) سورة ق: الآيتان: ١٧، ١٨.

محمد الملكان لا يعلمان الغيب ولكن إذا هم العبد بحسنة فاحت منه رائحة المسك فيعلمان أنه قد هم بحسنة وإذا هم بالسيئة فاحت منه رائحة النتن فيعلمان أنه قد هم بالسيئة.(١)

قال أبو الليث السمر قندى رحمه الله: اختلف الناس فى الكفار هل عليهم حفظه أم لا؟ قال بعضهم: لا يكون عليهم حفظة لأن أمرهم ظاهر وعملهم واحد. لقوله تعالى ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ (٢).

ويرد السمرقندى بلسان الشريعة فيقول: لا نأخذ بهذا القول بل عليهم حفظة، والآية نزلت بذكر الحفظة فى شأن الكفرة ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾.(٣)

وقال فى آية أخرى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ .(٤)

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾.(٥)

فأخبر الحق سبحانه وتعالى أن الكفار يكون لهم كتاب ويكون عليهم حفظة.

فإن قيل: الذى يكون على يمينه أى شىء يكتب ولا حسنة له. قيل له: الذى يكون على شماله يكتب بإذن صاحبه ويكون شاهداً على ذلك وإن لم يكتب.

فالحفظة يدخلون كل بيت ولا يفارقون بنى آدم فى حال لأنهم مأمورون بإحصاء أعمالهم وكتابتها.

---

(١) عبيد الضرير، تقى الدين عبد الملك بن أبى المنى: نزهة الناظرين فى الأخبار والآثار المروية عن الأنبياء والصالحين (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ط٣، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م) ص: ٢٠٨-٢٠٩.

(٢) سورة الرحمن: الآية: ٤١.

(٣) سورة الإنفطار: الآيات: ٩-١١.

(٤) سورة الإنشقاق: الآية ٧.

(٥) سورة الإنشقاق: الآيات: ١٠-١٢.

الفصل الرابع

الصمت والكلام

عند الأنبياء والصحابة

- الصمت والكلام عند الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم
- الصمت والكلام عند الرسول (ﷺ)
- الصمت والكلام عند الصحابة رضوان الله عليهم

الفصل الرابع

الصمت والكلام
عند الأنبياء

الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، تولاهم الله بالنبوة، أحل لهم أموراً، وحرم عليهم أخرى قصرها عليهم دون غيرهم. والأنبياء هم خيرة الخلق وصفوة البشر، وهذا الإكرام لهم بالنبوة إنما هو بفضل الله وبمحض الفعل الإلهى والحكمة الربانية ولا يمكن لأحد من البشر مهما سما فى سلم الكمال أن ينال مرتبة النبوة عن طريق الرياضة النفسية، أو الجهد فى طاعته والعبادة، فإن النبوة لا تنال بالكسب ولا تحصل بالعزم والمثابرة علىفعل الخير والطاعة، إنما هى هبة من الله واصطفاء واختيار لهم.(١)

ونسوق الآن بعض الأمثلة على ما نحن بصدده:

يحدثنا ابن عطاء الله السكندرى عن الخليل إبراهيم عليه السلام: ألا ترى أن إبراهيم الخليل عليه السلام لما قال له ربه أسلم لرب العالمين فلما زج به فى المنجنيق استغاثت الملائكة قائلة: يا ربنا هذا خليلك قد نزل به ما أنت به أعلم. فقال الحق سبحانه وتعالى: اذهب إليه يا جبريل فإن استغاث بك فأغثه، وإلا فاتركنى وخليلي، فلما جاء جبريل عليه السلام فى أفق الهواء قال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى. قال: فاسأله. قال: حسبى من سؤالى علمه بحالي، فلم يستنصر بغير الله ولا جنحت همته بغير الله، بل استسلم لحكم الله مكتفياً بتدبير الله له عن تدبيره لنفسه، ورعاية الحق له عن رعايته لها، وبعلم الله سبحانه وتعالى عن سؤاله علماً منه أن الحق به لطيف فى جميع أحواله.(٢)

---

(١) محمد على الصابوني: النبوة والأنبياء (القاهرة: طبعة القاهرة الثانية، ١٤٠٠هـ، ص: ١٤٠.

(٢) ابن عطاء الله السكندري: التنوير فى إسقاط التدبير (القاهرة: مطبعة صبيح، ء.ت) ص: ٤٠.

انظر إلى إبراهيم عليه السلام لما قال له جبريل عليه السلام ألك حاجة؟

قال: أما إليك فلا ولم يقل لى حاجة لأن مقام الرسالة والخلة* يقتضى القيام بصريح العبودية، ومن لازم مقام العبودية إظهار الحاجة إلى الله والقيام بين يديه بوصف الفاقة إليه ورفع الهمة عما سواه فناسب ذلك أن يقول: أما إليك فلا. أى أنا محتاج إلى الله.

وأما عن قول جبريل عليه السلام عندما قال لإبراهيم عليه السلام ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا وأما إلى نبى الله فبلى.

قيل فى ذلك: أن جبريل عليه السلام علم أن الخليل لا يستغيث به وأن قلبه لا يشهد إلا الله عز وجل وحده. فقال له حينئذ سله. أى أن لم تستغث بى .إلتزاماً منك عدم التمسك بالوسائط فسل ربك فإنه أقرب إليك منى.

فقال إبراهيم عليه السلام مجيباً له حسبى من سؤالى علمه بحالي. أى أنى نظرت فرأيته أقرب إلى من سؤالي، ورأيت سؤالى من الوسائط، وأنا لا أريد أن أتمسك بشئ دونه ولأنى علمت أن الله سبحانه وتعالى عالم فلا يحتاج أن يذكر بسؤال. ولا يجوز عليه الاهمال فاكتفيت بعلم الله عن السؤال.

هذا هو مقام التوكل الذى يحمل فى معناه الإستسلام والتفويض إلى الله عند الخليل. فكمال التوكل بالحقيقة قد وقع لإبراهيم عليه السلام وذلك فى الوقت الذى قال فيه لجبريل عليه السلام أما إليك فلا. لأنه غاب عن نفسه بالله تعالى فلم ير مع الله تعالى أحداً غيره.(١)

---

* قال المرسي: سمى الخليل خليلاً لأنه خالل سره محبة الله تعالى. (ابن عطاء الله: لطائف المنن: القاهرة، ط ١٣٩٩هـ، ص: ٩٧. ومما رواه الخليل عن نفسه أنه قال: اتخذنى الله خليلاً بثلاثة أشياء: اخترت أمر الله تعالى على أمر غيره، وما اهتممت بما تكفل لي، وما تعذبت إلا مع ضيف. (ابن حجر: الاستعداد ليوم الميعاد، ص: ٢٠.)

(١) عماد الدين الأموي: حياة القلوب، هامش قوت القلوب لأبى طالب المكي، ج٢، ص: ١٤٩. وانظر: ابن كثير: قصص الأنبياء (القاهرة: دار الأنوار المحمدية، ء. ت) ص: ١٤٢. وكذلك: أحمد عبد الوهاب: النبوة والأنبياء فى اليهودية والمسيحية والإسلام (القاهرة: دار غريب: طبعة سنة ١٤٠٠هـ) ج١، ص: ٣٥.

ومن هنا يرى الباحث أن الخليل عليه السلام فى مقام الفناء فى التوكل والبقاء لله.

كما كان مراد الحق سبحانه وتعالى بإرسال جبريل عليه السلام إظهار مقام الخليل عند ملائكته وتبياناً لشرف قدره وعظم أمره. وكيف يمكن لإبراهيم عليه السلام أن يستغيث بشيء دونه وهو لا يرى إلا إياه ولا يشهد إلا سواه.

ففى قصة إبراهيم عليه السلام هذه بيان للمعتبرين وهداية للمستبصرين وهو أن من خرج عن تدبيره لنفسه كان الله سبحانه وتعالى هو المتولى بحسن التدبيرله. ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام لما لم يدبر لنفسه ولا اهتم بها بل ألقاها إلى الله تعالى وأسلمها إليه وتوكل فى كل شأنه عليه. فلما كان كذلك كان عاقبة استسلامه وجود السلامة والإكرام وبقاء الثناء عليه على مر الأيام.

وقد أمرنا الله تعالى أن لا نخرج عنها وأن نرعى تسميته بقوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ﴾.[1]

فحق على كل من كان إبراهيمياً أن يكون عن تدبيره لنفسه بريّاً وعن منازعته الله خلياً ومن اعتراضه عرياً.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾.[2]

وملته لازمة التفويض إلى الله تعالى والاستسلام فى واردات الأحكام، واعلم أن المراد هو ألا يكون لك مع الله مراد.

كما روى عن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهراً لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغثيان لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه.[3]

---

(١) سورة: الحج: الآية: ٧٨.

(٢) سورة: البقرة: الآية: ١٣٠.

(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٤، ص: ٣٣.

وقيل لموسى عليه السلام: بم عرفت أن الله تعالى هو الذى كلمك؟ فقال: لأن كلام المخلوق إنما يُسمع من جهة واحدة بحاسة واحدة وهى السمع وإنما كنت أسمع كلام الله تعالى من جميع الجهات بجوارحى كلها فعرفت أنه كلام الله تعالى.(١)

ومما يروى عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قام فى بنى إسرائيل خطيباً فقال: يا بنى إسرائيل، لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموها.

وقال مرة: فتظلموها، ولا تظلموا طالباً ولا تكافئوا ظالماً، فيبطل فضلكم عند ربكم. واسترسل قائلاً: يا بنى إسرائيل الأمور ثلاثة: أمر تبين رشده فاتبعوه، وأمر تبين غيه فاجتنبوه، وأمر اختلف فيه فردوه إلى الله تعالى.(٢)

كما قال عيسى بن مريم عليه السلام: "طوبى لمن خزن لسانه، ووسعه بيته، وبكى على خطيئته".(٣)

وقال رسول الله (ﷺ): **[من سره أن يُسلم فليلزم الصمت]**.(٤)

ويترتب على ذلك فى ضوء ما تقدم أن الصمت كان حالاً من أحوال الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين اتخذوه مسلكاً وطريقاً لعبادة الله وطاعته.

---

(١) التعلبي: قصص الأنبياء، ص: ١٦٠.

(٢) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج٣، ص: ٢١٩.

(٣) ابن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص: ٥٣.

(٤) رواه ابن أبى الدنيا فى الصمت، والبيهقى فى الشعب من حديث أنس.

الصمت والكلام
عند الرسول (ﷺ)

كان (ﷺ) أفصح خلق الله، وأعذبهم كلاماً، وأسرعهم أداءً، وأحلاهم منطقاً، حتى أنَّ كلامه ليأخذ بمجامع القلوب، يسبى الأرواح، ويشهد له بذلك أعداؤه. وكان إذا تكلم تكلمّ بكلام مفصل مبين يعده العاد، ليس بهذّ مسرع لا يحفظ، ولا منقطع تخلله السكتات بين أفراد الكلام، بل هديه فيه أكمل الهدى.(١)

قالت عائشة رضى الله عنها: ما كان رسول الله (ﷺ) يسرد سردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصلٍ يحفظه من جلس إليه.(٢)

وكان كثيراً ما يعيد الكلام ثلاثاً ليعقل عنه، وكان إذا سلم سلم ثلاثاً. وكان طويل السكوت لا يتكلم فى غير حاجة، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلام، فصل لا فضول ولا تقصير، وكان لا يتكلم فيما لا يعنيه، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، وإذا كره الشيء: عُرِفَ فى وجهه، ولم يكن فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا صخَّاباً. وكان جُلُّ ضحكة التبسم، بل كله التبسم، فكان نهاية ضحكه أن تبدو نواجذه.

وكان يضحك مما يُضحك منه، وهو مما يتعجب من مثله ويستغرب وقوعه ويُستندر.

وللضحك أسباب عديدة، هذا أحدها. والثاني: ضحك الفرح، وهو أن يرى ما يسره أو يبشره، والثالث: ضحك الغضب، وهذا كثيراً ما يعترى الغضبان إذا اشتد غضبه، وسببه تعجب الغضبان مما أورد عليه الغضب، وشعور نفسه بالقدرة على خصمه، وأنه فى قبضته، وقد يكون ضحكة لملكة نفسه عند الغضب، وإعراضه عمن أغضبه، وعدم اكتراثه به.

---

(١) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد فى هدى خير العباد، ح١، ص: ١٨٢.

(٢) أخـرجه الترمذى فى الجامع (٣٦٤٣) والشمائل (٢٢٣) وسنده الصحيح، وأخرجه البخارى ٦/٤٢٣، ومسلم (٢٤٩٣) مختصراً بلفظ "لم يكن صلى الله عليه وسلم يسرد الحديث كسردكم".

وأما بكاؤه (ﷺ)، فكان من جنس ضحكه، لم يكن يرفع صوته كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملا، ويسمع لصدره أزيز. وكان بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفاً على أمته وشفقة عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال، ومصاحبة للخوف والخشية. ولما مات ابنه إبراهيم، دمعت عيناه وبكى رحمة له، وقال: "تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإن بك يا إبراهيم لمحزنون".(١)

وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض، وبكى لما قرأ عليه مسعود سورة: "النساء" وانتهى فيها إلى قول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا﴾.(٢)

وبكى لما مات عثمان بن مظعون، وبكى لما كسفت الشمس، وصلى صلاة الكسوف، وجعل يبكى فى صلاته، وجعل ينفخ ويقول "رب ألم تعدنى ألا تعذبهم وأنا فيهم وهم يستغفرون، ونحن نستغفرك".(٣)

وبكى لما جلس على قبر إحدى بناته.(٤)

وكان يبكى أحياناً فى صلاة الليل. والبكاء أنواع:

أحدها: بكاء الرحمة، والرأفة، **والثاني:** بكاء الخوف والخشية.

والثالث: بكاء المحبة والشوق، **والرابع:** بكاء الفرح والسرور.

والخامس: بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله.

---

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز باب قول النبى (ﷺ) إنا بك لمحزنون ج٣، ص: ١٣٩-١٤٠، وأخرجه مسلم فى الفضائل: باب رحمة النبى (ﷺ) على الصبيان والعيال، وأخرجه أبو داود فى الجنائز، وأحمد فى مسنده ج٣، ص: ١٩٤ من حديث أنس.

(٢) سورة النساء: الآية: ٤١، وأخرجه البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال النبى (ﷺ) اقرأ على، قلت: يا رسول الله أأقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: نعم.

(٣) رواه أبو داود فى الصلاة، والترمذى فى الشمائل من حديث عبد الله بن عمرو، وسنده صحيح.

(٤) أخرجه البخارى فى الجنائز: باب من يدخل قبر المرأة عن أنس.

والسادس: بكاء الحزن. والفرق بينه وبين بكاء الخوف، أن بكاء الحزن يكون على ما مضى من حصول مكروه، أو فوات محبوب، وبكاء الخوف يكون لما يتوقع فى المستقبل من ذلك، والفرق بين بكاء الفرح والسرور، وبكاء الحزن، أن دمعة السرور باردة، والقلب فرحان، ودمعة الحزن حارة، والقلب حزين ولهذا يقال لما يفرح به: هو قرة عين، وأقر الله به عينه، ولما يحزن: هو سخينة العين، وأسخن الله عينه به.

والسابع: بكاء الخور والضعف. **والثامن** بكاء النفاق: وهو أن تدمع العين، والقلب قاس، فيظهر صاحبه الخشوع، وهو من أقسى الناس قلباً. **والتاسع:** البكاء المستعار والمستأجر عليه، كبكاء النائحة بالأجرة، فإنها كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: تبيع عبرتها، وتبكى شجون غيرها.

والعاشر: بكاء الموافقة، وهو أن يرى الرجل الناس يبكون لأمر ورد عليهم، فيبكى معهم، ولا يدرى لأى شيء يبكون، ولكن يراهم يبكون، فيبكي.

وما كان من ذلك دمعاً بلا صوت، فهو بكى، مقصور، وما كان معه صوت، فهو بكاء. ممدود على بناء الأصوات.

وقال الشاعر :

بكت عينى وحق لها بكاها ∴ وما يغنى البكاء ولا العويل

وما كان مستدعى منه متكلفاً، فهو التباكي، وهو نوعان: محمود، ومذموم، فالمحمود أن يستجلب لرقة القلب، ولخشية الله، لا للرياء والسمعة.

والمذموم: أن يُجتلب لأجل الخلق، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للنبى (ﷺ) وقد رآه يبكى هو وأبو بكر فى شأن أسارى بدر: أخبرنى ما يبكيك يا رسول الله؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد تباكيت، لبكائكما.[1]

ولم ينكر عليه (ﷺ).

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ضمن حديث مطول فى الجهاد: باب الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر.

وقد قال بعض السلف: ابكوا من خشية الله، فإن لم تبكوا فتباكوا.(١)

وأما فصاحة لسانه (ﷺ) فكان أفصح خلق الله وأعذبهم كلاماً حتى كأن كلامه يأخذ بالقلوب.

قالت عائشة رضى الله عنها ما كان (ﷺ) يَسرُدُ سردكم هذا كان يحدث حديثاً لو عدّه العاد لأحصاه. وكان يُعيد كلامه ثلاثاً لتفهم عنه. وكان يقول أنا أفصح العرب وأن أهل الجنة يتكلمون بلغة محمد (ﷺ).

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه يا رسول الله مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا. قال: "كانت لغة إسماعيل قد درست فجاءنى بها جبريل فحفظنيها".(٢)

وعن على رضى الله عنه قال: قلنا يا نبىّ الله نحن بنو أب واحد ونشأنا فى بلد واحد وإنك تكلم العرب بلسان ما نفهم أكثره: فقال: إن الله عز وجل أدبنى فأحسن تأديبى ونشأت فى بنى سعد بن بكر.

وقال أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك. قال: أدبنى ربى ونشأت فى بنى سعد.

وأما ما يروى أن النبى (ﷺ) قال: أنا أفصح من نطق الضاد فقال ابن كثير لا أصل له لكن معناه صحيح.(٣)

وقد جمع الناس من كلامه (ﷺ) المفرد الموجز البديع الذى لم يسبق إليه الدواوين. فلقد رقى من الفصاحة وجوامع الكلم درجة لا يقاس بها غيره وحاز مرتبة لا يقدر فيها قدره (ﷺ).

---

(١) هــذا الحديث جاء فى المرفوع، ولكنه ضعيف، فقد أخرج ابن ماجة من حديث سعد بن أبى وقاص مــرفوعاً: "إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه، فابكوا، فإن لم تبكوا، فتباكوا، وفى إسناده أبو رافع واسمه إسماعيل بن رافع وهو ضعيف.

(٢) رواه أبو نعيم.

(٣) النبهانــي، يوســف: الأنوار المحمدية من المواهب العربية (القاهرة: المطبعة الميمنية سنة ١٣٢٠ هــ)، ص: ١٢٨.

وقد كان من خصائصه (ﷺ) أن يكلم كل ذى لغة بليغة بلغته على اختلاف لغات العرب وتركيب ألفاظها وأساليب كلمها. وكان أحدهم لا يتجاوز لغته وإن سمع لغة غيره فالعجمية يسمعها العربى وما ذلك منه (ﷺ) إلا بقوة إلهية وموهبة ربانية لأنه بعث إلى الكافة طُراً وإلى الخليقة سوداً وحمراً ولا يوجد غالباً متكلم بغير لغته إلا قاصراً نازلاً عن صاحب الأصالة بتلك اللغة إلا نبينا (ﷺ) فإنه يتكلم فى لغة العرب أفصح منها بلغة نفسها. وجدير به ذلك فقد أوتى فى سائر القوى البشرية المحمودة زيادة على سائر الناس ما لا يضبطه قياس.(١)

وأما صوته الشريف (ﷺ) فعن أنس رضى الله عنه قال: ما بعث الله نبياً قط إلا بعثه حسن الوجه حسن الصوت حتى بعث الله نبيكم (ﷺ) فبعثه حسن الوجه حسن الصوت.

وعن على رضى الله عنه أنه (ﷺ) كان إذا تكلم روئ كالنور يخرج من بين ثناياه.

وقد كان صوته عليه الصلاة والسلام يبلغ حيث لا يبلغه صوت غيره.

فعن البراء قال: خطبنا رسول الله (ﷺ) حتى أسمع العواتق فى خدورهن.

قالت عائشة رضى الله عنها جلس رسول الله (ﷺ) يوم الجمعة على المنبر فقال للناس اجلسوا فسمعه عبد الله بن رواحة وهو فى بنى غنم فجلس فى مكانه.

وقال عبد الرحمن بن معاذ التيمى خطبنا رسول الله (ﷺ) بمنى ففتح الله أسماعنا حتى كنا لنسمع ما يقول ونحن فى منازلنا.

وعن أم هانئ رضى الله عنها قالت: كنا نسمع قراءة النبى (ﷺ) فى جوف الليل عند الكعبة وأنا على عريشي.

---

(١) النبهانى: الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية، ص: ١٣٢.

وأما ضحكه (ﷺ) فعن البخارى عن عائشة رضى الله عنها، ما رأيت رسول الله (ﷺ) مستجمعاً قط ضاحكاً حتى أرى منه لهواته * وإنما كان يبتسم.

وقال ابن أبى هالة جُلُ ضحكه (ﷺ) التبسم ويفتر عن مثل حب الغمام.

وقال الحافظ ابن حجر والذى يظهر من مجموع الأحاديث أنه (ﷺ) كان فى معظم أحواله لا يزيد على التبسم. وربما زاد على ذلك فضحك.

قال ابن بطال والذى ينبغى أن يُقتدى به من أفعاله ما واظب عليه من ذلك.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه: وإذا ضحك صلى الله عليه وسلم يتلألأ فى الجدر، أى يشرق نوره عليها إشراقاً كإشراق الشمس عليها.

وكان (ﷺ) إذا كان حديث عهد بجبريل لم يبتسم ضاحكاً حتى يرتفع عنه بل كان إذا خطب أو ذكر الساعة اشتد غضبه وعلا صوته كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم (١).

وكان بكاؤه عليه الصلاة والسلام من جنس ضحكه لم يكن بشهيق ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه بقهقهة ولكن تدمع عيناه حتى تهملان ويُسمع لصوته أزيز يبكى رحمة لميت وخوفاً على أمته وشفقة، ومن خشية الله عند سماع القرآن وأحياناً فى صلاة الليل، وقد حفظه الله تعالى من التثاؤب وما تثاءب نبى قط (٢).

وعن خالد بن الوليد رضى الله عنه قال: جاء إعرابى إلى رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول الله جئت أسألك عما يغنينى فى الدنيا والآخرة. قال له (ﷺ): سل عما بدالك.

قال: أريد أن أكون أعلم الناس.

قال (ﷺ): اتق الله تكن أعلم الناس.

(*) اللهوات: جمع لهاة وهى اللحمة التى بأعلى الحنجرة من أقصى الفم.

(١) رواه مسلم.

(٢) النبهانى، يوسف: الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية، ص ١٣٣.

قال: أريد أن أكون أغنى الناس.

قال (ﷺ): كن قانعاً تكن أغنى الناس.

قال: أحب أن أكون أعدل الناس.

قال (ﷺ): أحب للناس ما تحب لنفسك تكن أعدل الناس.

قال: أحب أن أكون خير الناس.

قال (ﷺ): كن نافعاً للناس تكن خير الناس.

قال: أحب أن أكون أخص الناس إلى الله.

قال (ﷺ): أكثر من ذكر الله تكن أخص الناس إلى الله.

قال: أحب أن يكمل إيماني.

قال (ﷺ): حسن خلقك يكمل إيمانك.

قال: أحب أن أكون من المحسنين.

قال (ﷺ): أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك تكن من المحسنين.

قال: أحب أن أكون من المطيعين.

قال (ﷺ): أد فرائض الله تكن من المطيعين.

قال: أحب أن ألقى الله نقياً من الذنوب.

قال (ﷺ): اغتسل من الجنابة متطهراً تلقى الله نقياً من الذنوب.

قال: أحب أن أُحشر يوم القيامة فى النور.

قال (ﷺ): لا تظلم نفسك ولا تظلم أحداً تُحشر يوم القيامة فى النور.

قال: أحب أن يرحمنى ربى يوم القيامة.

قال (ﷺ): ارحم نفسك وارحم عباده يرحمك ربك يوم القيامة.

قال: أحب أن تقل ذنوبي.

قال (ﷺ): أكثر من الاستغفار تقل ذنوبك.

قال: أحب أن أكون أكرم الناس.

قال (ﷺ): لا تشك من أمرك شيئاً إلى الخلق تكن أكرم الناس.

قال: أحب أن أكون أقوى الناس.

قال (ﷺ): توكل على الله تكن أقوى الناس.

قال: أحب أن يوسع الله عليّ فى الرزق.

قال (ﷺ): أدم على الطهارة يوسع الله عليك فى الرزق.

قال: أحب أن أكون من أحباب الله ورسوله.

قال (ﷺ): أحب ما أحبه الله ورسوله تكن من أحبابهما.

قال: أحب أن أكون آمناً من سخط الله يوم القيامة.

قال (ﷺ): لا تغضب على أحد من الخلق تكن آمناً من سخط الله يوم القيامة.

قال: أحب أن تُستجاب دعوتي.

قال (ﷺ): اجتنب كل الحرام تُستجب دعوتك.

قال: أحب أن لا يفضحنى ربى يوم القيامة.

قال (ﷺ): احفظ فرجك من الزنا كى لا يفضحك ربك يوم القيامة.

قال: أحب أن يسترنى ربى يوم القيامة.

قال (ﷺ): استر عيوب إخوانك يسترك الله يوم القيامة.

قال: ما الذى ينجى من الذنوب؟ أو قال: من الخطايا.

قال (ﷺ): الدموع والخضوع والأمراض.

قال: أى حسنة أفضل عند الله تعالى.

قال (ﷺ): حسن الخلق والتواضع والصبر على البلاء.

قال: أى سيئة أعظم عند الله تعالي.

قال (ﷺ): سوء الخلق والشح المطاع.

قال: ما الذى يسكن غضب الرب فى الدنيا والآخرة.

قال: (ﷺ): الصدقة الخفية وصلة الرحم.

قال: ما الذى يطفئ نار جهنم يوم القيامة.

قال (ﷺ): الصبر فى الدنيا على البلاء والمصائب.

قال الإمام المستغفرى ما رأيت حديثاً أجمع وأشمل لمحاسن الدين وأنفع من هذا الحديث الذى جمع فأوعى.(١)

كما قال (ﷺ): "إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلاَّ موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة. قال: أنا اللبنة وأنا خاتم النبيين".

وقال: "إن مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال يا قوم. إنى رأيت الجيش بعينى وأنا النذير العريان فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا على مهلتهم. وكذبت طائفة فأصبحوا مكانهم فصبحّهم الجيش واجتاحهم فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ومثل من عصانى وكذلك ما جئت به من الحق".

ذكر أن النبى (ﷺ)، **قال لرجل من أهل الصفة يكنى بأبى رزين: [يا أبا رزين إذا خلوت فحرك لسانك بذكر الله فإنك لا تزال فى صلاة ما ذكرت ربك... إن كنت فى علانية فصلاة العلانية، وإن كنت خالياً فصلاة الخلوة].**

وقد روى أن الرسول (ﷺ) وجه النصيحة إلى أبى رزين، وهذه النصيحة إذا عمل بها المرء يستطيع من خلالها أن يصيب خيرى الدنيا والآخرة. قال له رسول الله (ﷺ): **[عليك بمجالس الذكر، وإذا خلوت فحرك لسانك ما استطعت بذكر الله .. وأحب الله .. وأحب فى الله .. وأبغض فى الله].**

ولقد كان الرسول (ﷺ) أكثر الناس صمتاً فى غير تكبر، وأنصحهم للناس فى غير تطويل.

ولقد جاءت نصوص القرآن الكريم بالقواعد العامة التى تتناول كثيراً من الفروع والمسائل، وأوتى رسول الله (ﷺ) جوامع الكلم، فكان يتكلم بالكلمة

---

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل.

الجامعة التى تتضمن المعانى الكثيرة، وتشمل ما لا يُحصى من المسائل، فإذا فهمت معانى النصوص فى الكتاب والسنة، تبين أنها شاملة لعامة أفعال العباد.

فإن حجية السنة ثابتة بالكتاب كما أن السنة بيان للكتاب، وهذا وذاك يجعل نصوص السنة الصحيحة بمنزلة نصوص القرآن فى الاستدلال.

وتتعاضد النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والإجماعات القطعية على ذلك.

وحسبى وحسبك هذه الحقيقة النبوية الرائعة التى تفك العقول من إسارها.

وكان (ﷺ) يتكلم بجوامع الكلم، فصلٌ، لا فضول فيه ولا تقصير، دَمثاً ليس بالجافى ولا المهين، يعظم النعم وإن دقت، لا يذم منها شيئًا ولا يذم مذاقاً ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها، وإذا تعُوُطى الحق لا يعرفه أحد ولا يقوم لغضبه شىء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، وإذا أشار أشار بكفه كلها وإذا تعجب قلبها كلها، وإذا تحدث اتصل بها فيضرب ببطن راحته اليمنى إبهام اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح عض طرْفه، جُلُّ ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام، كان دخوله لنفسه مأذوناً فى ذلك، كان إذا أوى إلى منزله جزأ نفسه ثلاثة أجزاء جزءاً لله تعالى وجزءاً لأهله وجزءاً لنفسه، ثم يجزئ جزءَه بينه وبين الناس فيرد ذلك على العامة بالخاصة ولا يدخر عنهم شيئاً، فكان فى سيرته فى جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمه عليهم على قدر فضلهم فى الدين، فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج فيتشاغل بهم ولشغلهم فيما أصلحهم والأمة من مسألته عنهم، وإخبارهم بالذى ينبغى لهم، ويقول: ليبلغ الشاهد الغائب، وأبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغى حاجته، فإن من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه ثبت الله قدمه يوم القيامة، ولا يذكر عنده إلا ذاك ولا يقبل من أحد غيره، يدخلون رواداً ولا يفترقون إلا عن ذواق، ويخرجون أدلة.(١)

(١) ابن عربي: محاضرة الأبرار ومسامرة الأخبار، ص: ٦٣-٦٤.

وكان (ﷺ) يخزن لسانه إلا مما يعنيهم ويؤلفهم ولا يفرقهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي على أحد بَشَرَهُ ولا خُلقه، يتفقد أصحابه ويسأل الناس عمّا في الناس، ويحسِّن الحسن ويصوّبه، ويقبح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة، وكان (ﷺ) لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله تعالى، ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها، وإذا جلس إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك، يُعطي كل جلسائه بنصيبه لايحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه في حاجة صابره ما تفارق يده يده حتى يكون هو المنصرف، ومن سأله في حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس بينهم منه بسطه وخلقه، فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع عنده الأصوات ولا تُؤبن فيه الحرم، ولا تنثى فلتاته، معتدلين يتفاضلون فيه بالتقوى، متواضعين يوقرون الكبير ويرحمون الصغير، ويؤثرون ذوي الحاجة ويحفظون القريب.(١)

وكان (ﷺ) دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح، يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه ولا يجنب فيه قد ترك نفسه من ثلاث المراء والإكثار وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث كان لا يذم أحداً ولا يعيره ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرتجي ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده، فمتى تكلم أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أوليتهم، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون له، ويصبر للغريب على الجفوة في مسألته ومنطقه، حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم، ويقول إذا رأيتم صاحب حاجة فأرشدوه، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام.

(١) ابن عربي: محاضرة الأبرار ومسامرة الأخبار، ص: ٦٤-٦٥.

وكان سكوته (ﷺ) على أربع: الحلم والحذر والتقرير والتفكر، فأما تقريره ففى تسوية النظر والاستماع بين الناس، وأما تفكيره ففى ما يفنى ويبقى، وجمع له الحلم والصبر، فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه، وجمع له الحذر فى أربع: أخذه بالحسنى ليقتدى به، وتركه القبيح لينتهى عنه، واجتهاده الرأى فيما أصلح أمته، والقيام فيما جمع لهم من خيرى الدنيا والآخرة.

وخدمه أنس بن مالك عشر سنين إلى أن توفاه الله تعالى، فما قال لشيء فعله لم فعلته ولا لشيء لم يفعله لم لم تفعله، ما عاب طعاماً قط، كان إذا اشتهاه أكله وإن لم يشته تركه، كان يقول فى السراء الحمد لله المنعم المتفضل، وكان يقول فى الضراء الحمد لله على كل حال، كان يذكر الله على كلِّ أحيانه، كان يسلم على العبيد والإماء والصبيان، كان يمازح الصغير ويلاعب الوليد ويمازح العجوز ولا يقول إلا حقاً، كان رءوفاً رحيماً ليناً هيناً شفيقاً رفيقاً لطيفاً سئوساً، كان (ﷺ) أجلّ وأعظم من أن يحيط ناعت بوصفه ولكن ما وصفه مَنْ وصَفَه إلا بقدر ما ظهر له منه صلى الله عليه وسلم.(١)

إن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً (ﷺ) بجوامع الكلم، وخصه ببدائع الحكم، كما فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى (ﷺ) قال: [بُعثت بجوامع الكلم].

وقال الزهرى رحمه الله: جوامع الكلم فيما بلغنا: أن الله يجمع له الأمور الكثيرة التى كانت تكتب فى الكتب قبله فى الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك.(٢)

وخرج الإمام أحمد رحمه الله من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى عنه قال: خرج علينا رسول الله (ﷺ) يوماً كالمودع فقال: أنا النبى الأمى ــ قال ذلك ثلاث مرات ــ ولا نبى بعدي، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه. وذكر الحديث.(٣)

---

(١) ابن عربي: محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ص: ٦٦-٦٧.

(٢) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور (القاهرة: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٩م) ج١، ص: ٤.

(٣) المصدر السابق، ص: ٤.

وخرج أبو يعلى الموصلى من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى (ﷺ) قال: **[إنى أوتيت جوامع الكلم وخواتمه واختصر لى الكلام اختصاراً].**

وخرج الدار قطنى رحمه الله من حديث ابن عباس رضى الله عنهما، عن النبى (ﷺ) قال: **[أعطيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصاراً].**

وروينا من حديث عبد الرحمن بن اسحاق القرشى عن أبى بُرْدة عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): **[أعطيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه. فقلنا يا رسول الله علمنا مما علمك الله عز وجل. قال: [فعلمنا التشهد].**

وفى صحيح مسلم عن سعيد بن أبى بردة بن أبى موسى عن أبيه عن جده أن النبى (ﷺ) سئل عن البتع والمزر قال وكان رسول الله (ﷺ) قد أعطى جوامع الكلم بخواتمه فقال: **[أنهى عن كل مسكر امسكر عن الصلاة].**

وروى هشام بن عمار فى كتاب: "المبعث" بإسناده عن أبى سلام الحبشى قال: حدثت أن النبى (ﷺ) كان يقول: **[فضلت على من قبلى بست ولا فخر فذكر منها جوامع الكلم فقال: [وأعطيت جوامع الكلم. وكان أهل الكتاب يجعلونها جزءاً بالليل إلى الصباح فجعلها لى ربى فى آية واحدة ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.**(١)

فجوامع الكلم التى خص بها النبى (ﷺ) نوعان: أحدهما ما هو فى القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾.(٢)

قال الحسن: لم تترك هذه الآية خيراً إلا أمرت به ولا شراً إلا نهت عنه.

(١) سورة الحديد: الآية: ١.
(٢) سورة النحل: الآية: ٩٠.

والثاني: ما هو فى كلامه (ﷺ) وهو منتشر موجود فى السنن المأثورة عنه (ﷺ).[1]

وقد جمع العلماء رضى الله عنهم جموعاً من كلماته (ﷺ) الجامعة: فصنف الحافظ أبو بكر السنى كتاباً سماه: "الإيجاز وجوامع الكلم من السنن المأثورة".

وجمع القاضى أبو عبد الله القضاعى من جوامع الكلم الوجيزة كتاباً سماه: "الشهاب فى الحكم والآداب".[2]

وصنف على منواله قوم آخرون فزادوا على ما ذكره زيادة كثيرة.

وأشار الخطابى فى أول كتابه غريب الحديث إلى يسير من الأحاديث الجامعة.

وأملى الإمام الحافظ أبو عمرو بن الصلاح مجلساً سماه الأحاديث الكلية. جمع فيه الأحاديث الجوامع التى يقال إن مدار الدين عليها، وما كان فى معناها من الكلمات الجامعة الوجيزة فاشتمل مجلسه هذا على ستة وعشرين حديثاً.

ثم إنَّ الفقيه الإمام الزاهد القدوة أبا زكريا يحيى النووى رحمه الله. أخذ هذه الأحاديث التى أملاها ابن الصلاح وزاد عليها تمام اثنين وأربعين حديثاً وسمى كتابه بالأربعين. واشتهرت هذه الأربعون التى جمعها وكثر حفظها ونفع الله بها ببركة نية جامعها وحسن قصده رحمه الله تعالى.

وللحافظ أبى الحسن طاهر بن مفوز المعافرى الأندلسي: عمدة الدين عندنا كلمات أربع من كلام خير البرية: اتق الشبهات، وازهد ودع ما ليس يعنيك واعملن بنية.

ولقد كان رسول الله (ﷺ) فى كلامه وجوابه بحسب السائلين، وحسب الجالسين، فليس كلامه لأبى بكر رضى الله عنه ككلامه لأجلاف العرب. فلا

(١) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم ح١، ص: ٦.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

يصح طرد كل قول في حق كل أفراد الأمة. وهذا أمر معقول لقوله صلى الله عليه وسلم: "أُمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم".

ومن هذا القبيل قوله للجارية أين الله؟ فقالت: فى السماء. فقال مؤمنة ورب الكعبة، ولو سأل أكابر الصحابة لم يسألهم بالأينية لعلمهم باستحالتها على الله تعالى.(١)

واعلم أن كلامه (ﷺ) بالألفاظ التى فيها حصر لجناب الحق مأمور به لأنه هو المبين.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (٢).

فلو سأل أحد غيره بالأينية لشهد الدليل العقلى بجهل القائل فإنه تعالى لا أينية له فلما قالها الرسول (ﷺ) وبانت حكمته وعلمه علمنا أن ليس فى قوة هذا المخاطب أن يعقل موجده إلا بما تصوره فى نفسه فلو خاطبه بغير ما تواطأ عليه وتصوره فى نفسه لارتفعت الفائدة المطلوبة ولم يحصل القبول. فمن حكمته أن سأل بمثل هذا السؤال وبهذه العبارة. ولذلك لما أشارت إلى السماء قال فيها إنها مؤمنة أى مصدقة بوجود الله تعالى ولم يقل عالمة.(٣)

وكذلك لما دخل الرسول (ﷺ) على أبى بكر رضى الله عنه فرآه يصلى وهو يقرأ بخفض صوت. فقال: لم لا ترفع صوتك. فقال: يا رسول الله قد أسمعت ربي. فقال له ارفع قليلاً. ودخل على عمر رضى الله عنه فرآه يجهر. فقال: لم لا تخفض صوتك. فقال: يا رسول الله أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان. فقال: أخفض قليلاً فعلمهما الأدب بإخراجهما عن مرادهما لمراده (ﷺ) فمثل هذه الأمور كثيرة لمن تصفحها.

ولا شك أن كان عنده قدرة على الاستدلال لا يسوغ أن يترك حديثاً للنبى (ﷺ) لقول إمام من الأئمة مهما تكن منزلته لأنه يترك من قوله حجة

---

(١) الشعراني: الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية، ص: ١٠١.

(٢) سورة إبراهيم: الآية:٤ .

(٣) المصدر السابق، ص: ١٠٢.

ملزمة إلى من ليس قوله حجة بحال من الأحوال، وأقوال الأئمة مهما تكن قابلة الرد، وأما أقوال الرسول (ﷺ) فغير قابلة للرد، ولكنها قابلة للمعارضة بمثلها. وإذا لم تثبت المعارضة فالأصل قبولها، ومن ترك حديثاً لقول إمام فقد جعل الأصل فرعاً، والفرع أصلاً، لأن قول الإمام إنما يقبل ويعتبر حجة لمقلدة، لأنه في نظره دارس لكتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)، فإذا قبل قوله دون قول الرسول، فقد جعلناه أصلاً وقول الرسول فرعاً وأن ذلك يكون مضاهاة للذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، إذ أقاموا قولهم في الدين مقام الاعتبار، ولم يحاولوا أن يعرفوا الدين من أصوله.(١)

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله (ﷺ): **[من صمت نجا]**.(٢)

وعن أنس رضي الله عنه قال: لقي رسول الله (ﷺ) أباذر فقال: **[يا أباذر ألا أدلك على خصلتين؟] قال: بلى يا رسول الله! قال: [عليك بحسن الخلق وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما تجمل الخلائق بمثلهما]**.(٣)

(١) محمد أبو زهرة: ابن تيمية، ص: ٣٦٣-٣٦٤.

(٢) هذا الحديث إسناده حسن، رواه ابن مبارك في الزهد بنفس الإسناد ورواه الترمذي، وأحمد، والبيقهي في شعب الإيمان.

(٣) هذا الحديث إسناده ضعيف.

الصمت والكلام
عند الصحابة (رضوان الله عليهم)

ينبغى أن ننبه فى البداية أن الصمت كان حالاً من أحوال السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم.

وفى هذا الصدد يقول بعض السلف تعلمت الصمت بحصاة جعلتها فى فمى ثلاثين سنة كنت إذا هممت بالكلام تلجلج بها لسانى فيسكت.[1]

وهكذا كان يفعل الصديق رضى الله عنه بأن يضع حجراً على فمه ليمنع من الكلام.[2]

وكذلك كان حال الفاروق رضى الله عنه الصمت إلا عن قول الحق.

كما كان حال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه.

ومما روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: سرك أسيرك فإن تكلمت به صرت أسيره".[3]

ومما يُؤخذ من كلام الإمام على رضى الله عنه أنه بين لنا حقيقة الصمت التى هى أسرار الرجال والسر حسبما يرى الإمام على ـ يكون أسيراً لصاحبه عندما يكون مقبوراً، فإن باح به أصبح الإنسان أسيرا لسره.

وقال أيضاً: اللسان معيار أطاشه الجهل وأرجحه العقل.[4]

كما قال: الخير كله مجموع فى أربعة: الصمت، والنطق، والنظر، والحركة. فكل نطق لا يكون فى ذكر الله فهو لغو، وكل صمت لا يكون فى ذكر الله فهو سهو، وكل نظر لا يكون فى عبرة فهو غفلة، وكل حركة لا تكون

---

(١) أبو طالب المكي: قوت القلوب، ج١، ص: ٩٥.

(٢) ملا عبد الرحمن الجامى: الدرة الفاخرة، ص: ٢٤.

(٣) أبو الحسن البصري: أدب الدنيا والدين، ص: ٣١٠.

(٤) المصدر السابق ص: ٢٧٥.

فى تعبد فهى فترة. فرحم الله عبداً جعل نطقه ذكراً، وصمته فكرا، ونظره عبرة، وحركته تعبداً ويسلم الناس من لسانه ويده.(١)

وقد جاء فى الأثر: كانت المسألة من العلم يسأل عنها الرجل من الصحابة فيردها إلى آخر ويردها الآخر إلى آخر حتى ترجع إلى الذى سأل عنها أولاً.(٢)

ألا يدل هذا القول السابق على شدة تورع السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم فيما كانوا ينطقون خوفاً من أن تزل ألسنتهم فالتزموا الصمت واتخذوه طريقاً لهم محافظة على لسانهم من الزلل والوقوع فى الخطأ.

ومن الأقوال التى سجلها لنا السلف الصالح قول ابن مسعود فى اللسان عندما خاطبه: "يا لسان قل خيراً تغنم، واسكت عن شر تسلم، من قبل أن تندم".(٣)

وكان يقول: "ما من شيء على وجه الأرض أحوج إلى طول سجن من اللسان".

ومما يروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه كان يقول: قلت للنبى (ﷺ): يا رسول الله ما أكثر ما تخاف علىّ. فقال هذا وأشار إلى لسانه.(٤)

وينبغى أن نجزم أن الصمت الذى يدعو إليه الرسول (ﷺ) ويأمر به هذا الصحابى الجليل كان حالاً من أحوالهم النفسية التزموا به التزاماً شرعياً فكان صحابة رسول الله (ﷺ) خير منفذين لأوامره.

ويحدثنا ابن محيريز قائلاً: صحبت فضالة بن عبيد صاحب رسول الله (ﷺ) فقلت له أوصنى رحمك الله، فقال: احفظ عنى ثلاث خصال ينفعك الله بهن.

---

(١) محمد جلال شرف: دراسات فى التصوف الإسلامى (الإسكندرية: دار الفكر الجامعي، ء. ت) ص: ٨١.

(٢) أبو طالب المكي: علم القلوب، ص: ٧٧.

(٣) الحافظ بن أبى الدنيا: الحلم (القاهرة: مكتبة القرآن، ء. ت) ص: ٦٥

(٤) الشعرانى: تنبيه المغترين (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ء. ت) ص: ٨٤.

إن استطعت أن تعرف ولا تعرف فافعل، وإن استطعت أن تسمع ولا تتكلم فافعل، وإن استطعت أن تجلس ولا يجلس إليك فافعل.(١)

. هذه أقوال عن الصمت ساقها السلف الصالح تبين قيمة الصمت وأهميته في سلوكهم الشرعي لنيل رضوان الله تعالى.

ومما يروى عن الأحنف بن قيس رحمه الله أنه كان جالساً فلم يتكلم، فقال له معاوية مالك لا تتكلم يا أحنف. فقال: إنى أخشى الله تعالى إن كذبت وأخشاك إن صدقت فرأيت السكوت أولى.(٢)

والملاحظ على هذا القول السابق لهذا الصحابي أنه وقف موقف تعقل استخدم منهج القرآن مع الحق سبحانه وتعالى ومع الخلق عندما تزيّى بزى الصمت والصدق والأدب.

ولقد كان معاذ بن جبل رضى الله عنه وأرضاه فى معية الله ومن أقواله فى هذا الصدد: كلم الناس قليلاً وكلم ربك كثيراً لعل قلبك يرى الله تعالى.(٣)

ومما يروى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أنه كان يبحث عن النجاة من دار الدنيا والتعلق بالآخرة فكان يسأل رسول الله (ﷺ) فيم النجاة؟ فقال له رسول الله (ﷺ): **[أملك عليك لسانك وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك]**.(٤)

ومما رواه بعض السلف أنه قال: جعلت على نفسى بكل كلمة أتكلم بها فيما لا يعنينى صلاة ركعتين فسهل ذلك علىّ. فجعلت على نفسى بكل كلمة أتكلم بها صوم يوم فسهل ذلك علىّ، فلم أنته، فجعلت على نفسى بكل كلمة أتكلم بها أن أتصدق بدرهم فصعب ذلك علىّ فانتهيت.

انظر إلى هذا السلفى الذى أقام نفسه فى مقام المجاهدة، فجاهد نفسه من الصلاة إلى الصيام إلى الصدقة حتى يدرب نفسه على الصمت.

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء، ج٥، ص: ١٤١.

(٢) الشعراني: تنبيه المغترين، ص: ١٤.

(٣) القشيري: الرسالة، ص: ٩٨.

(٤) أبو طالب المكى: قوت القلوب، ج١، ص: ٩٥.

ولقد قال رسول الله (ﷺ) لقوم قدموا من الجهاد: **[مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. قالوا: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: [جهاد النفس].**(١)

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢)

وروى أن رجلاً قال لأبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أوصنى. قال: عليك بتقوى الله عز وجل فإنها رأس كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بالقرآن فإنه نور لك فى أهل الأرض وذكر لك فى أهل السماء، وعليك بالصمت إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان.

من وصايا هذا الصحابى الجليل أنه إذا تسلح الإنسان بتقوى الله عز وجل، وجاهد نفسه فى طاعة الله، وداوم على ذكر الله بترديد كلام الله، وتوج كل ذلك بالصمت فإنه بذلك يستطيع أن يسد باب الشيطان ولا يكون له مسلك فيتغلب عليه.

ويدلى أبو الدرداء رضى الله عنه بحكمة رائعة يقول فيها: أنصف لسانك من فيك. فإنما جُعل لك أذنان وفم واحد لتسمع أكثر مما تقول.(٣)

ومن شدة حرص أنس بن مالك رضى الله عنه أنه كان إذا سئل عن شيء ما يقول: سلوا مولانا الحسن فإنه حفظ ونسينا.(٤)

ويحدثنا عبد الله بن عمرو قائلاً: ذَرة ما لست منه فى شيء، ولا تنطق فيما لا يعنيك واخزن لسانك كما تخزن دراهمك.(٥)

ألم يكن هذا حرصاً شديداً فى الدعوة إلى الصمت والتمسك به عند هذا الصحابى الجليل يتمثل فى قوله: اخزن لسانك ويربطه بالمال من حيث

---

(١) رواه البيهقى فى الزهد.

(٢) سورة: العنكبوت: الآية: ٦٩.

(٣) أبو طالب المكي: علم القلوب، ص: ٧٨.

(٤) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٥) ابن حبان البستى: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص: ٥٥.

المساواة. فإذا كان الإنسان يخزن ماله وهذا مصيره إلى الضياع والإنفاق فالأجدر به أن يخزن لسانه. ولا شك أن هذه دعوة صادقة يدعونا معه بأن نخزن ألسنتنا مخافة الوقوع فى الزلل والخطأ.

من كل ما قدمناه عن الصمت عند السلف الصالح من الصحابة أنه كان منهجاً شرعيّاً لهم فى كل علم وعمل وسلوك. فكان حالاً ملازماً لهم عند كل طرفة حين تعلموه من الرسول (ﷺ) وأخذوا به أخذاً عمليّاً، كما كانت دعوتهم الصادقة فى الحث عليه والأخذ به لينالوا رضوان الله والفوز بالجنة.

قدم لنا هؤلاء السلف الصالح نماذج رائعة من الصمت بل ودروساً عملية لكى تكون لنا نبراساً فى حياتنا. وكان جهادهم النفسى فى تعلم الصمت وتطبيقه خالصاً لله تعالى.

الفصل الخامس

أقوال العلماء والحكماء
فى
الصمت والكلام

الفصل الخامس

أقوال العلماء والحكماء فى الصمت* والكلام

قال بعض العلماء: الصمت نور العقل، والنطق يقظته، وكل يقظة تحتاج إلى نوم. وما صمت عاقل قط إلا اجتمع عقله وحضر لبه.(١)

وبعبارة أخرى: الصمت منام العقل، والنطق يقظته، ولا يتم حال إلا بحال، يعنى لابد من الصمت والكلام.

ويقال: إذا قل الكلام كثر الصواب. معنى ذلك لابد للمرء من أن يكون حذراً عند الكلام ولا يتكلم إلا لحاجة أو لضرورة.

كما يقال: كل كلمة من هزل أو مزح أو لغو يوقف عليها العبد خمس مواقف بتوبيخ وتكدير.

أولها: يقال له لما قلت كذا أكانت فيما يعنيك.

ومعنى هذا أنه من الواجب على المرء ألا يتكلم إلا فيما يعنيه، لأن الكلام فيما لا يعنيه يخرجه عن دائرة الشرع ويعرضه للحرج. ولقد أمرتنا النصوص القرآنية والأحاديث النبوية بذلك.

والثانية: هل نفعتك إذا قلتها. ومن الواجب على الإنسان قبل النطق بالكلمة أن يتنبه لها من حيث النطق بها أو السكوت عنها. فإن كان النطق بها يعود بالفائدة فلا بأس من النطق بها أما إذا كان الأمر بخلاف ذلك فالأولى به الصمت.

---

*راجع بحثنا المنشور بمجلة كلية الآداب جامعة الزقازيق فرع بنها العدد الثالث عام ١٩٩٤ م سيكولوجية الصمت. دراسه إسلامية نفسية.

(١) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، ج٢، ص: ٨٢.

والثالثة: هل ضرتك لو لم تقلها. وهنا يجب على الإنسان أن يكون فى موطن التفكر دائماً بالنسبة للكلمة المنطوقة لأنها إن كانت لم تحقق له فائدة فإن حبسها لا يضره، بل بالعكس تجعل صاحبها فى مأمن منها. أى من الكلمة المنطوقة.

فالحذر كل الحذر لمن أراد أن يتكلم لابد له من أن يتسلح بالمنهج القرآنى حكماً ودليلاً له فى كل ما يذهب إليه.

والرابعة: ألا سكت فربحت السلامة من عاقبتها. وهنا أمر بالصمت حتى ينجو صاحب الكلمة من عاقبتها.

والخامسة: هل جعلت مكانها قول سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا إله إلا الله فغنمت ثوابها.

والملاحظ على هذا القول السابق أننا لا نتكلم إلا بالذكر أما اللغو واللهو فنحن مأمورين بالإبتعاد عنه وكذلك عن الكلام فيه.

تلك هى المواقف التى يقف عليها العبد إذا تكلم بالكلمة البعيدة عن الحقيقة والقريبة من الهزل أو المزح أو اللغو.

ويقال: ما من كلمة إلا وينشر لها ثلاثة دواوين. الديوان الأول: لم؟ والثاني: كيف؟ والثالث: لماذا؟

وفى الخبر عن رسول الله (ﷺ): كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثا، أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو ذكر الله سبحانه وتعالى.

هكذا يتضح لنا أن الكلام لبنى آدم انحصر فى الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وذكر الله، وكل كلام انصرف عن هذه الأمور الثلاثة يكون على الإنسان لا له ويحاسب عليه وفى الخبر أيضاً: إذا رأيتم الرجل قد أوتى صمتاً وزهداً فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة.

وقد جاء فى الخبر أيضاً: إن أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه وأكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم خوضاً فيما لا يعنيه.

من هنا قال لقمان لابنه وهو يعظه لأن تعيش أخرس يسيل لعابك على صدرك خيراً لك من أن تنطق فى نادى القوم بما لا يعنيك.

هذه موعظة صادقة سجلها لقمان يحذر فيها ولده من النطق بما لا يعنيه حتى لا يعرض نفسه لغضب الله وسخطه والحرج أمام الناس عندما يقدم للمسألة.

وفى موعظة للنبى (ﷺ) جاء فيها: **[طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل فى قوله].**

وهذه الموعظة توضح لنا أنه من الواجب على الإنسان ألا ينشغل إلا بأمر نفسه والنظر إلى عيوبه ومعالجتها فهذا أحق به وأولى من النظر إلى عيوب الناس.

ومما قاله بعض الحكماء، لابنه واعظاً له: يا بنى كن جواداً بالمال فى مواضع الحق، ضنيناً بالأسرار عن جميع الخلق.(١)

ولا شك أن هذه الحكمة التى لقنها هذا الحكيم لولده حكمة بالغة صادقة لها أهميتها لأنه يطالبه فيها بأن يكون قميناً لأسراره وأن يضن بها عن جميع الخلق لأن ذلك سلامة له من الخلق أنفسهم لو باح لهم بالسر كان حجة عليه.

وقال بعض الحكماء: فى الصمت سبعة آلاف خير، وقد اجتمع ذلك كله فى سبع كلمات، فى كل كلمة منها ألف.

أولها: الصمت عبادة من غير عناء.

هذا القول عن الصمت إنه عبادة من غير عناء. ومعناه أن الصامت سلمت نفسه من الكلام، وهو فى هذه الحالة يكون عابداً لله دون تكلف وعناء.

والثانية: زينة من غير حلى. فإذا كان الكلام فى غير موضعه يعرض صاحبه للوم من الناس ويكون فى موضع الحرج والألم والندم. فالأجدر به أن يكون صامتاً لا يخرج ما يشينه. من هنا كان الصمت زينة من غير حلى.

---

(١) أبو الحسن البصري: أدب الدنيا والدين (القاهرة: المطبعة الأمرية، ١٣٢٩هـ، ص: ٣١٠.

والثالثة: هيبة من غير سلطان. ما أجمل الصمت لصاحبه عندما يجعله يرتدى لباس الهيبة والوقار من الناس دون فرض سلطان منه عليهم.

والرابعة: حصن من غير حائط. فالصمت حصن لصاحبه يدفع عنه سهام الأعداء ولا يستطيع أحد أن يقدم له إساءة ما دام صامتاً. من هنا كان الصمت نجاة لصاحبه وحصناً له من غير حائط حسبما يرى أحد الحكماء.

والخامسة: الاستغناء عن الاعتذار إلى أحد. هذه غاية من الغايات الرفيعة يبلغها المرء عندما يتسلح بسلاح الصمت فلا يجلب لنفسه الكلام ويستغنى عن الاعتذار لبنى الإنسان لأن فى الاعتذار مهانة يتعرض لها الإنسان عند الدخول فيما لا يعنيه.

ولا شك أن هناك فرقاً بين المهانة والمهابة. فالمهانة تأتى من الاعتذار، والمهابة من الصمت عن الكلام فى موطن الاعتذار.

والسادسة: راحة الكرام الكاتبين: إذا كان الإنسان حاله الصمت فإنه بلا شك تكون سقطاته قليلة. وبالتالى راحة للكرام الكاتبين.

والسابعة: ستر لعيوبه.(١) هذه الحكمة ما أجملها وأروعها، حكمة بالغة توضح لنا حال الصمت فى كونه ستر للعيوب لمن كان له عيوب لأن صمته ستر لعيبه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): **[من صمت نجا].**(٢)

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى لكل شئ بابين، وجعل للسان أربعة أبواب: الشفتين مصراعين، والأسنان مصراعين.(٣)

وحكى أن بعض الحكماء رأى رجلاً يكثر الكلام ويقل السكوت فقال له: إنَّ الله تعالى إنما خلق لك أذنين ولساناً واحداً ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به.

---

(١) السمرقندي: تنبيه الغافلين (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، مطبعة الحلبى بدون تاريخ، ص: ٧٩).

(٢) رواه مسلم فى صحيحه. وكذلك رواه الترمذى عن قتيبة. وأخرجه أحمد والدرامى أيضاً.

(٣) ابن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء(القاهرة: مكتبة السنة المحمدية، ء. ت) ص: ٤٥.

ومن هنا قال بعض البلغاء: احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك، أو يتلف نفسك، فلا شيء أولى بطول حبس من لسان يقتصر عن الصواب ويسرع إلى الجواب.

وقال أيضاً: كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقتصر منه على القليل وإياك وما يسخط سلطانك ويوحش إخوانك، فمن أسخط سلطانه تعرض للمنية، ومن أوحش إخوانه تبرأ من الحرية.

وروى أن أعرابياً تكلم عند رسول الله (ﷺ) وطوّل فقال له النبى (ﷺ): كم دون لسانك من حجاب؟ قال: شفتاى وأسناني. قال فإن الله عز وجل يكره الانبعاق فى الكلام، فنضر الله وجه امرئ أوجز فى كلامه فاقتصر على حاجته.

وروى عن النبى (ﷺ) أنه قال: رحم الله من قال خيراً فغنم أو سكت فسلم.

من هنا يتبين لنا حقيقة الصمت. وتفسير هذا ما ثبت فى الصحيحين عنه (ﷺ) أنه قال: **[من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت].**

فالتكلم بالخير خير من السكوت عنه، والصمت عن الشر خير من التكلم به، أما الصمت الدائم فبدعة منهى عنها.(١)

وفى الخبر: الصمت* زينة العالم وستر الجاهل.

ونؤيد هذا القول بقول بعض الحكماء: الزم الصمت تعد حكيماً، جاهلاً كنت أو عالماً.

ونستخلص من هذا القول السابق أن الصامت الجاهل يُعد حكيماً.

(١) ابـن تيمية: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (القاهرة: مطبعة المدنى سنة ١٤٠١هـ) ص: ٥.

* اللسـان هو أداة التعبير الأولى عن النفس. والنفس ميالة لأشياء كثيرة. واللسان أقرب الطرق للتعبير عـن هـذه الأشياء. وما أكثر الأشياء التى تميل إليها النفس ولا يصح أن تظهر على اللسان. (سعيد حوى: تربيتنا الروحية، ص: ٤).

وكان بعض الحكماء يحسم الرخصة فى الكلام ويقول: إذا جالست الجهال فأنصت لهم، وإذا جالست العلماء فأنصت لهم. فإن فى إنصاتك للجهال زيادة فى الحلم، وفى إنصاتك للعلماء زيادة فى العلم.

ومن هنا قال بعض السلف: تعلم الصمت كما تتعلم الكلام فإن يكن الكلام يهديك فإن الصمت يقيك، ولك فى الصمت خصلتان تدفع به جهل من هو أجهل منك، وتعلم به علم من هو أعلم منك.

هذا النص السابق لبعض السلف يبين لنا موقف الإنسان من الصمت فإذا كان الإنسان يتعلم الكلام فالأحرى به أن يتعلم الصمت. وتعلم الصمت ليس بالأمر الهين فلابد للإنسان من أن يدرب نفسه على تعلم هذا السلوك النبيل لكى يترقى بنفسه عن الآثام والذنوب.

وكذلك أوضح النص السابق خصلتان للصمت فى غاية الأهمية وهما:

الأولى: يدفع الصامت بصمته جهل من هو أجهل منه.

والثانية: يعلم الصامت بصمته علم من هو أعلم منه.

وقال بعض الحكماء: ليس شيء أشد على الشيطان من عالم حليم إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم. يقول الشيطان: انظروا إلى سكوته أشد عليّ من كلامه.

كما قيل أيضاً: إن الكلام إذا كثر عن قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية وكان صواباً لا يشوبه خطل، وسليماً لا يعتوره زلل فهو البيان والسحر الحلال.

من هنا سأل رجل حكيماً فقال له متى أتكلم؟ قال الحكيم: إذا اشتهيت الصمت. فقال له أيضاً: متى أصمت؟ قال: إذا اشتهيت الكلام.

وبعبارة أخرى: إذا أعجبك الكلام فاصمت وإذا أعجبك الصمت فتكلم.

ولعلنا نلاحظ على هذا القول السابق لهذا الحكيم أن يطالب المرء بأن يقف موقف المخالفة من نفسه. ولا شك أن هذا لون من ألوان التربية النفسية التى أمرتنا بها الشريعة الإسلامية.

لذلك كان الخير كله فى معاداة النفس جملة فى الأحوال كلها، لأن مخالفة النفس ومفارقة أهوائها يجعل الإنسان قلبه مع الله.

ومما ينبغى توضيحه عن النفس أنها خُلقت جاهلة ظالمة فهى لجهلها تظن أن شفاءها فى اتباع هواها وإنما فيه تلفها وعطبها.(١)

فالهوى أكبر أدوائها ومخالفته أعظم أدويتها. من هنا كان لابد من مخالفة النفس وتصفية الباطن.(٢)

وقد قيل إن النفس ضد الله وعدوه، والأشياء كلها تابعة لله، والنفس لله خلقاً، وللنفس ادعاء وثمن وشهوة ولذة بملابستها، فإذا وافقت الحق عزوجل فى مخالفة النفس وعدوانها فكنت لله خصماً على نفسك.(٣)

إذن فمن الواجب على المرء أن ينسلخ من نفسه كما تنسلخ الحيـة من جلدها.

وعلى ضوء ما تقدم فإن الصمت يجعل الإنسان أن يرتفع بنفسه فوق شهواتها. وهذا معناه أن يتحرر تماماً من كل ما يعوق حريته.

وهكذا يتضح لنا الرباط الوثيق بين الصمت والحرية. ويتمثل ذلك فى كون الصامت يتحرر من عبودية النفس.

ويربط الرسول (ﷺ) بين الإيمان بالله واليوم الآخر والصمت فيقول: **[من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره، و من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، و من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت].**

من هنا نستطيع أن نقول: إن الصمت يرتبط ارتباطاً شديداً فى القول بالخير والصمت عن الشر كما أوضح رسول الله (ﷺ).

---

(١) ابن قيم الجوزية: الطب النبوى (مكة: دار النهضة الحديثة، ١٣٩٩هـ) ص: ١٨٥.

(٢) مقداد يالجن: دور التربية الأخلاقية الإسلامية (القاهرة: دار الشروق الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ) ص: ٢٠.

(٣) الجيلانى: فتوح الغيب (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ط٢، ١٣٩٢هـ) ص: ٢٥.

ومما ينبغى أن يفهم أن الصمت من آداب الحضرة الإلهية لقوله تعالى:

﴿وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١).

والحكمة فى الصمت لقول الرسول (ﷺ): "الصمت حكمة وقليل فاعله".(٢)

فمن لم يكن الصمت وطنه فهو فى الفضول وإن كان صامتاً.

ويجدر بنا أن نوضح أن الصمت ليس بمخصوص على اللسان لكنه على القلب والجوارح كلها.

هكذا يتبين إذا كان الصمت من آداب الظاهر فهو كذلك من آداب الباطن.

وقيل: عفة اللسان فى صمته. كما قيل: مثل اللسان مثل السبع إن لم توقفه عدا عليك.

فمن الواجب على العاقل أن ينصف أذنيه من فيه، ويعلم أنه إنما جعلت له أذنان وفم واحد ليسمع أكثر مما يقول، لأنه إذا قال ربما ندم، وإن لم يقل لم يندم، وهو على رد ما لم يقل أقدر منه على رد ما قال. والكلمة إذا تكلم بها ملكته، وإن لم يتكلم بها ملكها.

والعجب ممن يتكلم بالكلمة، إن رفعت ربما ضرته، وإن لم تُرفع لم تضره، كيف لا يصمت؟! ورُبَّ كلمة سلبت نعمة.(٣)

وقيل: العافية عشرة أجزاء، تسعة منها فى السكوت.

لكن ينبغى أن نفهم أن هناك فرقا بين الصمت والسكوت. فالصمت سكوت اللسان، وشغل النفس بالكلام. أما السكوت فهو سكوت اللسان والنفس جميعاً.(٤)

---

(١) سورة الأعراف: آية ٢٠٤.

(٢) رواه القضاعى عن أنس والديلمى فى المسند عن ابن عمر.

(٣) ابن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص: ٤٥.

(٤) المحاسـبي: التوبة، تحقيق عبد القادر عطا (القاهرة: دار التراث العربي، ط١، ١٤٠٠هـ) هامش ص: ٢٥.

وقال بعض العلماء: ما أعوز ما يتكلم به العاقل أن لا يتكلم إلا لحاجته أو لحجته ولا يفكر إلا فى عاقبته أو فى آخرته.

كما قال بعض الفصحاء: فم العاقل ملجم إذا هم بالكلام أحجم، وفم الجاهل مطلق كما شاء أطلقه.

وقال أيضاً: اعقل لسانك إلا عن حق توضحه، أو باطل تدحضه، أو حكمة تنشرها، أو نعمة تذكرها.

ومما قيل: إذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عياً، وإن كان الإكثار واجباً كان التقصير عجزاً.

وروى عن النبى (ﷺ) أنه قال لعمه العباس: يعجبنى جمالك. قال: وما جمال الرجل يا رسول الله؟ قال: لسانه.

هكذا يتضح لنا أن الجمال للمرء إنما هو جمال الخلق الذى يظهر على اللسان عند النطق بالكلام. فالكلام المنطوق هو الذى يحدد جمال اللسان إذا تزين بالكلام.

وما أجمل ما سجله بعض الحكماء حين قال: اللسان وزير الإنسان.

من هنا قال بعض البلغاء: الزم الصمت فإنه يكسبك صفو المحبة، ويؤمنك سوء المغبة، ويلبسك ثوب الوقار، ويكفيك مؤنة الاعتذار.

هذا النص الذى سجله بعض البلغاء يبين أن الصمت طريق ممهد للوصول إلى المحبة، ويؤمن الإنسان من الوقوع فى المهالك، وكذلك من سوء المغبة، ويلبسه ثوب الوقار بين أقرانه، ويكفيه عن الاعتذار للغير.

كما قال أحد الشعراء:

رأيت العز فى أدب وعقل ∴ وفى الجهل المذلة والهوان

وما حسن الرجال لهم بحسن ∴ إذا لم يسعد الحسن البيان

كفى بالمرء عيباً أن تراه ∴ له وجه وليس له لسان

وقد قيل: بين الصمت* والنطق برزخ فيه قبر العقل وقبور الأشياء. فمن أطال صمته احتلب من الهيبة ما ينفعه ومن الوحشة ما لا يضره.

وقال (ﷺ) فى الخبر الجامع المختصر: من سره أن يسلم فليلزم الصمت.(١)

كما أوصى رسول الله (ﷺ) معاذ بالصلاة والصيام وغير ذلك، ثم قال فى آخر وصية: ألا أدلك على ما هو أملك لك من ذلك كله وأومأ بيده إلى لسانه. فقلت يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما تتكلم به ألسنتنا؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على مناخرهم فى جهنم إلا حصائد ألسنتهم. من هنا يمكن أن يقال: لسان المؤمن من وراء قلبه إذا أراد أن يتكلم تفكر فإن كان له تكلم وإن كان عليه أمسك، وقلب المنافق على طرف لسانه، أى كل شىء خطر بقلبه تكلم له ولا يتوقف ولا ينتهي.

وفى الخبر: من آفة العالم أن يكون الكلام أعجب إليه من الصمت. وفى الكلام تنميق ووزر، وفى الصمت سلامة وغنم. فما دمت ساكتاً فأنت سالم، فإذا تكلمت فخذ حذرك.

ومما يروى أن العبد ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالاً يهوى بها أبعد ما بين السماء والأرض. وفى لفظ آخر ليتكلم بها فيهوى فى جهنم سبعين خريفاً.

وفى خبر: من افتتح بكلمة سوء ثم خاض الناس فى مثلها كان عليه مثل أوزارهم.

وفى الخبر: لا يأتى بخبر السوء إلا رجل السوء.

ولبيان أهمية الصمت قال بعض الحكماء: مقتل الرجل بين فكيه.

---

* تقول الحكمة الصينية العتيقة: "من يعلم لا يتكلم، ومن يتكلم لا يعلم". (الحكيم الترمذي: ختم الأولياء، تحقيق عثمان اسماعيل، بيروت: المطبعة الكاثولبكية، ء. ت) ص: ١٧.

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى الصمت، وأبو الشيخ فى فضائل الأعمال، والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف.

وكذلك أورد بعض البلغاء أن الحصر خير من الهذر لأن الحصر يضعف الحجة والهذر يتلف المهجة.

ومن وصايا لقمان لابنه أنه قال: يا بنى إن الرجل ليتكلم حتى يقال أحمق، وما هو بأحمق، وإن الرجل ليسكت حتى يقال له حكيم وما هو بحكيم.(1) فلو لم يكن فى الصمت خصلة تحمد إلا تزين العاقل وتستر الجاهل به لكان الواجب على المرء أن لا يفارقه الصمت ما وجد إليه سبيلاً، ومن أحب السلامة من الآثام فليقل ما يّقبل منه، لأنه لا يجترئ على الكلام الكثير إلا فائق* أو مائق*.

ولقد أورد أحد العلماء أهمية الصمت بقوله: أقلوا الكلام إلا فى تسع: تسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وقراءة القرآن، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وسؤالك الخير، وتعوذك الشر.(2)

ولعل من ذلك يتضح مدى أهمية الصمت، إذ لو كان الفضل فى فصاحة اللسان لكان سيدنا هارون أولى بالرسالة من سيدنا موسى عليه السلام.(3)

قال تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.(4)

ويربط الرسول (ﷺ) بين الصمت وقضاء الحاجات بقوله: **[استعينوا على الحاجات بالسر والكتمان فإن كل ذى نعمة محسود].**

---

(1) أبو النعيم الأصبهاني: حلية الأولياء، ج2، ص: 20.

* الفـــائق: المتفوق على القدرة على حسن التأنى وانتقاء القول من واسع ما علم. فهذا يقدم على الكلام فائقاً مثبتاً فيفيد.

* المـــائق: الأحمـــق السفيه الذى لا يهمه أن يلقى بنفسه فى كل ورطة، وأن يزج بنفسه فى كل بلية لا خـــلاص منها لأنه لا يقدر على العواقب، ولا يفكر فى المصائر. (ابن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص: 47).

(2) عبد الحليم محمود: عبد الله بن المبارك (القاهرة: مطابع دار الشعب، سنة 1402هـ) ص: 139.

(3) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 322.

(4) سورة: القصص: الآيه 34.

من هنا كان الصمت طريقاً يتقرب به العبد من ربه سبحانه وتعالى حتى يكون طائعاً لله. فمن أطاع الله فقد ذكره ومن لم يطعه فليس بذاكر له.

هكذا يصبح الصمت مسلكاً أساسياً للتخلص من مقت الله سبحانه وتعالى وطريقاً للوصول إلى طاعته.

والصمت بكل حال درجة من الدرجات العالية التى يحظى بها العبد السالك إلى ربه. كما أنه سبب داع للسالك والمحقق إلى نيل عظيم الأحوال للسالكين والأسرار للمحققين.

أقسام الصمت

الصمت من أمهات الطريق وهو نوعان: صمت باللسان عن الحديث لغير الله، وصمت بالقلب عن كل خاطر يخطر له فى النفس فى أى كون من الأكوان البتة. فمن صمت لسانه ولم يصمت قلبه خف وزره، ومن صمت لسانه وقلبه ظهر له سره، وتجلى له ربه، ومن صمت قلبه ولم يصمت لسانه فهو ناطق الحكمة. أى ناطق بلسان الحكمة. ومن لم يصمت بلسانه ولا بقلبه كان مملكة للشيطان ومسخرة له.

فصمت اللسان من منازلة العامة وأرباب السلوك. وصمت القلب من صفات المقربين أهل المشاهدات. وحال صمتهم التأنيس، لأنهم لا حديث لهم إلا مع ربهم، وحال صمت السالكين السلامة من الآفات. فمن التزم الصمت فى جميع الأحوال كلها لم يبق له حديث إلا مع ربه.(١)

ومن ناحية أخرى يمكننا القول: إن الصمت ينقسم إلى: صمت بالظاهر، وصمت بالقلب والضمائر، فالمتوكل يسكت قلبه عن تقاضى الأرزاق، والعارف يسكت قلبه مقابلة الحكم بنعت الوفاق. فهذا بجميل صنعه واثق، وهذا بجميع حكمه قانع.(٢)

(١) أبو طالب المكي: علم القلوب، ص: ٢٨٧.

(٢) القشيري: الرسالة، ص: ٩٧.

ولقد قيل: صمت العوام بألسنتهم، وصمت العارفين بقلوبهم، وصمت المحبين من خواطر أسرارهم.

وينبغى أن نوضح أن مقام الصمت هو مقام الوحى على ضروبه.(١)

ونوجه الانتباه هنا إلى أن الصمت على الإنسان محال فى نفسه، فإذا انتقل من الحديث مع الأغيار إلى الحديث مع ربه كان ناجياً مقرباً مؤيداً فى نطقه إذا أنطق فإنما ينطق بالصواب لأنه ينطق عن ربه.

فالنطق بالصواب نتيجته الصمت عن الخطأ، والكلام مع غير الله تعالى خطأ من كل وجه، ولغير الله سوء من كل وجه.

قال تعالى: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.(٢)

---

(١) ابن الخطيب: روضة التعريف بالحب الشريف، ص: ٧١.

(٢) سورة: النساء: الآية: ١١٤.

الفصل السادس

الأمثال والحكم
العربية والإسلامية

الفصل السادس

الأمثال والحكم العربية والإسلامية

لقد اتصف العرب في جاهليتهم بالفصاحة والبلاغة، وهو ما نلحظه في كلامهم المنثور الواصل إلينا، وذلك نتيجة طبيعة الجزيرة العربية القاسية، وحالة المجتمع القبلي الاجتماعية، فالحاجة في ذلك المجتمع كانت توجب على القبيلة أن يكون لها خطباء وحكماء يرجعون إليهم في أوقات الملمات يحلون مشاكلهم ويرشدونهم إلى الطريق القويم، ويذكرونهم بأمجادهم ووقائعهم الهامة وأبطالهم الخالدين الذين دافعوا عن القبيلة، كما يردون كيد الأعداء بألسنتهم، وحاجة القبيلة إلى الحكماء والخطباء لا تقل أهمية عن حاجتها إلى الشعراء الذين يمدحون الرؤساء ويهجون الأعداء، ويثيرون الحماس في الجماهير.[1]

ومن أشهر خطباء العرب كعب بن لوئي، وخويلد بن عمرو الغطفاني، وقس بن ساعدة الأيادي، وأكثم بن صيفي وغيرهم، كما لهم فحول من الشعراء.

وهؤلاء الحكماء والخطباء تارة يستعملون الخطب المطولة في الإرشاد والتوجيه والحكمة والموعظة، والحث على عمل الخير، والدعوة إلى السلم والحرب، ويلقون منها الخطب المختارة في الأسواق الأدبية، وأخرى يستعملون الإيجاز في مناسبات تقتضي ذلك، لحاجتهم إلى انتشار الحكمة والموعظة كما يعتبر بهما المجتمع القبلي.[2]

---

(١) خير الله طلفاح: من حكم العرب وأمثالهم، القسم الأول، ج٢٦، ص: ٩.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

ولما أضاء الله جزيرة العرب بالإسلام، وأرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، وخاطبهم بالقرآن الكريم الذى حاز جميع أسرار البلاغة والفصاحة وفاق جميع فنونهم الأدبية، وأغراضهم الشعرية، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (١).

وقد تحداهم أن يأتوا بمثله كما فى قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٢).

فهو آية الله البينة وحجته الخالدة ومعجزة رسوله (ﷺ) الدائمة. المثَلَ مأخوذة من قولك هذا مَثَلُ الشيء ومِثْله كما تقول: شبَهُهُ وشِبْهُهُ، لأن الأصل فيه التشبيه، ثم جعلت كل حكمة سائرة مثلاً.(٣)

ويرى غيرهم أن الكلمة مأخوذة من العبرية، ففيها كلمة "مَثَل" تدل على هذا المعنى أوسع منه، فهم يطلقونها على الحكمة السائرة، وعلى الحكاية القصيرة ذات المغزى وعلى الأساطير.

وعلى كل حال فسنبحث فى الأمثال ـــ فقط ـــ من ناحية دلالتها العقلية، فمن أمثال الأمة نستطيع أن نتفهم الدرجة التى وصلت إليها، ونستطيع أن نعرف كثيراً من أخلاقها وعاداتها.

وللأمثال من هذه الناحية ميزةٌ على الشعر، ذلك أن الشعر طبقة من الناس يُعدون فى مستوى أرقى من مستوى العامة. فالشعراء يعبرون عن شئون القبيلة التى ارتسمت فى أذهانهم الراقية ـــ نوعاً من الرقى ـــ وهم يعبرون بألفاظ مصقولة صقلاً يستوجبه الشعر. أما الأمثال فكثيراً ما تنبع من أفراد الشعب نفسه، وتعبر عن عقلية العامة. ولذلك تجد كثيراً منها غير مصقول، أعنى أنه لم يتخير لها ألفاظ الأدباء ولا العقلاء الراقين، مثل قولهم: "أولُ ما أطْلَعَ ضبٌ ذَنَبَه".

---

(١) سورة هود: آية ١.

(٢) سورة الإسراء: آية ٨٨.

(٣) أحمد أمين: فجر الإسلام (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م) ص: ٩٦.

وقولهم: "أم قُبَيْسْ وأبو قبيس، كلاهما يخلط خلط الحيس". وربما كان هو السبب فى أن بعض الأمثال العربية يفهم معناها إجمالاً لا تفصيلاً.

قال أبو هلال العسكرى فى كتابه: "جمهرة الأمثال" فى شرح: "بِعَيْنٍ ما أرَيَنَّكَ". إن معناه (أعْجِل) وهو من الكلام الذى عرف معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه، وهذا يدل على أن لغة العرب لم ترد علينا بكمالها وأن فيها أشياء لم تعرفها العلماء.

وهنا يقول صاحب: "فجر الإسلام": وأنا أرى أنه يدلنا أيضاً على أن ما وصل إلينا من الشعر والخطابة ونحو ذلك هو لغة الأدباء المصقولة، لا لغة الشعب والعامة. ولم يصل إلينا من لغة العامة إلا بعض الأمثال.(١)

ويعود فيقول: ولست أعنى أن كل الأمثال ساقطة التعبير غير مصقولة الألفاظ. ولكن أعنى أنها تمثل الشعب بأجمعه، فقد ينبع المثل من طبقة راقية فيكون راقياً مصقولاً، وقد ينبع من العامة فلا يكون كذلك. أما الشعر فلا ينبع إلا من طبقة الشعراء، وهم عادة أرقى من الشعب، وهم إن فات بعضهم رقى المعنى فلن يفوته صقل اللفظ، ومن أجل هذا عبر بعضهم عن المثل بأنه "صوت الشعب". ومن أجل هذا أيضاً كانت دلالة الأمثال على لغة الشعب أصدق من دلالة الشعر.(٢)

رأى الباحثون فى الأمثال أن هناك نوعاً منها يكاد يكون شائعاً بين الشعوب كلها. ونوعاً آخر تختلف فيه الأمة عن الأخرى. فالنوع الأول موضوع البحث.

كيف اتفقت الأمم فى هذه الأمثال، وخصوصاً فى اللغات ذات الأصل الواحد كاللغات السامية ففيها أمثلة متقاربة. وفى بعض الأمثال العربية مشابهة قريبة لأمثال سليمان. لا تختلف عنها إلا فى صوغها فى القالب العربي، وتحويرها تحويراً طفيفاً لتتفق والذوق العربي.

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص: ٩٧.

(٢) المرجع السابق، ص: ٩٨.

والنوع الثانى موضع البحث: لِمَ كان كذلك فى هذه الأمة وكان غير ذلك فى الأمة الأخرى؟ فالأمة الزراعية لها أمثال مشتقة من زراعتها، والتجارية لها أمثال مشتقة من تجارتها، وهكذا. وإنك لتستطيع أن تطبق ذلك على العرب باستعراضك أمثالهم، فقد أكثروا من الأمثال المتعلقة بالإبل وشئونها فقالوا :

"استَنْوق الجمَلُ" و "أغُدةٌ كغدة البعير؟". وهكذا أمثالهم فى اللبن والجزور ،إن أنت استعرضت أمثال قريش رأيت فيها ما يدل على أنهم قبيلة تجارية كقولهم "لا فى العير ولا فى النفير". ونحو ذلك.

وقد عاق عن الإستفادة من الأمثال العربية من هذه الناحية أمران :

الأول: اختلاط الأمثال الجاهلية بأمثال الإسلام اختلاطاً كبيراً، حتى ليصعب التفريق بينهما، وهذه أول خطوة يجب التحقق منها قبل الاستدلال بالأمثال على الحياة العقلية، وقد رووا أن "علاقة الكلابي" جمع الأمثال فى عهد يزيد بن معاوية، وقد كان يفيدنا كثيراً لو وصل إلينا، إذ لا يكون قد ذكر فيه إلا أمثال الجاهلية وصدر الإسلام، ولكنه لم يصل.(١)

نعم إن هناك دلائل تدلنا أحياناً على مصدر المثل من طرق عدة:

(١) إن هناك أمثالاً قِيلت فى حوادث تاريخية كجزاء سنمار، ومواعيد عرقوب، ولا فى العير ولا فى النفير، وتسمع بالمعُيدى خير من أن تراه. وهذه دلالة صحيحة متى تثبت صحة الحادثة التاريخية التى قيل فيها المثل.(٢)

(٢) الاستدلال من حياة الجاهلية الاجتماعية على أن المثل الجاهلي، كالذى قالوا: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" فإن ذلك هو الخلق الجاهلى الإسلامي.

(٣) إن كثيراً من الأمثال قد نص المؤلفون على قائليها عند ذكر مضرب المثل، فهم فى كثير من الأحيان يذكرون القصة التى قيل فيها المثل، فنستدل بذلك ولو على وجه التقريب على زمنه، ولكنا نشك فى كثير من

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص: ٩٩-١٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص: ١٠٠.

هذا، لأن القصة فى كثير من الأحيان يبدو عليها أثر الصنعة، وأنها عملت فرشاً ينطبق على المثل، بدليل أن المؤلفين كثيراً ما يذكرون قصصاً مختلفة متباينة لمضرب المثل الواحد، أضف إلى ذلك أن أكثر الأمثال فى الأمم يصعب تعيين قائليها، حتى الأمثال قريبة العهد، لأن الأمثال ليست إلا جُملاً قصيرة نتيجة تجارب طويلة، وهى عندما تقال تكون مثلاً، وإنما يجعلها مثلاً شيوعها بعد موافقتها لذوق الجمهور، ويغلب عندئذ أن يكون قد نسى قائلوها.

الأمر الثاني: من وجوه الصعوبة أن أكثر جامعى الأمثال رتبوها على حسب حروف الهجاء، فجعلوا ما أوله ألف، ثم ما أوله باء وهكذا، ولم نر فيما نعلم أحداً رتبها على حسب أصولها الاجتماعية كأن يجمع الأمثال التى تتعلق بالغنى والفقر، وبالقمر وأطواره، وبالزواج والأسرة، وبالعمل والتجارة، وبالحظ وما إليه، وبالأصدقاء والجيران، وبالمرأة وأخلاقها، وبالصحة والمرض، إلى نحو ذلك. ولو فعلوا ذلك كما فعل بعض مؤلفى الفرنج فى أمثالهم – لأفادونا فائدة كبرى من ناحية موضوعنا.(١)

وقد شاع بين العرب فى الجاهلية ذكر لقمان، واتخذوه شخصية هى مثال الحكمة، ينسبون إليه من الأمثال كثيراً مما يُعرف قائله، وفى القرآن الكريم سورة باسمه. وزعم بعض العلماء أن هناك لقمانين: لقمان الحكيم، ولقمان عاد، وأن لكل وردت أمثال. فقالوا عن الثاني، ورد "إحدى حظيات لقمان" و"آكل من لقمان". ورووا للأول حكماً كثيرة، ويظهر أن حكمه كانت متداولة بين العرب لدرجة كبيرة.

ذكر ابن هشام فى السيرة: "أن سويد بن صامت قَدِم مكة حاجًّا أو معتمراً، وكان سويد إنما يسميه قومه فيهم الكامل لجلده وشرفه ونسبه... فتصدى رسول الله (ﷺ) حين سمع به، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام فقال له سويد: فلعل الذى معك مثل الذى معي، فقال له رسول الله (ﷺ): وما الذى معك؟ قال: مجلة لقمان، فقال له رسول الله (ﷺ): اعرضها علىّ، فعرضها

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص: ١٠٠.

عليه، فقال له: إن هذا الكلام حسن، والذى معى أفضل من هذا، قرآن أنزله الله عليّ، هو هدى ونور، فتلا عليه رسول الله القرآن، ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه، وقال: إن هذا لقول حسن.(١)

ولكن من لقمان هذا؟ ما هوّتيه؟ وما قومه؟ وأية مدنية تمثلها حكمته؟ وفى أى عصر كان؟ لم يصل العلم إلى تحقيق ذلك بعد، وقد اضطربت الأقوال فيه اضطراباً كبيراً فقيل: كان نوبياً من أهل أيلة، وقيل: كان حبشياً، وقيل: كان أسود من سودان مصر، وزعم وهب بن منبه أنه يهودي، وأنه ابن أخت داود عليه السلام، وقيل ابن خالته وكان فى زمنه، وفى تفسير البيضاوى: "إنه لقمان بن باعورا من أولاد أزر ابن أخت أيوب أو خالته، وعاش حتى أدرك داود وأخذ منه العلم.

ويقول ياقوت فى معجمه فى مادة طبرية: "وفى دمشق طبرية قبر لقمان الحكيم وابنه، وله فى اليمن قبر، والله أعلم بالصحيح منهما.(٢)

ويروى بعضهم حديثاً عن النبى (ﷺ) أنه قال: سادة السودان أربعة: لقمان، والنجاشي، وبلال، ومَهجعْ". وظاهر أن كلمة السودان لا يراد بها السودان بالمعنى الذى نصطلح عليه الآن، إنما يراد بها الجنس الأسود.

وعلى كل حال، فالذى نستنتجه من هذا أنهم مجمعون على أنه ليس عربياً، وأنه أدخل على العرب حكمة أمة أخرى، ويُرجح بعضهم أنها العبرية، ويزعمون أن كلمة لقمان تعريب من العرب لكلمة بَلْعَمْ، وبلعيم بن باعور يهودى معروف. وقد ذكر.

وهناك نوعان آخران يلحقان بالأمثال، ولهما قيمة كبيرة فى الدلالة على الحياة العقلية، ولكن يظهر أن المؤلفين لم يعنوا بهما العناية الكافية فلم يجمعوهما و يرتبوهما كما فعلوا فى الأمثال، إنما تراهما منثورين مبعثرين فى الكتب، وهما:

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص: ١٠٠-١٠١.

(٢) المرجع السابق، ص: ١٠١- ١٠٢.

الأول: الأحاجى أو الألغاز، كالذين زعموا أنه اجتمع يوماً عبيد بن الأبرحى وامرؤ القيس، فقال له عبيد: كيف معرفتك بالأوابد؟ فقال: قل ما شئت تجدنى كما أحببت. قال عبيد:

ما حية ميتة قامت بميتتها ∴ درداء ما أنبتت ناباً وأضراساً

فقال امرؤ القيس:

تلك الشعيرة تسقى فى سنابلها ∴ قد أخرجت بعد طول المكث أكداساً

فقال عبيد :

ما السود والبيض والأسماء واحدة ∴ لا يستطيع لهن الناس تمساساً

فقال امرؤ القيس :

تلك السحاب إذا الرحمن أنشأها ∴ روى بها من نحر الأرض أيباساً

إلى آخر القصة وهى طويلة.(١)

وكالذين زعموا أن امرؤ القيس آلى على نفسه ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة واثنين، فجعل يخطب النساء، فإذا سألهن عن هذا قلن له: أربعة عشر، فبينما هو يسير إذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنها البدر ليلة تمَّه، فأعجبته، فقال لها: يا جارية! ما ثمانية وأربعة واثنين؟ فقالت: أما ثمانية فأطباء الكلبة. وأما أربعة فأخلاف الناقة، وأما اثنان فثديا المرأة. فخطها من أبيها....(٢)

ويقول صاحب: "فجر الإسلام": ولم نسق هذين المثلين لاعتقادنا بصحتهما، فإن أثر الصنعة الإسلامية واضح فى قوله:

تلك السحاب إذا الرحمن أنشأها، وفى قوله بعد

تلك الموازين والرحمن أرسلها ∴ رب البرية بين الناس مقياساً

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص: ١٠٢-١٠٣.

(٢) المرجع السابق، ص: ١٠٣-١٠٤.

هذا فضلاً عن ضعف الشعر وإسفافه، وإنما سقناهما للدلالة على ما نريد من الألغاز والأحاجي، ونرى كثيراً منها قد نثر في كتب الأدب كأمالي القالي، والحيوان للجاحظ، والمثل السائر لابن الأثير، وأمثال الميداني، لو اجتمع وامتحن لدلنا على ناحية خاصة من نواحي الخيال.(١)

الثاني: قصص الحيوانات، كالذين زعموا أن النعامة ذهبت تطلب قرنين، فرجعت بلا أذنين، وفي ذلك يقول بشار:

طالبها قلبي فراغت به ∴ وأمسكت قلبي مع الدين

فكنت كالهقل* غدا يبتغي ∴ قرناً فلم يرجع بأذنين

وزعموا أنه لذلك يسمى بالشليم. وكالذين زعموا أن الغراب ذهب يتعلم مشية القطاة فلم يتعلمها، ونسي مشيته، فلذلك صار يحجل، وإن الضفدع كان بلا ذنب، لأن الضب سلبه إياه.

وكانوا يقولون: إن الهدهد لما ماتت أمه أراد أن يبرها. فجعلها على رأسه يطلب موضعاً، فبقيت في رأسه، فالقنزعة التي في رأسه هي قبرها، وإنما أنتنت ريحها لذلك.

وزعموا أن الهديل فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فصاده جارح، فما من حمامة إلا وهي تبكيه وتدعوه فلا يجيبها، قال بعضهم :

وما من تهتفين به لنصر ∴ بأسرع جابة لك من هديل

وقولنا في هذا النوع كقولنا في سابقه.

فالأمثال العربية غاية في البلاغة والفصاحة من حيث إيجاد ألفاظها، وإصابة معانيها، وحسن تشبيهاتها. فقد أوصلت إلينا الأمثال حكم العرب وإرشاداتهم وحسن أفكارهم ونتائج تجاربهم، وأعطتنا فكرة كاملة بكلام موجز عن الأشخاص الذين استعملوها. وصورت لنا أخلاقهم وعاداتهم، وصلتهم

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص: ١٠٤.

*الهقل: الفتى من النعام.

ـيوانات المختلفة التى عاشت فى جزيرتهم، كما صورت لنا الأوهام خرافات التى كانت شائعة فى محيطهم.

لذلك كانت الأمثال والحكم سجلاً من سجلات العرب التى نقلت إلينا ،اثهم الهامة وحروبهم وبطولاتهم وثقافاتهم المختلفة.

من الأمثال فى السعى على العيال ما رواه صاحب: "محاضرة الأبرار سامرة الأخيار" من حديث المالكى عن عليّ بن الحسن، عن أبيه، قال: قال الباجي: قال بعض العباد: إن مثل الرجل لولده ولعياله مثل الدخنة الطيبة ـرق ويلتذ بطيب رائحتها آخرون.(١)

ومن أحوال الدنيا: من حديث الدينوري، عن أحمد بن الحسن، عن سعيد ـرمي، قال: قال ابن السماك لجعفر بن يحيى: إن الله عز وجل ملأ الدنيا ذات وحشاها بالآفات، فخرج حلالها بالموبقات وحرامها بالتبعات.(٢)

وقد قيل: كم من ملك رفعت له علامات، وكم ممن علامات.

ولقد جاء فى الأمثال والأقوال:

- يرى نفسه كبيراً فاقد الوعى والمغرور.
- التجربة: كتاب يقرؤه الحكماء، ويعيد كتابته الحمقى.
- أخطر ما يقال: كلمة لكل الناس.
- الذى يدق الطبول لا يسمع غيرها.
- كل المجانين عقلاء فى لحظة صمت.
- الدنيا ليست تعطيك لتسرَّك، بل لتغرك.
- الصبى أعلم بمضغ فيه.
- شر الأخلاء من يصرفه الواشي.

---

(١) ابن عربى: محاضرة الأبرار ومسامرة الأخبار، ص: ٢٤٦.

(٢) المصدر السابق، ص: ٢٤٧.

- جمال بدون عقل كزهر فى الوحل.
- الخبز والملح لا يتقاتلان.
- عز الدنيا بالمال وعز الآخرة بصالح الأعمال.
- بعض الناس كالذباب لا يقع إلا على الجرح، أو فى القاذورات.
- تفقهوا قبل أن تسودوا " أى تعلموا قبل أن تسودوا الناس.

ومن لم يتجرع العلم مرة، تجرع ذل الجهل دائماً.

الفصل السابع

صمت الحكيم

الفصل السابع

صمت الحكيم

يعتبر الكلام أحياناً الطريق الذى يدخل به صاحبه إلى النار ... كما أنه يكون حيناً السبب المنجى الذى يوصل إلى الجنة، ولكن لا أطيب من اللسان إذا طاب القلب، ولا أخبث منه إذا خبث القلب ...

لذلك كان الصمت حكمة. ومن صمت نجا. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يوصى بالصمت، ويعرف أن قليلاً من الناس فاعله.

ويعد الصمت طريقاً إلى الصحة النفسية والكمال الأخلاقى والإنساني، الذى يؤثر الصمت على الكلام قد غسل باطنه من الشهوات والآفات وتملى وتحلى بحقائق القرب من الله، وتأدب بكمال آداب العبودية.

والصمت قدرة، والقدرة من الحكمة .. ومن كانّ عنده قدرة من غير حكمة هلك. ولذلك فكلام صاحب الحكمة مقبول فى الباطن سواء وافق الظاهر أو لم يوافقه، أما صاحب القدرة الكلامية فإنه يتظاهر وهو فى تلك الحالة لأنه لم يتحقق بحقيقة كلامه، وربما يتكلم رجلان فيتقبل من أحدهما ويرد على الآخر، لأن هناك فرقاً بين صاحب قدرة وصاحب حكمة، والحكمة هى ينبوع الخيرات ومفتاح الرزق.(١)

قال تعالى: ﴿يُؤتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِى خَيْرًا كَثِيرًا﴾.(٢)

والحكيم صامت. وهذه صفة تتخلع عليه تمتع بها دون غيره.

(١) حسن الشرقاوي: نحو علم نفس إسلامي، ص: ١٩٠.

(٢) سورة: البقرة: الآية: ٢٦٩.

ويجب أن ننبه أصحاب العقول أن الصمت صفة ثقيلة على النفوس ولا يتحقق بها إلا من أخذ الله بيده لأن من طبيعة النفس الميل إلى الحرية، لذلك فهى لا تميل إلى الصمت، وإنما تقبل عليه لأنه الميل الشرعى القائم على الوسط العدل.

ويرى الباحث أن الصمت صدق مع النفس لذلك لا يتحلى به إلا أهل الصدق الذين عانقوا العبودية واستقاموا. لذلك فإن إمساك اللسان عن مالا يعنيه هو الطريق المستقيم الذى يوصل إلى الكمالات الأخلاقية.

وقد قيل :

إن السلوك هو الطريق الأقوم ∴ فإذا استقمت فأنت فيه السالك

فالسالك إلى طريق الله يطلب الهداية إلى الحق سبحانه وتعالى، فهو الهادى إلى سواء الطريق.(١)

ويقول ابن العربي: "من أراد أن يتكلم باطنه فليصمت ظاهره".

ومعنى ذلك أن قوة الباطن أظهر من قوة اللسان، كما أن اللسان يخطئ ويصيب، أما الباطن فهو الحق الذى لا غبار عليه.

ولقد اتفق الأنبياء والأولياء والعلماء على أن الصمت كله خير وبركة.

قال (ﷺ): **[استعينوا على قضاء حوائجكم بالصمت]**.(٢)

والصمت هو مخالفة للنفس التى تتطلب شهوة الكلام، فهو نجاة من الهوى وفوائده عديدة، فإذا كانت النجاة فى صمت العالم، فما بالك إذا كان عن غير علم .... وقد ورد الصمت فى القرآن الكريم على أساس أنه حكمة لبعض أنبيائه فى قوله تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا**﴾.(٣)

---

(١) ابن عجيبة: الفتوحات الإلهية، ص: ٥١.

(٢) تم تحريجه فى موضع آخر من هذا البحث.

(٣) سورة: مريم: الآية: ١٠.

فالصمت آية من آيات الله وحكمة من حكمه.

ويرى أهل الحق في الصمت لسان الحكيم، لأن عفة اللسان في صمته.

والصمت حرب على الغيبة والنميمة، وهو نوع من أنواع الرياضات الكبرى لأنه مخالفة للنفس، ورعاية لها من الوقوع في براثن الشيطان، كما أنه ترويض لجنوحها وتهذيب لأخلاقها، فبالصمت تتأدب النفس، فيحصل العلم وبالعلم يصح لك العمل، وبالعمل يحصل الزهد، وبالزهد تحدث الحكمة، وبالحكمة تحصل مخافة الله تعالى، وبالخوف من وعيد الله تعالى تحصل منازل القرب في الدنيا والآخرة.

كما أن الصمت سكوت وفي وقته صفة من صفات الرجال، كما أن النطق في موضعه من أشرف الخصال.

ويورد صاحب الرسالة القشيرية حديثاً لرسول الله (ﷺ) في معنى الصمت عندما سأله عقبة: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: **[احفظ لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك]**.

والصمت من الآداب والأخلاق التي يتأدب ويتخلق به أصحابه، فلا يتكلمون إلا لسبب، ولا يسكتون إلا لحكمة، وفرق بين عبد يسكت تهاوناً وكذباً وغيبة، وعبد يسكت لاستيلاء سلطان هيبة الله عليه وخوفه أن يقع في معصية.(١)

ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله (ﷺ): **[من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت]**.

وهنا تتضح حقيقة الصمت. فالتكلم بالخير خير من السكوت عنه. والصمت عن الشر خير من التكلم به، فأما الصمت الدائم فبدعة منهي عنها.(٢)

---

(١) حسن الشرقاوي: ألفاظ الصوفية ومعانيها، ص: ٢١٥.

(٢) ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (القاهرة: المؤسسة السعودية بمصر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص: ٤٥.

كما ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن النبى (ﷺ) رأى رجلاً قائماً فى الشمس فقال: "ما هذا؟ ــ فقالوا: أبو إسرائيل نذر يقوم فى الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ــ فقال النبى (ﷺ): **[مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه]**.

وثبت فى الصحيحين عن أنس رضى الله عنهما: أن رجالاً سألوا عن عبادة رسول الله (ﷺ) فكأنهم تقالُوها: وأين مثل رسول الله (ﷺ)؟! ثم قال أحدهم: أما أنا فأصوم ولا أفطر. وقال آخر: أما أنا فأقوم الليل ولا أنام، وقال آخر: أما أنا فلا آكل اللحم، وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء. فقال رسول الله (ﷺ): "ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا؟! ولكنى أصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس مني".

أى سلك غيرها ظاناً أن غيرها خير منها، فمن كان كذلك فهو برىء من الله ورسوله.(١)

قال تعالى:﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾.(٢)

بل يجب على كل مسلم أن يعتقد أن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد (ﷺ).

كما ثبت فى الصحيحين أنه كان يخطب بذلك كل يوم جمعة.

وقال أبو حاتم: الواجب على العاقل إذا ذكر المطيتين ــ اللتين ذكرتهما قبل إصلاح السريرة ولزوم العلم: أن يبلغ مجهوده حينئذ فى حفظ اللسان حتى يستقيم له، إذ اللسان هو المُورِدُ للمرء موارد العطب. والصمت يكسب المحبة والوقار، ومن حفظ لسانه أراح نفسه، والرجوع من الصمت أحسن من الرجوع من الكلام. والصمت منام العقل، والمنطق يقظته.(٣)

---

(١) ابن تيمية: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (القاهرة: المؤسسة السعودية بمصر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) ص ٤٥.

(٢) سورة: البقرة: الآية: ١٣٠.

(٣) ابن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص: ٤١.

ومما رواه أنس عن لقمان أنه قال: "إن من الحكم الصمت، وقليل فاعله".

وأنشد الكريزى :

أقللْ كلامك واستعذ من شره ∴ إن البلاء ببعضه مقرون
واحفظ لسانك واحتفظ من غَيه ∴ حتى يكون كأنه مسجون
وَكِّلْ فؤادك باللسان، وقل له ∴ إن الكلام عليكما موزون
فزنَاهُ ولْيك محكما ذا قلة ∴ إن البلاغة فى القليل تكون

ويقول أنس بن مالك: "كل شيء ينتفع بفضله إلا الكلام فإن فضله يضر".

وقال أبو الدرداء: "لا خير فى الحياة إلا لأحد رجلين: منصت واع، أو متكلم عالم".

كما قال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن لا يغالب الناس على كلامهم، ولا يعترض عليهم فيه، لأن الكلام وإن كان فى وقته حظوةً جليلة فإن الصمت فى وقته مرتبةٌ عالية، ومن جهل بالصمت عَيّ بالمنطق، والإنسان إنما هو صورة ممثله أو صالة مهملة، لولا اللسان، والله عز وجل رفع جارحة اللسان على سائر الجوارح، فليس منها شيء أعظم أجراً منه إذا أطاع، ولا أعظم ذنباً منه إذا جنى.

وأنشد محمد بن عبد الله بن زنجى البغدادي:

لئن كان يجنى اللومَ ما أنت قائل ∴ ولم يك منه النفع فالصمت أيسر
فلا تبد قولاً من لسانك لم يَرْض ∴ مواقعه من قبل ذاك التفكُّر

وأنشد أبو مسهر هذا البيت:

قد أرى كثرة الكلام قبيحاً ∴ كل قول يشينه الإكثارُ

وقال ابن مبارك :

تعاهد لسانك إن اللسان ∴ سريع إلى المرء فى قتله

وهـذا اللســان بـريدُ الفـؤاد ∴ يـدل الـرجال علـى عقلـه

ولقد كان الفضيل بن عياض يقول: "شيئان يقسيان القلب: كثرة الكلام، وكثرة الأكل".(١)

ويربط الثورى رباطاً محكماً بين الصمت والعلم فيدلى بقوله:

"أول العبادة الصمت، ثم طلب العلم، ثم العمل به، ثم حفظه، ثم نشره".(٢)

ونورد هنا قول الأحنف بن قيس: "الصمت أمان من تحريف اللفظ، وعصمة من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول، وهيبة لصاحبه".

وقال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن يلزم الصمت إلى أن يلزمه التكلم، فما أكثر من ندم إذا نطق، وأقل من يندم إذا سكت، وأطول الناس شقاء وأعظمهم بلاء من ابتلى بلسان مطلق، وفؤاد مطبق.

واللسان فيه عشر خصال يجب على العاقل أن يعرفها، ويضع كل خصلة منها فى موضعها: هو أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير، وناطق يرد به الجواب، وحاكم يفصل بين الخطاب، وشافع تدرك به الحاجات، وواصف تعرف به الأشياء، وحاصد تذهب به الضغينة، ونازع يجذب المودة، ومُسَلٍ يزكى القلوب، ومُعزٍ ترد به الأحزان.(٣)

ولقد أخرج أحمد، والدرامي، والترمذي، وابن أبى الدنيا، والبيهقى فى شعب الإيمان، عن عبد الله بن عمرو، رضى الله عنهما أن رسول الله (ﷺ) قال: "مَنْ صَمتَ نجا".(٤)

(١) ابن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص: ٤٣.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) نفس المصدر السابق، نفس الصفحة ص: ٤٣.

(٤) حديث صحيح رواه الترمذى وأحمد وغيرهما.

كما أخرج ابن أبى الدنيا، والبيهقى فى شعب الإيمان، والقضاعى فى مسند الشهاب، عن أنس، رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): **[من سره أن يسلم فليلزم الصمت]**.(١)

وأخرج أبو القاسم الزجاجي فى أماليه، والطبرانى عن عبادة بن الصامت أن رسول الله (ﷺ) خرج ذات يوم فسار على راحلته فقال له معاذ بن جبل: أى الأعمال أفضل؟ فأشار رسول الله (ﷺ) إلى فيه وقال: "الصمت إلا من خير".

قال معاذ بن جبل: وهل يؤاخذنا الله بما تتكلم به ألسنتنا؟ فضرب رسول الله (ﷺ) على فخذ معاذ ثم قال: **[يا معاذ بن جبل ثكلتك أمك، وهل يكب الناس على مناخرهم فى جهنم إلا ما نطقت به ألسنتهم، فمن كان يؤمن بالله عز وجل واليوم الآخر فليقل خيراً أو يسكت عن شر، قولوا خيراً تغنموا، واسكتوا عن شر تسلموا]**.(٢)

ولقد أحسن الذى يقول :

إن كان يعجبك السكوت فإنه ∴ قد كان يعجب قبلك الأخيارا
ولئن ندمت على سكوت مرة ∴ فلقد ندمت على الكلام مرارا
وإذا تقرّب خاسرٌ من خاسر ∴ زادا بذاك خسارة وتبارا

ومما رواه ابن سعيد الكندى أنه قال: حدثنى أبو حيه قال: "كنت أماشى إسماعيل بن سهل، وكان أحد الحكماء، فقال لي: ألا أخبرك ببيت شعر خير، لك من عشرة آلاف درهم؟ قال: نعم. قال: أيهما أحبُّ إليك: نفسك أو عشرة آلاف درهم؟ قال: قلت: نفسي، فأنشأ يقول:

اخفض الصوت إن نطقت بليل ∴ والتفت بالنهار قبل المقال

(١) حديث ضعيف رواه أبو يعلى والطبراني.

(٢) حديث صحيح رواه الحاكم والبيهقى وصححه الحاكم.

وأخرج الطبراني عن أبى ذر(ﷺ) قال: قال لى رسول الله (ﷺ): "**عليك بطول الصمت إلا من خير، فإنه مطردة للشيطان عنك، وعون على أمر دينك**".(١)

كما أخرج ابن أبى الدنيا، وأبو نعيم فى الحلية، والبيهقى فى الزهد، عن وهيب بن الورد قال: كان يقال: الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها فى الصمت وواحدة فى العزلة فأرادت نفسى على شيء من الصمت فلم أقدر عليه، فصرت إلى العزلة فحصلت لى التسعة.

ولقد ذكر صاحب: "الحلية" عن وهيب بن الورد أنه قال: قال حكيم من الحكماء: "العبادة ــ أو قال: الحكمة ــ عشرة أجزاء: تسعة منها فى الصمت، والعاشرة عزلة الناس".

وأخرج ابن الضريس فى فضائل القرآن وأبو يعلى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): [**عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير، واخزن لسانك إلا من خير، فإنك بذلك تغلب الشيطان**].(٢)

وأخرج ابن أبى الدنيا، وابن عساكر، عن عقيل بن مدراك، أن رجلاً قال لأبى سعيد الخدرى: أوصني، قال: "عليك بالصمت إلا فى حق فإنك بذلك تغلب الشيطان".(٣)

وأخرج الحاكم، والبيهقى فى شعب الإيمان، والخرائطى فى مكارم الأخلاق عن أنس رضى الله عنه قال: "إن لقمان كان عند داود عليه السلام وهو يسرد الدرع فجعل يفتله هكذا بيده فجعل لقمان يتعجب ويريد أن يسأله، فلما فرغ منها ضمها على نفسه وقال: نعم درع الحرب هذه، فقال: لقمان إن الصمت من الحكمة وقليل فاعله، كنت أردت أن أسألك فسكت حتى كفيتني".(٤)

---

(١) هذا الحديث رواه البيهقى وابن حبان والحاكم وقالوا صحيح الإسناد.

(٢) رواه الطبرانى عن أبى سعيد وأيضاً رواه أحمد وأبو يعلى.

(٣) رواه ابن مبارك فى الزهد.

(٤) رواه البيهقى عن أنس بن مالك وهو صحيح الإسناد.

وقال أبو حاتم: الواجب على العاقل أن يكون ناطقاً كَعَى وعالماً كجاهل، وساكناً كناطق؛ لأن الكلام لابد له من الجواب والجواب لو جعل له جواب لم يكن للقول نهاية، وخرج المرء إلى ما ليس له غاية، والمتكلم لا يسلم من أن ينسب إليه الصلف* والتكلف، والصامت لا يليق به إلا الوقار وحسن السمت.

ولقد أحسن الذى قال:

حَتْفُ امرئ لسانه ∴ فى جِدِّه أو لعبه

بين اللها* مقتلهُ ∴ رُكِّب فى مركبه

وأخرج بن عدي، والبيهقي، والقضاعى فى مسند الشهاب عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال: **[الصمت حكم وقليل فاعله]**.(١)

كما أخرج أبو بكر بن المقرئ فى فوائده، عن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): **[الصمت حكمة وقليل فاعله]**.

وأخرج أحمد عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه سأل النبى (ﷺ)، عن أفضل الإيمان؟ فقال: "أن تحب لله، وتبغض لله، ويعمل لسانك فى ذكر الله عز وجل". قال: وماذا يا رسول الله؟ قال: "وأن تحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك، وأن تقول خيراً، أو تصمت".(٢)

ويربط أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بين الصمت والحياء واعظاً الأحنف بن قيس فيقول: "يا أحنف، مَنْ كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلَّ حياؤه، ومن قل حياؤه قلَّ ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه".

وأنشد الأبرش :

ما ذَلّ ذو صمت، وما من مكثر ∴ إلا يَزِلُ، وما يعاب صَمُوتُ

---

*الصلف: الكبر.

*اللها: جمع لهاة، وهى لحمة فى سقف الحلق، أى حتفه وهلاكه فى لسانه. وهو ما ينسب صلى الله عليه وسلم: "مقتل المرء بين كفيه.

(١) رواه ابن عدى فى الكامل، والبيهقى فى الشعب.

(٢) هذا الحديث صحيح الإسناد رواه أحمد عن مالك بن أنس.

إن كـــان مـــنطق ناطق من فضه ∴ فالصـــمت دُرٌّ زانـــه الـــياقوت

وأخرج ابن أبى الدنيا عن وهيب رضى الله عنه قال: قال عيسى بن مريم عليهما السلام:

"أربع لا يجتمعن فى أحد من الناس إلا بعجب: الصمت وهو أول العبادة، والتواضع لله، والزهادة فى الدنيا، وقلة الشيء".(١)

وكذلك أخرج ابن أبى الدنيا عن سفيان بن عيينة قال: قالوا لعيسى عليه السلام، دلنا على عمل ندخل به الجنة؟ قال: لا تنطقوا أبداً.

قالوا: لا نستطيع ذلك. قال: لا تنطقوا إلا بخير.(٢)

وأخرج ابن أبى الدنيا عن وهب بن منبه قوله:

"أجمعت الأطباء على أن رأس الطب الحمية*، وأجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت".

كما أخرج ابن أبى الدنيا، وابن عساكر، عن الأوزاعى قال: قال سليمان ابن داود، عليهما الصلاة والسلام: "إن كان الكلام من فضة، فالصمت من ذهب".(٣)

وأنشد رجل من ربيعة:

لعمـــرك مـــا شـــيء علمت مكانه ∴ أحـــق بســـجن مـــن لسان مذَلل
علـــى فـــيك مما ليس يعنيك شأنه ∴ بِقُفْـــلٍ وثـــيق ما استطعت فأقفلِ
فـــربَّ كـــلام قد جرى من مُمَازح ∴ فســـاق إلـــيه سَهْم حتف معجَل
وللصـــمت خـــيرٌ مـــن كلام بمأثم ∴ فكن صامتاً تسلم، وإن قلت فاعدل

---

(١) حديث رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب: "الصمت".

(٢) حديث صحيح رواه ابن أبى الدنيا.

*قوله: الحمية أى الوقاية.

(٣) رواه ابن أبى الدنيا بإسناد مقبول.

وقال أبو الدرداء: "كفى بك ظالماً أن لا تزال مخاصماً، وكفى بك آثماً أن لا تزال ممارياً، وكفى بك كاذباً أن لا تزال محدثاً، إلا حديثاً فى ذات الله تبارك وتعالى".[1]

كما قال كعب: "العافية عشرة أجزاء، تسعة منها فى السكوت".

وكذلك حدثنا يحيى القطان عن شعبه أنه قال: "من الناس من عقله بفنائه، ومنهم من عقله معه، ومنهم من لا عقل له، فأما الذى عقله معه فالذى يبصر ما يخرج منه قبل أن يتكلم، وأما الذى عقله بفنائه فالذى يبصر ما يخرج بعد أن يتكلم، ومنهم من لا عقل له.

وأخرج ابن أبى الدنيا عن عبد الله بن المبارك أنه سئل عن قول لقمان لابنه: إن الكلام من فضة فالصمت من ذهب، فقال عبد الله بن المبارك يقول لو كان الكلام لطاعة الله من فضة فإن الصمت عن معصية الله من ذهب.[2]

كما أخرج ابن أبى الدنيا، وابن عساكر، عن عبد الله بن حبيب، قال: إن داود النبى عليه السلام قال: "رب كلام قد ندمت عليه، ولم أندم على الصمت قط".[3]

وأخرج ابن أبى الدنيا عن وهيب بن الورد قال: "وجدت العزلة: سكوت اللسان".[4]

ومما رواه ابن أبى الدنيا عن سفيان أنه كان يقول: طول الصمت مفتاح العبادة.

وقال جريج: "لو أن عبداً اختار لنفسه، ما اختار شيئاً أفضل من الصمت.

وقد قيل: زين المرأة الحياء، وزين الحكيم الصمت.

(١) ابن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص: ٤٦.

(٢) حديث حسن رواه ابن أبى الدنيا.

(٣) رواه ابن أبى الدنيا ورجاله ثقات.

(٤) رواه ابن أبى الدنيا بإسناد صحيح.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي عبد الله الجرحي قال: سمعت بعض العلماء ممن قدم على عمر بن عبد العزيز يقول: الصامت على علم، كالمتكلم على علم.

فقال عمر: إني لأرجو أن يكون المتكلم على علم أفضلهما يوم القيامة حالاً، وذلك لأن منفعته للناس، وهذا صمته لنفسه.

قال: يا أمير المؤمنين، فكيف بفتنة المنطق؟

قال: فبكى عمر بكاءً شديداً.(١)

وأنشد البغدادي محمد بن عبد الله بن زنجي :

أنت من الصمت آمِنُ الزَّلَلِ ∴ ومن كثير الكلام في وَجَلِ

لا تقل القول ثم تُتْبعه ∴ يا ليت ما كنت قلتُ لم أقل

ويقول الأوزاعي: "ما بلى أحد في دينه ببلاء أضر عليه من طلاقة اللسان".

وقد قيل: "السكوت زين للعاقل، وشين للجاهل".

وقد ترك جماعة من أهل العلم حديث أقوام أكثروا الكلام فيما لا يليق بهم.(٢)

من ذلك: ما حدثنا به محمد بن الحسن بن مكرم بالبصرة حدثنا عمرو ابن علي حدثنا أمية بن خالد عن سعيد قال: قلت للحكم: مالَكَ لا تكتب عن زاذان؟ قال: كان كثير الكلام.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت وقوله بفتنة المنطق: أي الافتتان باللسان من ثرثرة وتفيهق وتكبر وغير ذلك.

(٢) ابن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص: ٤٦.

وقال أبو حاتم رضى الله عنه: لسان العاقل يكون وراء قلبه، فإذا أراد القول رجع إلى القلب، فإن كان له قال، وإلا فلا، والجاهل قلبه فى طرف لسانه، ما أتى على لسانه تكلم به، وما عَقَلَ دينه من لم يحفظ لسانه.(١)

واللسان إذا صلح تبين ذلك على الأعضاء، وإذا فسد فكذلك.

ولقد حكى سفيان عن رجل أنه قال: "إنى لأكذب الكذبة فأعرفها فى عملي".(٢)

وقال الأوزاعى عن يحيى بن كثير أنه قال: "ما صلح منطق رجل إلا عرف ذلك فى سائر عمله".

كما قال أبو حاتم: والعاقل لا يبتدئ الكلام إلا أن يسأل ولا يقول إلا لمن يقبل، ولا يجيب إذا شُوتم، ولا يجازى إذا أُسمع؛ لأن الابتداء بالصمت وإن كان حسناً، فإن السكوت عند القبيح أحسن منه.(٣)

وأنشد المنتصر بن بلال المنتصر الأنصاري:

الصمت عند القبيح يسمعه ∴ صاحبُ صدق لكل مصطحب

فآثر الصمت ما استطعت، فقد ∴ يُؤْثَرُ قول الحكيم فى الكتب

لو كان بعضُ الكلام من وَرِق ∴ لكان جُلَّ السكوت من ذهب

وعن أسير بن جابر قال: "ما رضعت عنزاً قط، ولو قلت: لا أرضعها خفت أن يصير بى البلاء إلى أن أرضعها، إن البلاء موكل بالقول".(٤)

وأخرج عبد الجبار الخولانى عن أبى مسلم الخولانى أنه قال: "نوم الصائم تسبيح، وأين الصائم إلا من لزم الصمت، وأقل من فضول الكلام".

---

(١) ابن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص: ٤٧.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٤) المصدر السابق، ص: ٤٧-٤٨.

وأخرج الشيرازى فى الألقاب عن عبد الله بن المبارك أنه قال:

اجتمع أربعة من العلماء عند بعض الملوك فقال: ليتكلم كل رجل منكم بكلمة خفيفة جامعة.

فقال **الأول**: إن أفضل علم العلماء السكوت.

وقال **الثاني**: إن أنفع الأشياء للرجل أن يعلم قدر منزلته، ومبلغ عقله، فيعمل، ويتكلم على قدر ذلك.

وقال **الثالث**: ليس بأحزم من أن لا تسكن إلى جارى نعمة ولا تطمئن إليه ولا تكلفه مؤنة.

وقال **الرابع**: ليس شيء بأروح على البدن من الرضا بالقضاء والقنوع.

وقد قيل: الصمت دعاء الأخيار.

كما قيل: الصمت رأس المروءة.

ويقال: كثرة الكلام تذهب الوقار.

والوقار إنما يعنى الهيبة والسكينة.

ولقد حذر الحق تبارك وتعالى من كثرة الكلام فقال: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾.(١)

وقد قيل أيضاً فى الصمت خصلتان: إحداهما: تفهم إذا أصاب الذى أمامكم. والأخري: وتصوب له إن أخطأ.

وأخرج ابن أبى الدنيا عن محمد بن عبد الوهاب السكرى أنه قال:

الصمت يجمع للرجل خصلتين: السلامة فى دينه والفهم عن صاحبه.(٢)

كما أخرج ابن أبى الدنيا، وأبو نعيم عن الفضيل بن عياض أنه قال:

---

(١) سورة: ق: الآية: ١٨.

(٢) خبر صحيح الإسناد رواه ابن أبى الدنيا.

"لا حج ولا جهاد ولا رباط أشدّ من حبس اللسان".(١)

وقوله: حبس اللسان: أى قلة الكلام وإمساك اللسان.

وأنشد الكريزي:

استر العِىَّ ما استطعت بصمت ∴ إن فى الصمت راحةً للصَّمُوت

واجعل الصمت إن عييت جواباً ∴ رب قول جوابه فى السكوت

وقال ابن مسعود رضى الله عنه: "والله الذى لا إله إلا هو، ما شيء أحق بطول سجن من لسان".(٢)

وقال أبو حاتم رضى الله عنه: العاقل يحفظ أحواله من ورود الخلل عليها فى الأوقات، وإن من عظم الخلل المفسد لصحة السرائر والمُذهب لصلاح الضمائر: الإكثار من الكلام، وإن أبيح له كثرة النطق، ولا سبيل للمرء إلى رعاية الصمت إلا بترك ما أبيح له من النطق.

وقد قيل: أن أحد أصحاب الربيع بن خيثم صحبه عشرين عاماً فلم يسمع منه كلمة عتاب.

وأخرج أبو نعيم عن وهب بن منبه أن رجلاً قال له: "إن الناس قد وقعوا فيما وقعوا فيه، وقد حدثت نفسى أن لا أخالطهم فقال: لا تفعل فإنه لابد للناس منك ولابد لك من الناس، لهم إليك حوائج، ولك إليهم حوائج، ولكن كن فيهم أصم سميعاً وأعمى بصيراً سكوتاً نطوقاً.

ولعله يريد بقوله: أصم سميعاً وأعمى بصيراً: أى لا تتكلم بكل ما تسمع وترى ولكن عليك أن تمسك لسانك حتى ولو رأيت وسمعت. فمن عد كلامه من عجلة، قل كلامه.

وأخرج أبو نعيم عن أبى بكر بن عياش قال:

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت.

(٢) ابن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص: ٤٨.

اجتمع أربعة ملوك، ملك الفرس، وملك الروم، وملك الهند، وملك الصين فتكلموا بأربع كلمات كأنما رمى بهن قوس واحدة.

فقال أحدهم: أنا على قول ما لم أقل أقدر منى على رد ما قلت.

وقال الآخر: الكلمة إذا قلتها ملكتني، وإذا لم أقلها ملكتها.

وقال الثالث: لا أندم على ما لم أقل، وقد أندم على ما قلت.

وقال الرابع: عجبت لمن يتكلم بالكلمة إن رجعت عليه ضرته، وإن لم ترجع عليه لم تنفعه.(١)

وأخرج ابن باكويه عن أبى الروذبارى أنه قال:

"الحكماء ورثوا الحكمة بالصمت والفكر، فأطلق الله ألسنتهم بما ليس بينهم وبين غيره".

كما أخرج ابن باكويه عن إبراهيم بن نعمة بن بشار أنه قال:

"اجتمعنا ذات يوم فما منا من أحد إلا تكلم بشيء إلا إبراهيم بن أدهم، فإنه ساكت فلما تفرق الناس عاتبه على ذلك. فقال: الكلام يظهر حمق الرجل، وعقل العاقل. قلت: فلم لا تتكلم؟ فقال: إذا اغتممت للسكوت أحب إلىَ من أن أندم للكلام".

وأخرج البيهقي، وابن عساكر، وابن باكويه، عن بشر بن الحارث رضى الله عنه أنه قال: الصبر هو الصمت، والصمت هو الصبر، ولا يكون المتكلم أورع من الصابر إلا رجل عالم يتكلم فى موضعه ويسكت فى موضعه.*

وأخرج ابن باكويه، عن أحمد بن خالد عن أبيه قال:

"أدنى نفع الصمت السلامة، وأدنى ضرر المنطق الندامة. والصمت عن ما لا يعنى أبلغ الحكم والناطق بغير".

(١) صحيح الإسناد ورواه ابن أبى الدنيا.

*قوله فى موضعه أى حينما يطلب منه ذلك. أى لا يتكلم إلا فى حق ونفع.

أى والناطق بغير علم سيكون من النادمين الخاسرين.

ويقول سهل: يصح الأدب بكماله فى هذه الخصال الأربع: التوبة، ومنع النفس من الشهوات، والصمت، والخلوة.

وكان سفيان بن عيينة يقول: لا يكون المؤمن مؤمناً حقاً حتى يطول صمته، ويحسن لفظه، ويقل كذبه، ويخلص ورعه.

ولقد قال إبراهيم بن أدهم: الحزم فى المجالسة أن يكون الكلام على قدر الضرورة والحاجة مخافة الذلل، وإذا أمرت فاحكم، وإذا سألت فأفصح، وإذا طلبت فأحسن، وإذا أخبرت فحقق، واحذر الإكثار والتخليط، فإن من كثر كلامه كثر سقطه. أى كثر خطؤه وخسرانه.

ومما رواه بشر بن الحارث أنه قال: كان ابن عون يسكت فقيل له: لم لا تتكلم؟ قال: أوَ ينجو صاحب الكلام؟!

ومعناها: أى هل ينجو صاحب الكلام؟

وهنا استفهام يقصد به النفى أى لا ينجو صاحب الكلام.

وأخرج ابن أبى الدنيا، والبيهقي، وابن عساكر، عن عبد الله بن أبى زكريا الدمشقى قال: "تعلمت الصمت مما لا يعننى عشرين سنة، فما بلغت منه ما أردت".(١)

وأخرج ابن سعد، وابن أبى الدنيا عن مورق العجلى قال:

"أمر أنا أطلبه منذ عشر سنين لم أقدر عليه، ولست بتارك طلبه. قالوا: ما هو؟ قال: الصمت عما لا يعنيني".(٢)

كما أخرج ابن أبى الدنيا عن يحيى بن أبى زكريا قال:

"خصلتان إذا رأيتهما فى الرجل فاعلم أن ما وراءهما خير منهما إذا كان حابساً للسانه محافظاً لصلاته".(٣)

---

(١) صحيح الإسناد ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) رواه ابن أبى الدنيا بإسناد صحيح. وقوله محافظاً لصلاته. أى محافظاً على صلاته ومؤدياً لها.

وأخرج ابن أبى الدنيا عن أبى سلمة الصنعانى قال:

"قلت المنطق حكم عظيم، فعليكم بالصمت، فإنه رعة حسنة، وقلة وزر، وخفة من الذنوب".[1]

وقال أبو الدرداء: "تعلموا الصمت كما تتعلمون الكلام، فإن الصمت حكم عظيم، وكن إلى أن تسمع أحرس منك إلى أن تتكلم، ولا تتكلم فى شىء لا يعنيك".

وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس بن مالك رضى الله عنه، قال: قال رسول الله (ﷺ): **[العبادة عشرة أجزاء: تسعة منها فى الصمت، والعاشرة كسب اليد من الحلال].**

كما أخرج الديلمى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): **[العافية عشرة أجزاء: تسعة منها فى الصمت، والعاشرة الاعتزال عن الناس].**

وفى التذكرة الحمدونية: قال على رضى الله عنه: "بكثرة الصمت تكون الهيبة".

كما قال: إذا تم العقل نقص الكلام.

وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه: "الكلام كالدواء، إن أقللت منه نفع، وإن أكثرت منه قتل".

وقال بعضهم: الصمت مفتاح السلامة.

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى:

أدبت نفسى فما وجدت لها ∴ من بعد تقوى الإله من أدب
فى كل حالاتها وإن قصرت ∴ أفضل من صمتها عن الكذب
وغيبة الناس إن غيبتهم ∴ حرمها ذو الجلال فى الكتب

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى الصمت بإسناد صحيح.

قلـــت لهــــا طائعـــاً وأكـــرهها ∴ الحلـــم والعلـــم زين ذى الحسن*
إن كـــان مـــن فضـــة كلامـــك يا ∴ نفـــس فـــإن السكوت من ذهب*

وقال المنصور بن إسماعيل الفقيه، أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان:

الخـــير أجمـــع فـــى الســـكوت ∴ وفـــــى ملازمـــــة البـــيوت
فــــــإذا تـــــــأتى ذاوذا ∴ لـــك فاقتـــنع بـــأقل قـــوت

وقال بعضهم فى ذلك:

قـــالوا: نـــراك تطـــيل الصـــمت قلـــت لهم
ما طول صمتى من عى ولا خرس*
الصـــمت أحمـــد فـــى الحاليـــن عاقـــبة*
عندى وأحسن بى من ذى منطق شكس*
قـــالوا: فأنـــت مصـــيب لســـت ذا خطـــأ
فقلـــت: هـــاتوا أرونى وجه مفترس
أأنشـــر الـــبز فيمـــن لـــيس يعـــرفه
أم أنـــثر الدر بين العمى فى الغلس*

وقد قيل: إنَّ أعظم الناس بلاء، وأدومهم عناء، وأطولهم سقام، من ابتلى بلسان مطلق، وفؤاد مطبق فهو لا يحسن أن ينطق، ولا يقدر أن يسكت أبداً.

وأنشدوا شعراً فى هذا المعنى:

أقلـــل كلامـــك واســـتعذ من شره ∴ إن الـــبلاء ببعضـــه مقـــرون

* أى الحلم والعلم هما أفضل زينة للإنسان العاقل.
* هذا البيت يجرى مجرى الحكمة حيث إن هناك حكمة تقول: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب.
* أى أننى كثير الصمت وذلك ليس بسبب مرض ولا خرس.
* أى الصمت أفضل فى كل الحالات والأوقات، قلت إلا الصمت عن الحق فيبقى الكلام.
* شكس: أى فاسد وباطل.
* الغلس: أى الظلام الشديد، والبز: نوع من الثياب الجميلة. ولعلها هنا البر بالراء.

واحفظ لسانك واستعذ من غيه ∴ حتى يكون كأنه مسجون
وكل فؤادك* باللسان وقل له ∴ إن الكلام عليكما موزون

وقال أبو الربيع السرقسطى رحمه الله تعالى:

عجبت لازدراء الفتى نفسه ∴ وصمت الذى قد كان بالقول أعلما
وفى الصمت ستر للعيى* وإنما ∴ فضيحة لب المرء أن يتكلما

وقال لآخر :

استر العى ما استطعت بصمت ∴ إن فى الصمت راحة للصموت
واجعل الصمت إن عييت جواباً ∴ رب قول جوابه السكوت*

وقال أبو النجم: هلال بن مقلد بن سعد المؤدب:

قالوا: سكوتك حرمان، فقلت لهم ∴ ما قدر الله يأتينى بلا طلب
ولو يكون كلامى حين أنشره ∴ من اللجين لكان الصمت من ذهب

وقال عبد الملك الشريشى أورده الفاكهى فى شرح الأربعين:

إذا ما اضطررت إلى كلمة ∴ فدعها، وباب السكوت أقصد
فلو كان نطقك من فضة ∴ لكان سكوتك من عسجد*

وقال آخر:

الصمت فالزم ولا تنطق بلا سبب ∴ إن المعلل بالإكثار فى تعب
وإن ظننت بأن القول من ورق* ∴ فاستيقن بأن الصمت من ذهب

---

*كل فؤادك: أى اجعل عقلك وكيلاً ورقيباً على لسانك ومنطقك.
*أى للغباء والجهل أو للعيوب.
*وقد ورد فى الأثر ويكفى بالمرء كذباً أن يتكلم بكل ما يسمع.
*العسجد: أى الذهب.
*ورِق: بفتح الواو وكسر الراء أى الفضة.

وقال أبو الحسن المروزى :

لعمـــرك إن الحلـــم زيـــن لأهلـــه ∴ ومـــا الحلـــم إلا عـــادة وتحلـــم

إذا لـــم يكن صمت الفتى من ندامة ∴ وعـــي* فإن الصمت أهدى وأسلم

وقد روى الأصمعى أنه قال: "بينما أنا أطوف بالبادية إذ أنا بأعرابية تمشى وحدها على بعير لها، فقلت: يا أمة الله من تطلبين؟ فقالت: من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، قال: فعلمت أنها قد أضلت أصحابها، فقلت لها: كأنك قد أضللت أصحابك؟ فقالت: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، فقلت لها، يا هذه من أين أنت؟ فقالت: ﴿سُبْحَانَ الَّذى أَسْرَى بِعَبْدِه لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذى بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، فعلمت أنها مقدسية، فقلت لها: كيف لا تتكلمين؟ فقالت: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْه رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، فقال بعض أصحابي: ينبغى أن تكون هذه من الخوارج؟، فقالت: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِه عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾، فبينما نحن نماشيها إذ رفعت لنا قباب وخيم، فقالت: وعلامات وبالنجم هم يهتدون، قال: فلم أفطن لقولها، فقلت ما تقولين؟ فقالت: وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال: يا بشرى هذا الغلام، قلت: بمن أصوت وبمن أدعو؟ فقالت: يا يحيى خذ الكتاب بقوة، ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ يا زكريا إنا نبشرك، ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض.

قال: فإذا نحن بثلاثة أولاد كالآلىء، فقالوا: أُمنا ورب الكعبة أضللناها منذ ثلاث، فقالت: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور، فأومأت إلى أحدهم فقالت: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِه إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة، فلينظر أيُها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه، فقلت: إنها أمرتهم أن يزورونا، فجاءوا بخبز وكعك، فقلت: لا حاجة لنا فى ذلك، فقلت للفتية: من هذه منكم؟ قالوا: هذه أمنا ما تكلمت منذ أربعين سنة إلا من كتاب الله مخافة الكذب، فدنوت منها، فقلت: يا أمـــة الله، أوصني، فقالت: ﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾.(١)

*العي: الجهل والمرض والخرس.

(١) ابن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص: ٤٩-٥٠.

وقال عبد الله بن المبارك:

الصـــــمت أزيـــــن للفــــتى ∴ مــن مــنطق فــى غــير حيــنه
والصــــدق أجمـــل بالفــــتى ∴ فــى القــول عــندى مــن مينه*
وعلــــى الفـــتى بوقــــاره ∴ ســمة تلــوح علــى جبيــنه*

وقال آخر :

أقلــل من القول تسلم من غوائله* ∴ وارض الســكوت تجافى الأرض

وفى كتاب: "لب الآداب"، قال أبو حاتم:

"طلب رجلان العلم، فلما علما صمت أحدهما، وتكلم الآخر، فكتب المتكلم إلى الصامت:

ومـــا شـــىء أردت بـــه اكتســـابا ∴ بـــأجمع فـــى المعيشة من لسان

فكتب الصامت إليه :

ومـــا شـــىء أردت بـــه كمـــالا ∴ أحـــق بطـــول ســـجن من لسان

وقال سفيان بن عيينه:

خــــل جنبــــيك لــــرام ∴ وامـــض عــــنه بســــلام
مــت بــداء الصــمت* خــير ∴ لـــك مـــن داء الكـــلام
إنمـــا الســـالم مـــن ألــــ ∴ جـــم فـــاه بلجـــام

وقال إبراهيم بن هرمة:

أرى الناس فى أمر سجيل فلا تزل ∴ على حذر حتى ترى الأمر مبرما

*مينة: أى كذبة.
*سمة تلوح: أى علامة ترفرف وتظهر.
*مصائبه ودواهيه، ومفردها: غائلة.
*أى فارق الحياة بمرض الصمت، ومت أصلها: موت، وحذفت الواو لعدم إلتقاء الساكنين فى حرف العلة الواو والتاء المجزومة بسبب الأمر.

فـإنك لا تسـطيع رد الذى مضى ∴ ذا القـول عن زلاته فارق الفما*
فكائـن ترى من وافر العرض صامتا ∴ وآخـر أردى* نفسـه إن تكلمـا

وقال آخر :

قـد يخـزن* الـورع التقى لسانه ∴ حـذر الكـلام وإنـه لمفـوه*

وقال أبو العتاهية :

قـد أفلـح السـاكت الصـموت ∴ كـلام كـراعى الكـلام قـوت
مـا كـل نطـق لـه جـواب ∴ جـواب مـا تكـره السـكوت

وقال أيضاً :

لا خـير فـى حشـو الكـلا ∴ م إذا اهتديـت إلـى عـيونه
والصـمت أجمـل بالفـتى ∴ مـن مـنطق فـى غـير حيـنه

وقال آخر :

سـامح الـناس ودع عـر ∴ ضـك وقفـاً للسـبيل
وأعـر سـمعك وقـراً ∴ عـند إكـثار العـذول
والـزم الصـمت إذ خفـ ∴ ت بنـيات الفضـول
فلـزوم الصـمت خـير ∴ لـك مـن قـال وقـيل

وقال آخر :

مـتى تطـبق علـى شفتيك تسلم ∴ وإن تفـتحهما فقـل الصـوابا
فمـا أحـد يطـيل الصـمت إلا ∴ سـيأمن أن يـذم وأن يعابـا

*أى لا تستطيع رد وإرجاع الخطأ الذى خرج من اللسان.
*أردى: أى أهلك.
*يخزن: أى يمسك ويسجن.
*أى مع قدرته على النطق به، ومفوه أى المتكلم وليس بعاجز.

فقــل خــيراً أو اســكت عن كثير ∴ مــن القــول المحــك بك العقابا

وقال آخر :

انطــق مصــيباً* لا تكــن هــذراً ∴ عــيابه* ناطقــاً بالفحش والريب

وكــن رزيناً طويل الصمت ذا فكر ∴ فــإن نطقت فلا تكثر من الخطب

ولا تجــب سائلا من غير تروية* ∴ وبــالذى عــنه لم تسأل فلم تجب

وقال أحيحة بن الجلاح :

والصــــمت أجمـــل بالفتـــي ∴ مــا لــم يكــن عــى يشــينه

والقـــــول ذو خطـــــل* إذا ∴ مــا لــم يكــن لــب يعيــنه

وقال عبد الله بن معاوية بن جعفر :

أيهــا المــرء لا تقولــن قــولاً ∴ لســت تــدرى مــاذا يعنيك منه

والزم الصمت إن فى الصمت حكما ∴ وإذا أنــت قلــت قــولاً فــزنه

وإذا القــوم ألغطــوا فــى الكــلام ∴ لســت تعــنى بشــأنه فاله عنه*

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن أحمد بن الحسن العوفى قال: سمعت أبا العتاهية ينشد هذه الأبيات :

إن كان يعجبك السكوت فإنه ∴ قــد كــان يعجــب قبلك الأخيارا

ولئن ندمت على سكوت مرة ∴ فلتندمــن علــى الكــلام مــرارا

إن الســكوت ســلامة ولربما ∴ زرع الكــلام عــداوة وضــرارا

وإذا تقــرب خاسر من خاسر ∴ زادا بــذاك خســارة وتــبارا*

---

*فلا تتكلم إلا فيما فيه فائدة ومعنى.

*أى فلا تكن كثير العيب والثرثرة.

*أى هدوءاً وتفكراً.

*ذو خطل: أى ذو خطل وفحش وبعد عن الصواب.

*أى فانصرف عنه وانشغل.

*تباراً: أى هلاكاً ودمارا.

وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن عساكر في تاريخه عن إبراهيم بن عبلة أنه قال :

لسانك ما بخلت به مصون ∴ فلا تهمله ليس له قيود
وسكن بالصمات خبيء صدر ∴ كما يخبا الزبرجد والفريد
فإنك لن ترد الدهر قولاً ∴ نطقت به وأندية قعود
كما لم ترتجع مسقاة ماء ∴ ولم يرتد في الرحم الوليد

وقال آخر :

من لزم الصمت اكتسى هيبة ∴ تخفي على الناس مساويه
لسان من يعقل في قلبه ∴ وقلب من يجهل في فيه*

وقال آخر وأجاد ووفى بالمراد :

مهلا سليمى أقلي اللوم أوفلمى ∴ من أقعدته صروف الدهر لم يقم
حظي يقصر بي عن كل مكرمة ∴ ولا تقصر بي عن نيلها هممي
سألزم الصمت مادام الزمان كذا ∴ وأمنع الدهر من نطق اللسان فمي
إن لامني لائم في الصمت قلت له ∴ حبس الفتى نطقه حرز من الندم*

فالواجب على العاقل أن يروض نفسه على ترك ما أبيح له من النطق، لئلا يقع في المزجورات، فيكون حَتْفُه فيما يخرج منه؛ لأن الكلام إذا كثر منه أورث صاحبه التلذذ بضد الطاعات، فإذا لم يوفق العبد لاستعمال اللسان فيما يُجْدِي عليه نفعه في الآخرة، كان وجوب الإمساك عن السوء أولى به.

وأنشد المنتصر بن بلال الأنصاري:

ولن يَهْلِكَ الإنسانُ إلا إذا أتى ∴ من الأمر ما لم يرضهُ نصحاؤه
وأقلل إذا ما قلت قولاً، فإنه ∴ إذا قَلَّ قولُ المرء قلَّ خطاؤه

---

*أي العاقل يفكر بعقله أولاً. فعقله يسبق لسانه. أما الجاهل فلسانه سبق عقله.

*أي منع الفتى لسانه من النطق احترازا من الندم.

ومما روى عن مؤرق العجلى أنه قال: "أمرُ أنا فى طلبه منذ عشر سنين، ولست بتارك طلبه: قال: وما هو يا أبا المعتمر؟ قال: الصمت عما لا يعنيني".

ولقد قال إبراهيم بن رستم سمعت خارجة يقول: "صحبت عبد الله بن عون خمس عشرة سنة فما أظن الملائكة كتبت عليه شيئاً".(١)

ويقول الإمام على رضى الله عنه: تلافيك* ما فرطت من صمتك أيسر من إدراكك ما فات من منطقك.(٢)

كما قال: فى الصمت السلامة من الندامة.

وفى الخبر العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنة قائمة، ولا أدرى.

وعن الشعبى أنه قال: لا أدرى نصف العلم يعنى أنه من الورع.

وكان الثورى يقول: إنما العلم الرخصة من ثقة فأما التشديد فكل أحد يحسنه يعنى أن التورع والتوقف فى الأمور هو سيرة المؤمنين وإن لم يكونوا علماء لأن الورع هو الجبن عن الإقدام والهجوم على الشبهات والوقوف عند المشكلات بسكون أو سكوت.(٣)

فلذلك كان قول لا أدرى نصف العلم ولأن حسن ما سكت لأجل الله تعالى تورعاً كحسن من نطق لأجله تعالى بالعلم تبرعاً.

وقال المهدى لسفيان بن الحسين لما دخل عليه وكان أحد العلماء: أمن العلماء أنت؟ فسكت. فأعاد عليه. فسكت. فقيل: ألا تجيب يا أمير المؤمنين؟ فقال: يسألنى عن مسألة لا جواب لها إن قلت لست بعالم وقد قرأت كتاب الله تعالى كنت كاذباً وإن قلت إنى عالم كنت جاهلاً.

---

(١) ابن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص: ٥٠-٥١.

*أى تداركك.

(٢) ابن سلامة القطاعي: دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم، ص: ١٨.

(٣) أبو طالب المكى: قوت القلوب، ج١، ص: ١٣٦.

واعلم أن من عمل بعلم أو نطق به فأصاب الحقيقة عند الله تعالى فله أجران: أجر التوفيق، وأجر العمل. وهذا مقام العارفين. ومن نطق بجهل أو عمل به وأخطأ الحقيقة فعليه وزران، وهذا مقام الجهال. ومن قال وعمل بعلمه وأخطأ الحقيقة فله أجر لأجل العلم. وهذا مقام علماء الظاهر. ومن قال بجهل أو عمل عملاً وأصاب الحقيقة فعليه وزر لتركه طلب العلم. وهذا مقام جهلة العابدين.

وقال أبو حفص: صمت العوام بلسانهم وصمت العارفين بقلوبهم وصمت المحبين من خواطر أسرارهم.

كما قال: لو سكت لسانك لم تنج من كلام قلبك.

ومما ينبغى أن يفهم أنه لا تصح العزلة والخلوة لأحد حتى يلزم نفسه الصمت أولاً.

واعلم أن الصمت إنما يكون عما لا ينبغى من الباطل وأما الحق فمن سكت عنه فإنه منافق مراء.

قال أبو على الدقاق: من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس.

وقد قيل: الساكت عن الحق كالناطق بالباطل. وربما يقع السكوت على المتكلم لأن فى القوم من هو أولى بالكلام. وقد يقع السكوت على المتكلم لكونه يكون بحضرة من ليس من أهل استماع ذلك الكلام لكونه لا يتأثر بالحقائق ولا بسماع الحكم والمواعظ فيصون ذلك الكلام عن غير أهله.

قال الشاعر :

لقد أسمعت لو ناديت حيا ∴ ولكن لا حياة لمن تنادي

والصمت من أدب الحضرة فالمتوجه إلى الله تعالى بالعبادة فى حضرة الله تعالى فيجب عليه سلوك الأدب فلا ينطق بما لا يحسن من القول. والصمت باللسان يكون بحبسه عن الكلام بما لا فائدة فيه. والصمت أن لا يجرى على قلبه شيئاً بما لا ينبغى النطق به ولا يجول فيه فكره ولا يحدث به نفسه، وإنما آثر أرباب المجاهدات الصمت والسكوت عن الكلام بما لا فائدة فيه لأنهم

علموا بما فى الكلام من الآفات منها الوقوع فى الغيبة والنميمة*، ومنها الوقوع فى المدح والإطراء لمن لا يستحق المدح من الظلمة وأبناء الدنيا، ومنها إقامة حظوظ النفس بالتشدق بالكلام فى العلم والتزين بإظهار الفصاحة وتحسين النطق إلى غير ذلك من الآفات والصمت والسكوت حال العارفين الواصلين.

قال ابن أبى هالة: كان النبى (ﷺ) متواصل الأحزان دائم الصمت. وفى رواية: دائم الفكر إذا تكلم تكلم بجوامع الكلم (ﷺ).(١)

وقال (ﷺ): **[من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه]**.(٢)

وبهذا الإسناد قال السراج: سمعت يحيى بن أبى طالب يقول: سمعت يعقوب ابن "أخ معروف" يقول: سمعت عمي يقول: "كلام فيما لا يعنيه خذلان من الله تعالى".

إن كلام الحكماء إذا كان صواباً كان دواءً، وإن كان خطأً كان داءً.

وإذا أراد الله بلاء أمة أكثر من كلامها وقلل من عملها.

من علامات المؤمن الفقه والحلم والحياء والصمت. إن الصمت باب من أبواب الحكمة، وإنه ليكسب المحبة ويوجب السلامة وراحة للكرام الكاتبين وإنه لدليل على كل خير.

وقد قال سعد بن أبى وقاص: والله لوددت أن بينى وبين الناس باباً من حديد لا يكلمنى أحد ولا أكلمه حتى ألحق بالله تعالى.

وقال ابن مسعود لأصحابه: كونوا ينابيع العلم مصابيح الليل أحلاس البيوت جدد القلوب خلقان الثياب، تعرفون فى أهل السماء وتخفون على أهل الأرض.

---

* من أراد زيادة فى هذا الموضوع فليراجع: آفات اللسان فى جزء آخر من هذا البحث تحت عنوان "النهى عن الغيبة والأمر بحفظ اللسان". وكذلك: "النميمة، وهى نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد".

(١) عماد الدين الأموي: حياة القلوب، هامش قوت القلوب لأبى طالب المكي، ج٢، ص: ٢٤٩-٢٥٣.

(٢) حديث حسن رواه الترمذى وابن ماجه.

وقال أبو الدرداء: نعم صومعة الرجل بيته يكف فيها بصره ولسانه، وإياكم والسوق فإنها تلهى وتلغي.

وقال ابن عباس رضى الله عنه: لولا مخافة الوسواس لرحلت إلى بلاد لا أنيس بها، وهل يفسد الناس إلا الناس.

وكان أبو جهم الأنصارى لا يجالس الناس وكان يعتزل فى بيته، فقالوا له: لو جالست الناس وجالسوك؟ فقال: وجدت مقاربة الناس شراً.

وقال أبو حنيفة: والله لوددت أن لى إنساناً يكون فى مالى ثم أغلق عليّ باباً فلا يدخل عليّ أحد حتى ألحق بالله عز وجل.

وقال الحسن: صوامع المؤمنين بيوتهم.

وقال سعيد بن المسيب وابن سيرين: العزلة عبادة.

وقال عمر بن عبد العزيز: إذا رأيتم الرجل يطيل الصمت ويهرب من الناس فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة.(١)

وأوصى سفيان الثورى بعض أصحابه فقال: إن استطعت أن لا تخالط فى زمانك هذا أحداً فافعل: وليكن همك مَرَمَّة جهازك.

وكان يقول: هذا زمان السكوت ولزوم البيوت.

وجاء رجل إلى الفضيل بن عياض فجلس إليه فقال: ما أجلسك إليّ؟ فقال: رأيتك وحدك. فقال: إما أن تقوم عنى وإما أن أقوم عنك. فقال: أنا أقوم أوصني. فقال: أخْفِ مكانك واحفظ لسانك.

وقد قال شعيب بن حرب: الناس ثلاثة: رجل تعلمه فيقبل منك، ورجل تتعلم منه، واهرب من الثالث.

وعن عبد الله بن سعيد بن أبى عاصم قال: سمعت وهب بن منبه يقول: إن رجلاً سأل النبى (ﷺ) فقال: **[يا رسول الله! ما أفضل الأعمال ؟ قال: قيم الدين**

---

(١) ابن الجوزي: التبصرة، وثق نصوصه وحقق أصوله طه عبد الرءوف سعد، عمرو أحمد عطوة (الإسكندرية: دار ابن خلدون، سنة ١٩٩٥م) ج٢، ص: ٣١٢.

الصلاة، وسنام العمل الجهاد فى سبيل الله، وأفضل أخلاق الإسلام الصمت حتى يسلم الناس منك].

ومما يروى عن أبى سعيد الخدرى أن رجل أتاه وقال: أوصنى يا أبا سعيد! فقال له يا أبو سعيد: سألت عما سألت عنه من قبلك، قال: أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شىء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله، وتلاوة القرآن فإنه روحك فى أهل السماء، وذكرك فى أهل الأرض، وعليك بالصمت إلا فى حق فإنك به تغلب الشيطان.(١)

ومن المهم أن نؤكد أن السلف الصالح نهوا عن الخوض فى الكلام، ولقد كان نهيهم لأمر عظيم، وهو أن الإنسان يريد أن ينظر ما لا يقوى عليه بصره، فربما تحير فخرج إلى الحجب. لأنا إذا نظرنا فى ذات الخالق حار العقل وبهت الحس، فهو لا يعرف شيئاً لا بداية له. إنه لا يعلم إلا الجسم والجوهر والعرض، فإثبات ما يخرج عن ذاك لا يفهمه.

وإن نظرنا فى أفعاله رأيناه يحكم البناء ثم ينقضه ولا تطلع على تلك الحكمة.

فالأولى بالعاقل أن يكف التطلع إلى ما لا يليق النظر إليه.

ومتى قام العقل فنظر فى دليل وجود الخالق بمصنوعاته، وأجاز بعثه نبى واستدل بمعجزاته، كفاه ذلك أن يتعرض لما قد أغنى عنه.

وإذا قال القرآن كلام الله تعالى بدليل قوله: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ﴾(٢) كفاه.

وأما من تحذلق فقال: التلاوة هى المتلو أو غير المتلو، والقراءة هى المقروء أو غير المقروء، فيضيع الزمان فى غير تحصيل، والمقصود العمل بما فهم.

وقد حكى أن ملكاً كتب إلى عماله فى البلدان إنى قادم عليكم فاعملوا كذا وكذا، فعملوا إلا واحداً منهم. فإنه قعد يتفكر فى الكتاب فيقول: أترى كتبه بمداد

(١) عبد الله بن مبارك: الزهد والرقائق، ص: ٢٨٩.
(٢) سورة التوبة: الآية: ٦.

أو بحبر؟ أترى كتبه قائماً أو قاعداً؟ فمازال يتفكر حتى قدم الملك ولم يعمل مما أمره به شيئاً. فأحسن جوائز الكل وقتل هذا.(١)

ونسوق هنا نصاً رائعاً يقال فيه: "الصمت سلم الخلاص. والنطق حبس الهزار فى الأقفاص. فلا تفتخر بدقائق الكلم وشقاشقها*. ولا تكترث بفضول الألسن ورواشقها. فإن لسان الشمعة يضحكه. وعن قليل يهلكه. ولن تعرف سر السكوت إلا بإدمان السكوت. والحكيم المصقع أبتر. والفصيح المكثار عنتر* يتغنى ويتعنى.

ولقد قيل: النطق داعية التلف. والخرس واقية الصدف. واللفظ شين المحافل، والجرس آفة القوافل. وخير القسى الكتوم. وخير الشراب المختوم، ورنين القسى يطرد الطباء. ووسواس الحلى يوقظ الرقباء. لا تحسد الفصحاء فسيخرسهم الموت راغمين. "وعما قليل ليصبحن نادمين".(٢)

ونعود هنا لإعطاء مزيد من التفصيل فى نص آخر يقول فيه صاحب: "أطباق الذهب":

"خلق الله الآفة وجعل النطق مثارها. وقدر السلامة وجعل الصمت مدارها. وفرسان الكلام يوم القيامة مشاة، والمتجملون بزخارف العبارة عراة. والحكماء بكم والصمت حكم. ومن عرف الله جل جلاله قل مقاله. وفرق بين النطق والسكوت. كما بين الضفدع والحوت. وعندى أن منقصة الخرس خير من صلصلة الجرس. وسيأتى يوم يندم فيه الفصيح والطير الذى يصيح. فما اللسان إلا سبع صؤول فقيّده، وسيف مصقول فاغمده. وهبك تنطق عن شدق شق*. أو ترمى عن قوس قس*. فهل ينفعك هذا القوس عند النزع. أو يغنى هذا

---

(١) ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص: ٣١٧-٣١٨.

* الشقاشق جمع شقشقة وهى ما خرجه البعير من فيه إذا هاج. والمراد بها ارتجال الخطب.

*العنتر: الأحمق.

(٢) شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله: أطباق الذهب، ص: ٦٩-٧٠.

*الشدق جانب الفم، وشق اسم كاهن كان مشهوراً.

*قس بن ساعدة الأيادى من زعماء العرب المشهورين بالبلاغة.

النضال يوم الروع. والله لو كان سحبان* عاقلاً لتمنى أن يكون باقلاً*. فقل لمن يحاول تشقيق* الكلام. ويخمر من حصائد الألسنة دقيق الكلام. ستخمد جمرتك. يوم يحشر الأموات من الأكفان فلا يرون فيها شمساً. وتسكن زفرتك حين "خشعت أصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً*".(١)

كما قال الفضيل رحمه الله إذا قيل لك أتحب الله فاسكت، فإنك إن قلت لا كفرت وإن قلت نعم فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت.(٢)

وقد قيل: أصل العبادة على ثلاثة أركان: العين، والقلب، واللسان. فالعين عبرة، والقلب فكرة، واللسان بالصدق والتسبيح والذكر.(٣)

قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا﴾.(٤)

كما قال عبد الله بن مبارك: "من صدق لسانه سلم من التبعات".

وقد جاء في الأثر أن الله لا يعذر على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله، ولا يحل للعالم أن يسكت عن علمه. وقد أمر الجاهل بسؤال العالم، وأمر العالم بحسن الرد على الجاهل فقال للجاهل: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (٥).

وقال للعالم: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾(٦). يعني إذا جاءك متعلماً فلا تزجره.(٧)

---

*سحبان بن زفر الوائلي كان من خطباء العرب يضربون به المثل في الفصاحة والبيان.

* باقل كان مشهوراً بالعي والفهاهة. ومن ذلك أنه اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً فسئل عن ثمنه ففتح كفيه وفرق أصابعها العشرة وأخرج لسانه يشير بذلك إلى أحد عشر، فانفلت الظبي من يده فضرب به المثل في العي.

*تشقيق الكلام: إخراجه أحسن مخرج.

*الهمس: الصوت الخفي.

(١) شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله: أطباق الذهب، ص: ٨٤.

(٢) الغزالي، أبو حامد: مكاشفة القلوب، قدمه محمد رشيد القباني، راجعه بهيج غزاوي (القاهرة: مكتبة الزهراء، ط١، سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص: ٥٤.

(٣) المصدر السابق، ص: ٥٥.

(٤) سورة الأحزاب: الآيتان: ٤١-٤٢.

(٥) سورة: النحل: الآية : ٤٣.

(٦) سورة: الضحى الآية: ١٠

(٧) أبو طالب المكي: علم القلوب، ص: ٥٧.

فيا أخي إذا كان كلامك كلام السفهاء وفعالك فعال الجهال؛ وسكوتك سكوت أهل الغفلة، فما ينفعك ما جمعت من طرائف العلم وحكمة الحكماء.

يا أخي: ليس العالم المتكلم الواصف إنما العالم الحذر الخائف. ليس العالم من جلس على الكراسى إنما العالم من اجتنب المعاصي. ليس العالم من صاح فى المحافل إنما العالم من عرف دقائق الشبهات والنوازل. ليس العالم بكثرة الكلام وإنما العالم الذى أسكته إجلال الملك العلام.

وقال أبو طالب المكي: إن من علامة علم الآخرة ألا يكون محباً للدنيا ولا جريئاً على الفتيا. ولاذا شهوة فى كثرة الكلام. كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من السكوت وفى الكلام تنميق لا زيادة. وفى السكوت سلامة وعلم.

وقال الحسن البصري: يستدل على قلة صدق الرجل بكثرة كلامه.

وقيل: الصمت زين العالم وستر الجاهل، وكثرة الكلام تفضح الجاهل، وتذهب ببهاء العالم.

ومما يروى عن أبى طالب المكى أنه قال: كان التورع عن جواب المسائل والسكوت عن كثير من العلوم طلباً للسلامة معروفاً وذلك فى الصحابة وخيار التابعين وصالحى السلف.

كما جاء فى الأثر عن ابن مسعود رضى الله عنه: من أفتى الناس فى كل ما يشتهونه فهو مجنون.(١)

وكان ابن عمر رضى الله عنهما إذا سئل عن عشر مسائل أجاب عن واحدة.

كما كان ابن عباس رضى الله عنهما: إذا سئل عن عشر مسائل أجاب عن واحدة وسكت عن تسع.

---

(١) أبو طالب المكى: علم القلوب، ص: ٧٧

وقال أبو محمد سهل: العالم هو الذى يقعد فيسكت. ويرفع قلبه إلى مولاه فيفتقر إليه فى حسن توفيقه ويسأله أن يلهمه الصواب. وأى شىء سئل عنه تكلم فيه بما فتح له مولاه.

وكان أنس بن مالك رضى الله عنه إذا سئل عن شىء يقول: سلوا مولانا الحسن فإنه حفظ ونسينا.

وقد جاء فى الأثر: كانت المسألة من العلم يسأل عنها الرجل من الصحابة. فيردها إلى آخر ويردها الآخر إلى الآخر حتى ترجع إلى الذى سئل عنها أولاً.

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا سئل عن مسألة جمع الصحابة. فبدأ بأهل بدر ثم المهاجرين والأنصار فإذا لم يجد الجواب منهم وعندهم التفت إلى ابن عباس رضى الله عنهما وقال: غص ياغواص. يعنى استنبط من القرآن.

واختلف قوم إلى ابن مسعود ثلاثين يوماً فى مسألة فلم يجبهم عن ذلك ثم قال: أجيب فيها برأيى فإن كان صواباً فمن الله وإن خطأ فمنى ومن الشيطان. والله ورسوله برىء من ذلك.

وقال جماعة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه إذا كان العلم عند من لا يعمل به، والسلاح عند من لا يقاتل به، والمال عند من لا ينفقه. والرأى عند من لا يقبل عنه، قال: ضاعت الأمور.

وقال الأحنف بن قيس: كنت أطلب العلم عند مالك بن أنس وأطلب الحلم عند قيس بن عاصم. ولقد حضرت يوماً عنده فإذا نحن بجماعة ومنهم مقتول ومكتوف فوقفوا بين يديه فقالوا: هذا ابنك قتله ابن أخيك فوالله ما حل حبوته* حتى قال لابن له: قم فحل وثاق ابن عمك ووار أخاك وسق مائة من الإبل إلى أمه فإنها غريبة. ثم التفت إلى ابن أخيه فقال: قتلت قرابتك ونقصت عددك، وأذهبت عزك، وقطعت رحمك، فلا أبعد الله غيرك.

* يقال: احتبى الرجل إذا جمع ظهره وساقه بعمامته. وقد يحتبى بيده والاسم الحبوة. والجمع حبى.

واعلم أن الكلام ينقسم إلى سبعة أقسام العلم منه قسم واحد وسائر الستة لغو مطروح يلتقطه من لا يعرفه ومن لا يفرق بين العالم والجاهل. ولا يميز بين العلم والكلام. والعرب تقول لكل ساقطة لاقطة. ولكل قائلة ناقلة.(١)

وقال الجنيد: العلم هو أن تعرف قدرك كما هو وما هو؟

قيل لجعفر الصادق رضى الله عنه: يا ابن رسول الله ما بال الناس منهم من إذا كلمته يستدل بأول كلامه إلى لآخره ثم يحييك، ومنهم إذا كلمته يقول أعد عليّ. قال جعفر: اعلم أن الله قسم العقل على ثلاثة أجزاء: فمن الناس من ابتدئ بالعقل قبل خلقته، فهذا الذى يستدل بأول الكلام على آخره ثم يجيب، ومنهم من عجز عقله بالنطفة التى خلقهم منها، فهو الذى يصمت على ما يستغرق فى الكلام، ثم يجيب، ومنهم من ركب فيه العقل بعد كمال خلقته، فهو الذى إذا كلمته يقول: أعد عليّ.

وروى ابن أبى الدنيا والبيهقى مرسلاً بإرسال جيد عن مالك بن دينار عن الحسن رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة ما أراد بها؟"، فكان مالك إذا حدث بهذا الحديث بكى ثم يقول: تحسبون أن عينى تقر بكلامي، وأنا أعلم أن الله عز وجل سائلى عنه يوم القيامة: ما أردت به؟ فأقول: أنت الشهيد على قلبي، لو لم أعلم أنه أحب إليك، لم أقرأ به على اثنين أبداً.

وفرق كبير بين داعية يتكلم بلسانه وهو متصنع بالكلام ليسبى به قلوب الرجال، وبين داعية مؤمن مخلص مكلوم القلب على الإسلام يتكلم بنبضات قلبه، ولواعج حزنه وأساه، لما آل إليه حال المسلمين! فلا شك أن تأثير الثانى أبلغ، والاستجابة إليه أقوى، والاتعاظ بكلامه أعظم!!

ومما يروى أن عمر بن ذر قال لأبيه: يا أبت: مالك إذا تكلمت أبكيت الناس، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم؟ فقال: يا بني، ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة.

---

(١) أبو طالب المكى: علم القلوب، ص: ٧٧-٧٨.

كما روى أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): **[من تعلم صرف الكلام ليسبى به قلوب الرجال لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلاً].**(١)

وسئل حكيم عن العاقل فقال له علامات يعرف بها وهى أن يتجاوز عن ذنب من ظلمه وأن يتواضع لمن دونه وأن يسابق إلى فعل الخير وأن يذكر ربه دائماً وأن يتكلم عن العلم وأن يعلم منفعة الكلام فى موضعه، وإذا وقع فى شدة التجأ إلى الله.

وقيل لبزرجمهر: أى شىء أستر للعي؟ قال: العقل. قالوا: فإن لم يكن له عقل؟ قال: فمال. قالوا: فإن لم يكن له مال؟ قال: فإخوان يعبرون عنه. قالوا: فإن لم يكن له إخوان؟ قال: يجلس صامتاً.

وقال الشاعر:

ومـــا حسن الرجال لهم بزين ∴ إذا لـــم يســـعد الحســـن البـيان

كفـــى بالمـــرء عيباً أن تراه ∴ لـــه وجـــه ولـــيس لـــه لســـان

وكان عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر عالماً جليلاً، وخطيباً مفوهاً، وشاعراً مجيداً كتب إلى بعض إخوانه:

أما بعد: فقد عاقنى الشك فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك، وذلك أنك ابتدأتنى بلطف عن غير خبرة، ثم أعطيتنى جفاء، من غير جريرة، فأطعمنى أولك فى إخائك، وأيأسنى آخرك عن وفائك، فلا أنا فى غير الرجاء مجمع لك أطراحاً، ولا أنا فى عدم انتظاره منك على ثقة، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الشك فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك، فاجتمعنا على ائتلاف أو افترقنا على اختلاف، والسلام.

ولقد وصف ابن المقفع صديقاً له، فكان مما وصفه به قوله: كان لى أخ أعظم الناس فى عيني، وكان رأس ما عظمه فى عينى صغر الدنيا فى عينه.

---

(١) الصرف: النوبة، والعدل: الفدية.

وكان لا يتأثر عند نعمة، ولا يستكين عند مصيبة. وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يتكلم إلا بما لا يعلم، ولا يمارى فيما علم. وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بز العائلين. وكان لا يلوم أحداً فيما يكون العذر فى مثله حتى يعلم ما عذره. وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده البرء، ولا يستشير صاحباً إلا أن يرجو عنده النصيحة. وكان لا يتبرم ولا يتسخط، ولا يشتكى ولا يشتهي، ولا ينتقم من العدو، ولا يغفل عن الولي، ولا يخص نفسه بشيء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوته. فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها ولن تطيق، ولكن أخذْ القليل، خير من ترك الجميع.[1]

أرأيت إنساناً تجمعت فيه تلك الصفات المحمودة، والسجايا الكريمة، إلا أن يكون مرضياً عنه من الله كل الرضا؟ أرأيت إنساناً لا يزال ولا تكون له هفوة، إلا أن يكون ملكاً كريماً أو نبياً مرسلاً؟

وصدق ابن المقفع حين قال: "فعليك بهذه الأخلاق ما استطعت، ولن تستطيع". وحسب المرء أن تكون هفواته بحيث يمكن عدها، فلا تجاوز الحصر.

ومــن ذا الذى تُرضى سجاياه كلها ∴ كفى المرءُ نبلاً أن تعد معايبه[2]

ومن مأثور القول ما حكى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال لعامر بن مرة الزهري: من أحمق الناس؟ فقال: من ظن أنه أعقل الناس. قال: صدقت. فمن أعقل الناس؟ قال: من لم يتجاوز الصمت فى عقوبة الجهال.

وحكى عن الأحنف بن قيس، أنه قال: ما عادانى أحد قط، إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث خصال: إن كان أعلى مني، عرفت له قدره، وإن كان دوني، رفعت قدرى عليه، وإن كان نظيرى تفضلت عليه.

وقال الشعبي: ما أدركت أمي، فأبرها، ولكن لا أسب أحداً، فيسبها.

---

(١) عبد الرحمن الضبع: الأنابيش، ج٢، ص: ١٩.

(٢) المرجع السابق، ص: ٢٠.

ومما ينبغى أن يفهم عن الحمق أنه داء ماله دواء، هكذا قال شاعر قديم، وقوله حق، وأقبح الحمق، هو الذى يعنف بصاحبه، ويستبد به، فيسلبه عقله وتفكيره، ويملك عليه مشاعره وتدبيره، ويصيره أقرب إلى المجانين، فهو يثور لأوهى الأسباب، ويغضب لغيرما سبب، يخرج منه القول فلا يعيه، ولا يصيب غير نفسه، وأشد من هذا قبحاً أن يجهل ما عليه نفسه، فيغتر بها، ويورطه غروره، فيظن أنه له عقلاً راجحاً فلا يصغى لنصح، ولا يأبه بإرشاد، أما أعقل الناس حقاً، فهو الذى لا يجيب سفيهاً، ولا يرد على جاهل، وإنما يمر بهما مر الكرام، فخير من الإجابة السكوت.(١)

وهل رأيت أحلم حلماً وأنبل نبلاً من ذلك الذى يكون من الأحنف بن قيس لعدوه، وإن كنت لا أعرف له عدواً، إلا أن يكون حاسداً حاقداً فحلم الأحنف مضرب الأمثال.

يقول الأحنف: الناس بالقياس إليه ثلاثة، أعلى منك، ودونك، ونظيرك، فإذا عادانى من هو أرفع منزلة، لم أجحد عليه منزلته، ولم أنكر فضله، ثم أربأ بنفسى فلا أتنزل إلى عداوة من هو دوني، والنظير أسبقه إلى الفضل فأترضاه.

ومثل هذا فى الحلم، قول ضرار يجيب صاحبه، لا أقابلك بالمثل، ولا بما دون ذلك فى السباب؛ لأن لسانى يعف فلا يطاوعنى.

وقول الشعبى الذى لم ير أمه فيبرها، مقتبس من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أكبر الكبائر أن يسب الرجل أبويه".

فقيل: يا رسول الله، وكيف يسب الرجل أبويه؟ قال: "يسب هذا أب هذا، فيسب أباه وأمه".(٢)

من نصيحة للإمام على رضى الله عنه قال: "لا تحدث بالعلم السفهاء فيكذبوك. ولكن حدث به من يتلقاه من أهله بقبول وفهم، فإن لعلمك عليك حقاً، كما أن عليك فى مالك حقاً، بذله لمستحقه، ومنعه من غير مستحقه".

---

(١) عبد الرحمن الضبع: الأنابيش، ج٢، ص: ٨٦-٨٧.

(٢) المرجع السابق، ص: ٨٧.

وقد كان رجل يحضر مجلس القاضى أبى يوسف، ويطيل السكوت، فسأله يوماً، مالك لا تتكلم ولا تسأل عن مسألة؟ فقال: أخبرنى أيها القاضي، متى يمسك الصائم؟ فقال: من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس. فقال: فما الحكم إن تأخر الصادق إلى ما بعد الشروق؟ فابتسم أبو يوسف وقال:

وفى الصمت زين للعيىّ وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

إذا كان الصمت ستاراً للجاهل، ووقاية لصاحب العجز والعى من شر الفضيحة فى المجالس، فإنه زينة النساء والأطفال والضالة التى ينبغى أن ينشدوها على الدوام. طُلب إلى امرأة كانت أشهر نساء عصرها فى الأدب والعلم والفضل، أن تكتب سطراً فى صحيفة تذكاراً لزيارة أدتها، فكتبت: "حلية النساء الصمت".

وتكلم رجل عند النبى (ﷺ) فأكثر، فقال له: كم دون لسانك من حجاب؟ فقال: شفتاى وأسناني، فقال: أفما كان لك فى ذلك ما يرد كلامك؟ ما أوتى رجل شراً من فضل لسانه.(١)

ومما ينبغى أن يفهم أن هلاك الإنسان فى اللسان، ينجيه كما أنه يرديه.

وقد قيل: حسن السؤال نصف العلم. كما قيل: من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه.

ولما سئل الحسن رضى الله عنه عن الصمت قال: هو ستر العى وزين العرض وفاعله فى راحة وجليسه فى أمن.(٢)

وقد قيل: الجمال فى اللسان والكمال فى العقل. والعفاف زينة الفقر. والشكر زينة البلاء. والتواضع زينة الحسب. والفصاحة زينة الكلام. والحفظ زينة الرواية. وخفض الجناح زينة العلم. وحسن الأدب زينة التورع. وبسط الوجه زينة القناعة. وترك ما لا يعنى زينة الورع.(٣)

---

(١) عبد الرحمن الضبع: الأنابيش، ج٣، ص: ٩٨.

(٢) سيد الشبلنجي: نور الأبصار، ص: ١٢٢.

(٣) المصدر السابق، ص: ١٦٣.

وقد قيل: لو سكت الجاهل ما اختلف الناس.

ولقد وعظ ابن الجوزى الخليفة المستضيء فقال: "…. يا أمير المؤمنين إن تكلمت خفت منك، وإن سكت خفت عليك. وإن قول القائل لك: اتق الله خير لك من قوله لكم: إنكم أهل بيت مغفور لكم.

وروى البيهقى بإسناده عن الإمام عمر بن عبد العزيز الأموى رحمة الله عليه أنه قال: من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه ومن عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح.(١)

وعن الحارث المحاسبي: العلم يورث الخشية والزهد يورث الراحة والمعرفة تورث الإنابة.

وعن ابن سعد أن من عمل بعلم الرواية ورث علم الدراية ومن عمل بعلم الدراية ورث علم الرعاية ومن عمل بعلم الرعاية هدى إلى سبيل الحق.

وعن معروف الكرخى إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عليه باب العمل وأغلق عليه باب الجدل وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل.

وعن أبى بكر الوراق: من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد والفقه تزندق، ومن اكتفى بالزهد دون الفقه والكلام ابتدع، ومن اكتفى بالفقه دون الزهد والورع تفسق، ومن تفنن فى الأمور كلها تخلص.(٢)

قال (ﷺ): **[لو أردت سفراً أعددت له عدة صم يوماً شديد الحر ليوم النشور، وصل ركعتين فى ظلمة الليل لوحشة القبور، وحج حجة لعظائم الأمور، وتصدق بصدقة على مسكين أو كلمة حق تقولها أو كلمة شر تسكت عنها لوقوف يوم عظيم].**(٣)

---

(١) القزويني: مختصر شعب الإيمان، ص: ٣٤.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) أخرج أبو نعيم فى الحلية، ج١، ص: ١٦٥ عن سفيان الثورى قال أبو ذر أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفرا أليس يأخذ من الزاد ما يصلحه. قالوا: بلى. قال: فسفر القيامة أبعد ما تريدون فخذوا معكم ما يصلحكم. قالوا: وما يصلحنا؟ قال: صوموا يوماً شديد الحر ….

وقال رجل لهارون الرشيد أمير المؤمنين وهو فى الطواف أريد أن أكلمك بكلام فيه خشونة فاحتمله. فأجاب أمير المؤمنين: لا ولا كرامة فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو أشر مني. فقال: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا﴾ (١).

وقد قيل: ليست الشجاعة فى أن تقول كل ما تعتقد. ولكن الشجاعة أن تعتقد كل ما تقول.

كما قيل: راحة اللسان فى قلة الكلام.

فعلى الإنسان أن يهتم بحفظ اللسان وضبطه وتقييده فإنه أشد الأعضاء جماحاً وطغياناً وأكثرها فساداً وعدواناً.

وعن سفيان بن عبد الله أنه قال: قلت يا رسول الله ما أكثر ما تخاف عليّ فأخذ عليه الصلاة السلام بلسان نفسه ثم قال هذا.(٢)

وقد قيل: اجعل صومك الصمت عن كل سوء، واجعل صدقتك كف الأذى فإنك لا تتصدق بشئ أفضل منه ولا تصوم بشئ أزكى منه.(٣)

وقال الفضيل بن عياض لرجل: لأعلمنك كلمة هى خير لك من الدنيا وما فيها: والله لو علم منك إخراج الآدميين من قلبك. حتى لا يكون فيك مكان لغيره. لم تسأله شيئاً إلا أعطاك.

وقد قيل: من كف لسانه عن أعراض الناس أقال الله عثرته يوم القيامة.

وقال رسول الله (ﷺ): **[قولوا خيراً تغنموا واسكتوا عن شر تسلموا].**

وهناك صنف من الناس يستوى عندهم النطق والصمت، فإن سكتوا فلله يسكتون، وإن نطقوا فعن الله ينطقون.(٤)

---

(١) سيد الشبلجني: نور الأبصار، ص ١٢٢.

(٢) أخرج الترمذى عن سفيان بن عبد الله رضى الله عنه أنا قال: "قلت يا رسول الله حدثنى بأمر أعتصم به. قال: قل ربى الله ثم استقم، قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ فأخذ عليه الصلاة والسلام بلسان نفسه ثم قال: هذا.

(٣) الغزالي: منها ج العابدين، ص: ١١٧.

(٤) الطوسي: اللمع، ص: ٤١٩–٤٢٠.

وقال أبو بكر الكتاني: جرت مسألة المحبة بمكة أيام موسم الحج فتكلم الشيوخ فيها وكان الجنيد أصغرهم سناً فقالوا له: هات ما عندك يا عراقي. فأطرق ودمعت عيناه ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويته، وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم بالله وإن نطق فعن الله وإن تحرك فبأمر الله وإن سكت فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله.(١)

وقد قيل: مدار الكلام علىٰ أربع: حب الجليل وبغض القليل، واتباع التنزيل، وخوف التحويل.(٢)

ولقد كان الحسن البصرى دائم الرجوع إلى قلبه يستفتيه قبل أن يتكلم فيقول: كانوا يقولون لسان الحكيم من وراء قلبه إن أراد أن يقول يرجع إلى قلبه، فإن كان له قال وإلا أمسك، وإن الجاهل قلبه فى طرف لسانه لا يرجع إلى قلبه ما أتى على لسانه تكلم به.(٣)

ومما يحكى عن أحمد بن أبى الحوارى أنه سألته امرأة ضالة عن الطريق ليدلها، فقال لها أى طريق تسألين؟ فبكت ثم قالت: دلنى على طريق النجاة. فقال: هيهات إن بيننا وبين طريق النجاة عقابا، وتلك العقاب لا تقطع إلا بالسير الحثيث، وتصحيح المعاملة، وحذف العلائق الشاغلة عن أمر الدنيا والآخرة. قال: فبكت بكاءً شديداً ثم قالت: يا أحمد سبحان الله من أمسك عليك جوارحك فلم تتقطع، وحفظ عليك فؤادك فلم يتصدع ثم خرجت مغشياً عليها.(٤)

وقال الفضيل: "تكلمت فيما لا يعنيك فشغلك عما يعنيك، ولو شغلك ما يعنيك تركت ما لا يعنيك".(٥)

---

(١) القشيري: الرسالة، ص: ١٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص: ٨.

(٣) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ٢٦.

(٤) أبو نعيم: الحلية، ج١٠، ص: ١١.

(٥) عبد الحليم محمود: الفضيل بن عياض، ص: ١٠٢.

وقال الإمام على رضى الله عنه :

كـــلام الحكـــيم حـــياة القلوب ∴ كوبـــل الســـماء غـــياث الأمـــم

فـــنطق الحكـــيم جلاء الظلام ∴ وصـــمت الحكـــيم دعـــاء الحكم

حـــياة الحكـــيم جلاء القلوب ∴ كضـــوء الـــنهار يجلـــى الظلـــم

فالعالم من يسكت عن الجاهل حلماً، وينشر الحكمة نصحاً. وأما ما يستعمل مع من يسأله عن العلم الفتيا: فإن من صفته إذا سأله سائل عن مسألة، فإن كان عنده علم أجاب، وجعل أصله أن الجواب من كتاب أو سنة أو إجماع.

فإذا أوردت عليه مسألة قد اختلف فيها أهل العلم اجتهد فيها، فما كان أشبه بالكتاب والسنة والإجماع ولم يخرج من قول الصحابة، وقول الفقهاء بعدهم قال به إذا كان موافقاً لقول بعض الصحابة وقول بعض أئمة المسلمين قال به.

وإن كان قد رآه مما يخالف به قول الصحابة وقول فقهاء المسلمين حتى يخرج عن قولهم لم يقل به واتهم رأيه، ووجب عليه أن يسأل من هو أعظم منه أو مثله، حتى يتكشف له الحق، ويسأل مولاه أن يوفقه لإصابة الخير والحق.[(١)]

وقيل إن رجلاً قال لأبى سعيد الخدرى أوصني. قال: عليك بتقوى الله عز وجل، فإنها رأس كل خير. وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام. وعليك بالقرآن فإنه نور لك فى أهل الأرض، وذكر لك فى أهل السماء. وعليك بالصمت إلا من خير. فإنك بذلك تغلب الشيطان.

وقال لقمان لابنه: يا بنى ما ندمت على الصمت قط وإن كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب.[(٢)]

كما كان عيسى عليه السلام إذا ذكرت عنده الساعة صاح، وقال لا ينبغى لابن مريم أن تذكر عنده الساعة فيسكت.

---

(١) أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري: أخلاق العلماء، ص: ٥٤.

(٢) أحمد بن حنبل: الزهد، ص: ٤٩.

وقال فى موطن آخر إنما أحدثكم لتعلموا ولم أحدثكم لتعجبوا.

وقد قيل: ما من كلمة كانت تقال لعيسى ابن مريم عليه السلام أحب من أن يقال له كان هذا المسكين.(١)

وقال الجنيد: بنى الطريق على أربع: "لا تتكلم إلا عن وجود، ولا تأكل إلا عن فاقة، ولا تنم إلا عن غلبة، ولا تسكت إلا عن خشية".(٢)

إن العالم إذا سئل، ولم يكن له علم بالإجابة، فليصمت، فإن الصمت عند ذلك هو الإجابة، ومن قال لا أدرى فقد أفتى.

وفى مراسيل الحسن عن النبى (ﷺ) يرويه عن ربه: "علامة الطهر أن يكون قلب العبد عندى معلقاً، فإذا كان كذلك لم ينس على كل حال، وإذا كان كذلك مننت عليه بالاشتغال بى كيلا ينساني، فإذا لم ينسنى حركت قلبه فإذا تكلم تكلم بي، وإذا سكت سكت بى فذلك الذى تأتيه المعونة من عندي".

وأهل هذا الشأن هم غرباء الغرباء وغربتهم أعز الغربة، فإن الغربة عند أهل الطريقة غربتان: ظاهرة وباطنة. فالظاهرة: غربة أهل الصلاح بين الفساق، وغربة الصادقين بين أهل الرياء والنفاق، وغربة العلماء بين أهل الجهل وسوء الأخلاق، وغربة علماء الآخرة بين علماء الدين الذين سلبوا الخشية والاشفاق، وغربة الزاهدين بين الراغبين فيما ينفذ وليس بباق، وأما الغربة الباطنة فغربة الهمة وهى غربة العارفين بين الخلق كلهم حتى العلماء والعباد والزهاد، فإن أولئك واقفون مع علمهم وعبادتهم وزهدهم وهؤلاء واقفون مع معبودهم لا يعرجون بقلوبهم عنه. فكان أبو سليمان الدارانى يقول فى وصفهم: "وهمتهم غير همة الناس، وإرادتهم الآخرة غير إرادة الناس، ودعاؤهم غير دعاء الناس".

وسئل عن أفضل الأعمال؟ فبكى وقال: "أن يطلع على قلبك فلا يراك تريد من الدنيا والآخرة غيره".(٣)

---

(١) أحمد بن حنبل: الزهد، ص: ٥٨، ٩٤.

(٢) كامل سعفان: سبحان الله، ص: ١٤.

(٣) ابن رجب الحنبلي: كشف الكربة فى وصف حال أهل الغربة، تعليق أسامة حمزة (القاهرة: دار الفتح، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ص: ٢٩-٣٠.

قال (ﷺ): **[من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت]**. قال الشافعي رحمه الله: معنى الحديث إذا أراد أن يتكلم فليفكر فإن ظهر أنه لا ضرر عليه تكلم وإن ظهر أن فيه ضرراً أوشك فيه أمسك.

ومن وصايا حطَّان بن المعلَّى المخزومي لابنه: "لا تكثر الكلام فتثقل على الأقوام، وامنح البشر جليسك والقبول، وإياك وكثرة التبريق والتلويق والتنويق.

كما قال: وشر الرجال الكثير الاعتلال ــ يعني في القول ــ وحسن اللقاء يذهب بالشحناء ولين الكلام من أخلاق الكرام، يا بني إن زوجة الرجل سكنه ولا عيش لها مع خلافها، وإذا هممت بنكاح امرأة فاسأل عن أهلها؛ فإن العروق الطيبة تنبت الثمار الحلوة، واعلم أن النساء أشد اختلافاً من أصابع الكف.[١]

وقد قيل: صمت تسلم به خير من كلام تندم عليه.

كما قيل: أربعة تؤدي إلى أربعة: الصمت إلى السلامة والبر إلى الكرامة والجود إلى السياسة والشكر إلى الزيادة.

وكان هرم بن حيان يقول: صاحب الكلام إما أن يعصي فيه فيخصم أو يغرق فيه فيأثم.[٢]

واعلم أن الإكثار من الصمت والاعتزال ضرورة ليس بشرط، فلا يتكلم إلا فيما يعنيه، ولا يختلط إلا بمن يتعاون به على التقوى.

وكان أحد العلماء يقول: لما صاح العارفون في الدنيا صاحت لهم الحقائق في الملأ الأعلى، ولو أنهم سكتوا لم تسكت حقائقهم. كما قال: كل كون في الجنة فهو غيب من غيوب الله عز وجل.[٣]

---

(١) ابن عربي: محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ص: ٣٠٧.

(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ٢٥.

(٣) المصدر السابق، ج١، ص: ١٧٤.

ومما رواه أبو نجيح: سمعت طاووسا يسأل أبى عن حديث فرأيت طاووسا كأنه يعقد بيده وقال أبي: يا أبا عبد الرحمن إن لقمان قال: إن من الصمت حكما، وقليل فاعله، فقال له طاووس: يا أبا نجيح، إن من تكلم، واتقى الله خير ممن صمت واتقى الله.(١)

وقد قيل: كثير من ندم على الكلام وقليل من ندم على السكوت.

كما قيل: خلق الله اللسان واحداً والقلب واحداً دون غيرهما من الأعضاء إشارة إلى أنه لا يذكر إلا الواحد ولا يكون فى الواحد إلا الواحد. وفيه حكمة أخرى: القلب محل الاجتهاد والنية فلو كان له قلبان لحصل الاختلاف فى النية والاجتهاد.

(١) عبد الحليم محمود: عبد الله بن المبارك، ص: ١٥٠.

الفصل الثامن

الصمت والفكـــرة

الفصل الثامن

الصمت والفكرة

لقد تحدثنا فى موضع آخر من هذا البحث عن الصمت والنطق والعلاقة بينهما، والآن سوف نشير إلى العلاقة بين الصمت والفكرة. والذى يعنينا هنا هو أن نبين أن قلة الكلام فيما لا يعنى والإقبال على ما يعنى من طول الصمت على الفكرة.

وقد كتب حكيم إلى أخيه: "أطل الصمت على الفكرة تلق الحكمة، ولا يكن صمتك عن غير فكرة، فيحل بك العي، وإن كان العى عن فضول الكلام، خير من الكلام فيما لا يعني".(١)

ويتساءل المحاسبي: فيما ينبغى أن يصمت عنه، وفيما ينبغى أن يتكلم؟

والجواب: الفكرة ضروب: فضرب منها الإنابة إليه، والفكر فى إنعامه، فإن الفكر اللازم للخلق هو الفكر فيما هم عليه، أعلى طاعة فيقيمون، أم على معصية فينتقلون عنها، فهذه الفكرة اللازمة للخلق. ثم فكرة الموازنة بين الأعمال، فيوازن بين الشيئين، فينظر إلى أوزنهما. وفكرة فى الأثرة لله عليه فى جميع أمره. وفكرة فى التعظيم لله، وهو قوله: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾.(٢)

يقول: أفلا ينظرون إلى الله العظيم بخلقه لهذا الخلق العظيم، وهذا التدبير المتقن، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فعال حكيم حميد، أحكم الأشياء بإتقان صنعها، واستحمد إلى الخلق فيما أنعم عليهم به.(٣)

(١) المحاسبي: المسائل فى الزهد، تحقيق مصطفى عبد القادر (القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، ١٩٨٦م) ص: ٢٧.

(٢) سورة الغاشية: الآية: ١٧.

(٣) المحاسبي: المسائل فى الزهد، مرجع سابق، ص: ٢٨.

ويقول الرسول (ﷺ): **[تفكر ساعة خير من عبادة سنة].**[١]

وقد قيل: فتلك فكرة نقلت من معصية إلى طاعة.

أو فكرة أورثت علم الفضيلة أو نافلة. أو فكرة أورثت تعظيم الله ومحبته. فأى فكرة كانت من هذه الأبواب، فقد صار صاحبها إلى أكرم الأسباب، وهذه أفضل منازل العبادة، وصاحبها ينتظر من الله بفكرته أفضل الزيادة، أما فائدة من غوامض أبواب الحكم، أو جاذبه من جواذب ما سكن إليه من النعم.

ونتساءل: ماذا يورث الصمت؟

والجواب: يورث الصمت ضروباً: فمنها حسن لباس الصمت، وإظهار الهيبة لصاحبه وزوال قبيح الألفاظ عنه.

ومنها نعمة محادثة شكر الله. ومنها حسن نيته وما يضمر عليه. ومنها قلة أخطائه وبوادره، لأن فكرة الصامت بين يدى كلامه، فإن كان صواباً تكلم، وإن كان خطأ صرفه إلى ما سواه.

فتزول عنه العيوب، وتسكن إليه القلوب، فقوله مسموع، وأمره متبوع، فعظمه العالم، وهابه الجاهل. عظمه العامل لما أقبل عليه، وهابه الجاهل لما يرى منه. فإن تكلم بين يدى العالم قبله، وإن تكلم بين يدى الجاهل بجله.

والسؤال المطروح: ما يلزم القلب مع الصمت؟

والجواب: الناس فيه على منازل مختلفه:

فعالم مع صمته، ومتعلم حسنت فى التعليم نيته، ومفكر كانت بغيته على الصمت.

(١) أورده السيوطى فى الجامع الصغير.

فأما العالم أول ما يلزم قلبه شدة التعظيم. وأما المتعلم فأول ما يلزم قلبه حسن التسليم. وأما المفكر فأول ما يلزم قلبه شدة الوجل، وحسن انبعاث العمل. ثم تلزم العامل مع تعليمه لله تعالى المحبة، مع شدة الهيبة.

ويلزم قلب المتعلم وقار الفائدة، مع انتظار الزائدة.

ويلزم المفكر الذى انبعث من تقصيره إلى التفكر فى كد العمل، شدة الوجل من فرط التقصير، وكثرة تذكر ما إليه يصير.[1]

فأول أبواب العبادات التفكر مع الزهادة فى المعاصي، فإن الفكرة تفتح ما بعدها، وتحسن لصاحبها معونتها، وهى أكبر عبادة القلب. وأبعدها من سخط الرب.

فالفكرة تعين على عبادة الباطن، وبها يقوى العبد على الظاهر، يؤنس بها من الوحشة أو يُستعان بها على الوحدة، وهى مفتاح الحكمة بأكرم الوسم، ويلزم صاحبها حسن الاسم، يعلو صاحبها الوقار ويأمن جليسه تبعة الأسرار.

فإذا حكم التفكر هجم على لطيف الحكمة، وبعدت منه التهمة، وتنبه من ساعات الغفلة، لأن قلبه لزمته العبادة، وصار من العبادة إلى العناية.

وقد قيل: "اقتربوا من صاحب الصمت، فإنه يلقى الحكمة".

ثم تفتح للحكيم المفكر الصامت الورع من أنواع أبواب البر، فى الجهر والسر ما ينشرح بالبر صدره، فتزول عنه مكابدة الهوى وشدة مؤنة الأعداء فلا تكون عليه تبعة.

وروى عن عيسى عليه السلام أنه قال: البر فى ثلاثة: فى النطق والنظر، والصمت. فمن كان نطقه فى غير ذكر الله فقد لغا، ومن كان نظره فى غير اعتبار فقد سها، ومن كان صمته فى غير فكر فقد لها. وترك الدنيا يكون باطراح الفكرة فى أحوالها وترك التمنى بلذاتها فإن الفكرة تبعث الإرادة لتعلق النفس بالفكرة.[2]

---

(١) المحاسبي: المسائل فى الزهد، ص: ٣١.

(٢) الغزالي: مكاشفة القلوب، ص: ١٣٠.

كما قال أبو الحسن الزنجاني: أصل العبادة على ثلاثة أركان: العين والقلب، واللسان. فالعين بالعبرة، والقلب بالفكرة، واللسان بالصدق والتسبيح بالذكر.(١)

قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا﴾.(٢)

وقد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر فى كتابه العزيز فى مواضع لا تحصى فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.(٣) أى تعاقبهما فى المجئ والذهاب يخلف أحدهما صاحبه إذا ذهب أحدهما جاء الآخر خلفه أى بعده.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾.(٤)

قال عطاء: أراد اختلافهما فى النور والظلمة والزيادة والنقصان.

وما أحسن قول القائل:

يا راقدا الليل مسروراً بأوله ∴ إن الحوادث قد تطرقن أسحاراً

لا تفرحن بليل طاب أوله ∴ فرب آخر ليل أجج النارا

وقول آخر :

إن الليالى للأنام مناهل ∴ تطوى وتنشر دونها الأعمار

فقصارهن مع الهموم طويلة ∴ وطوالهن مع السرور قصار

وأثنى الله على المتفكر فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً﴾.(٥)

وقال النبى (ﷺ): **[تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى الله فإنكم لن تقدروا قدره].**

(١) الغزالي: مكاشفة القلوب، ص: ٥٥.
(٢) سورة: الأحزاب: الآيتان: ٤١-٤٢.
(٣) سورة: البقرة: الآية: ١٦٤.
(٤) سوره الفرقان: الآية: ٦٢.
(٥) سورة آل عمران: الآية: ١٩١.

وعن عطاء قال: انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت: يا عبيد: ما يمنعك من زيارتنا، قال قول رسول الله (ﷺ) زر غباً تزدد حباً، قال ابن عمير فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله (ﷺ)، قال فبكت وقالت كل شيء من أمره كان عجباً، أتاني مرة في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال ذريني أتعبد لربي عز وجل فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذن لصلاة الصبح، فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي، وقد أنزل الله تعالى عليَّ في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ﴾.(1)

ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها. فقيل للأوزاعي ما غاية التفكر فيهن، قال: يقرؤهن ويعقلهن.

وعن محمد بن واسع أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر، فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر.

وعن الحسن: قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وعن الفضيل قال: الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك،

وقيل لإبراهيم بن أدهم: إنك تطيل الفكرة. فقال: الفكرة مخ العقل.

وكان سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل بقول القائل:

إذا المرء كانت له فكرة ∴ ففي كل شيء له عبرة

وعن طاووس قال: قال الحواريون لعيسى بن مريم يا روح الله هل على الأرض اليوم مثلك؟ فقال: نعم من كان نطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبرة فإنه مثلي.

---

(1) سورة آل عمران: الآية: ١٩٠.

وقال الحسن: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو.(١)

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.(٢)

وقيل فى معنى هذه الآية: أمنع قلوبهم التفكر فى أمري.

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): **[أعطوا أعينكم حظها من العبادة، فقالوا يا رسول الله وما حظها من العبادة. قال: النظر فى المصحف والتفكر فيه، والاعتبار عند عجائبه]**.

وعن امرأة كانت تسكن البادية قريباً من مكة أنها قالت لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قد ادخر لها فى حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم فى الدنيا عيش ولم تقر لهم فى الدنيا عين.

وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمر به مولاه فيقول يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آنس لك. فيقول لقمان: إنَّ طول الوحدة أدوم للفكر، وطول الفكر دليل على طريق الجنة.

كما قال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل.

ويقول عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: الفكرة فى نعم الله عز وجل من أفضل العبادة.

وقال عبد الله بن المبارك يوماً لسهل بن على ورآه ساكناً متفكراً أين بلغت؟ قال: الصراط.(٣)

ومما رواه بشر: لو تفكر الناس فى عظمة الله ما عصوا الله عز وجل.

---

(١) الغزالي: مكاشفة القلوب، ص: ٢٢٣.

(٢) سورة الأعراف: الآية: ١٤٦.

(٣) الغزالي: مكاشفة القلوب، ص: ٢٢٣.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب.

كما قال: التفكر فى الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه.

ومما يروى عن أبى شريح أنه كان يمشى إذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: تفكرت فى ذهاب عمرى وقلة عملى واقتراب أجلي.

وقال أبو سليمان: عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر.

كما قال: الفكر فى الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكر فى الآخرة يورث الحكمة ويحيى القلوب.

وقال حاتم: من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكر يزيد الخوف.(١)

ومن كلام الحسن: إنَّ أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة.

ومما يُحكى عن إسحاق بن خلف أنه قال: كان داود الطائى رحمه الله تعالى على سطح فى ليلة مقمرة فتفكر فى ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى عرياناً وبيده سيف، ويبكى حتى وقع فى دار جار له، قال: فوثب صاحب الدار من فراشه وقال من ذا الذى طرحك من السطح؟ قال: ما شعرت بذلك.

وما أروع قول الجنيد الذى سجله فى هذا الصدد: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن بالله عز وجل، ثم قال يا لها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما ألذه طوبى لمن رزقه.

---

(١) الغزالي: مكاشفة القلوب، ص: ٢٢٤.

ولما قيل لابن مبارك: مالك لا تجالسنا؟ فقال: أنا أذهب فأجالس الصحابة والتابعين، وأشار بذلك إلى أنه ينظر فى كتبه.

ومن الحكم المنقوله: فإن أردت اللذة والراحة فعليك أيها العالم بقعر بيتك، وكن معتزلاً عن أهلك يطب لك عيشك، واجعل للقاء الأهل وقتاً، فإذا عرفوه تصنعوا للقائك، فكانت المعاشرة بذلك أجود. وليكن لك مكان فى بيتك تخلو فيه، وتحادث سطور كتبك، وتجرى فى حلبات فكرك، واحترس من لقاء الخلق وخصوصاً العوام.

وهنا يسجل الشافعى قوله: "استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر".(١)

وقال أيضاً: صحة النظر فى الأمور نجاة من الغرور، والعزم فى الرأى سلامة من التفريط والندم، والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة، ومشاورة الحكماء ثبات فى النفس وقوة فى البصيرة، ففكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تقدم.(٢)

وقال أيضاً: الفضائل أربع: إحداها: الحكمة، وقوامها فى الفكرة، والثانية: العفة، وقوامها فى الشهوة، والثالثة: القوة، وقوامها فى الغضب، والرابعة: العدل، وقوامها فى اعتدال قوى النفس.

ويقول صاحب: "الحكم": "متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك".

فيا أيها المسلم المحب المتجمل بوصف المريد، متى أطلق مولاك لسانك وحل عقدته، التى أوجبها الاستغناء بالغير وعدم رؤية الفاقة والفقر بأن أشهدك فاقتك وفقرك، حتى دعوته بلسان المضطر فاعلم أنه تعالى يريد أن يعطيك بصدق الوعد بإجابة دعاء المضطر لا سيما فى السحر.

---

(١) الغزالي: مكاشفة القلوب، ص: ٢٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص: ٢٢٥.

فاللسان ترجمان القلب، فإذا أشرقت فى القلب الأنوار، وتطهر القلب وتنقى من دنس الأغيار تكلم اللسان بالكلام النور إلى الذى يلح آذان السامعين.

من هنا قال ابن عطاء الله: "كل كلام يبرز، وعليه كسوة القلب الذى منه برز".(١)

ومما يروى عن الإمام على رضى الله عنه أنه قال: الخير كله فى أربع: الصمت، والنطق، والنظر، والحركة. فكل نطق: لا يكون فى ذكر الله فهو لغو. وكل صمت: لا يكون فى فكر فهو سهو. وكل نظر: لا يكون فى عبرة فهو غفلة. وكل حركة: لا تكون فى تعبد الله فهى فترة. فرحم الله عبداً جعل نطقه ذكراً، وصمته فكراً، ونظره عبرة، وحركته معبداً، ويسلم الناس من لسانه ويده.(٢)

ولقد قال إبراهيم بن أدهم: "إلهى إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندى جناح بعوضة فى جنب ما أكرمتنى من محبتك، وآنستنى بذكرك، ومرغتنى للتفكر فى عظمتك.(٣)

ويرى الباحث أن هذا القول لإبراهيم بن أدهم يحتاج إلى تعليق لأنه ذكر ذلك من فرط وجده أين هو من الصديق الذى قال: لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمى فى الجنة والمحب على هذا الأساس يعيش من أجل محبوبه الله. ولما سئل بعض المشايخ عن المحب قال: قليل الخلطة، كثير الخلوة، دائم الفكرة، ظاهره الصمت، لا يبصر إذا نظر، ولا يسمع إذا نودي، ولا يفهم إذا كلم، ولا يحزن إذا أصيب، فلا يدري، ويعرى ولا يشعر، ويشتم ولا يخشى، ينظر إلى الله تعالى فى خلوته ويأنس به ويناجيه ولا ينازع أهل الدنيا.(٤)

والتفكر يدعو إلى الخير والعمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه، وليس ما يُغنى ،إن كثر يعدل ما يبقى، فاحذر هذه الدار الصارعة الخادعة التى قد تزينت بخدعها وغرت بغرورها، فالدنيا مطيتك إن ركبتها حملتك وإن ركبتك قتلتك. فالطمع يشين العالم، ويذهب بحرمته من القلوب.

---

(١) ابن عطاء الله: الحكم، بشرح محمد مصطفى أبو العلا، ج١، ص: ٣٧٥.

(٢) الطوسي: اللمع، ص: ١٨٢.

(٣) الغوالي: مكاشفة القلوب، ص: ٢٤٨.

(٤) المصدر السابق، ص: ٢٧.

وفى موعظة بعث بها الحسن البصرى إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز لما قال له عظنى وأوجز: فكتب الحسن إليه قائلاً: "أما بعد فإن رأسى ما هو مصلحك ومصلح به على يدك: الزهد فى الدنيا، وإنما الزهد باليقين، واليقين بالتفكر، والتفكر بالاعتبار، فإذا أنت: تفكرت فى الدنيا لم تجدها أهلاً أن تبيع بها نفسك، ووجدت نفسك أهلاً أن تكرمها بهوان الدنيا، فإنما الدنيا دار بلاء، ومنزلة غفلة.

من ثمة أن الحسن البصرى ربط بين الزهد فى الدنيا، وعلم اليقين، واليقين بالتفكر، فعلم اليقين والتفكر المؤسس على العبادة والإيمان، ومداومة مراقبة النفس تأميناً لطريق الوصول، فكل من اتبع طاعة الله لزمته مودته.(١)

فبمداومة مراقبة النفس وتطويعها يصل العبد إلى حب الله ومودته فيحصل له علم اليقين الذى يرتبط فيه العلم والحب بالمعرفة لقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٢).

ويقول إبراهيم بن أدهم فى المعرفة: آية العارف هى أن يكون خاطره أكثر اشتغالاً بالتفكر والعبرة، ويكون أكثر كلامه ثناء ومدحاً للحق، وغالب عمله الطاعة، وغالب نظره فى لطائف الصنع والقدرة.

وقد قيل: إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عليه باب العمل، وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عليه باب العمل، وفتح له باب الجدل.

ويطالب حاتم الأصم الإنسان بأن يتعهد نفسه فى ثلاثة مواضع:

فيقول: تعهد نفسك فى ثلاث: إذا عملت فاذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمت فانظر سمع الله منك، وإذا سكت فاذكر علم الله فيك.

فمن أخلص فى عمله أظهر الله تعالى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه. وكذلك التفكر، فإن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم، ثم تفكرت فى معلوماتها

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ٢٥.

(٢) سورة: الحجر: الآية: ٩٩.

بشروط التفكر ينفتح عليها باب الغيب، فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوى الألباب "عالماً كاملاً عاقلاً ملهماً مؤيداً".

ويبين لنا السراج الطوسى الفرق بين الفكر والتفكر فيقول: "إن التفكر جولان القلب والفكر وقوف القلب على ما عرف".

فالتفكر صحة الاعتبار والفكر ما ملأ القلب من حالة تعظيم الله تعالى.

فالفكر فى قيام الأشياء بالحق.

ويرى الإمام الغزالى أن صاحب الفكر الذى ملأ قلبه من حال التعظيم لله عز وجل يلهم بالحكمة فإن "حقيقة الكمال" تنال من العلم اللدنى ومالم يبلغ الإنسان هذه المرتبة لا يكون حكيماً لأن الحكمة من مواهب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿يُؤتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾. (١)

ويقول أحمد بن أبى الحواري: إنى لأقرأ القرآن فأنظر فيه آية فيحار عقلى فيها. (٢)

فالحيرة بديهة ترد على قلوب العارفين عند تأملهم وحضورهم وتفكرهم وتحجبهم عن التأمل والفكر فهى منازلة تتولى قلوب العارفين بين اليأس والطمع فى الوصول إلى مطلوبه ومقصوده، لا تطمعهم فى الوصول فيريحوا ولا تؤيسهم عن الطلب فيستريحوا فعند ذلك يتحيرون كما يقول الطوسي. (٣)

ومن أقوال الدارانى فى هذا الصدد: "رد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخلص إلى إجماع القلب بقلة الخطأ، وتعرض لرقة القلب بمجالسة أهل الخوف واستجلب نور القلب بدوام الحزن، والتمس باب الحزن بدوام الفكر، والتمس وجوه الفكر فى الخلوات. (٤)

---

(١) سورة: البقرة: الآية ٢٩٦.

(٢) أبو نعيم: الحلية، ج١٠، ص: ٢٢.

(٣) الطوسى: اللمع، ص: ٤٢١.

(٤) أبو نعم: الحلبة، ج٩، ص: ٢٦٦.

إن الأسس الجوهرية فى حياة الإنسان هى العمل بأوامر الله.

من هنا قال ابن أبى الحواري: إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استيقظت قلوبهم فنطقت بالحكمة بل ورثوا السر.(١)

والحكمة هى جماع الأسرار الباطنية المودوعة فى كتاب الله عز وجل وما يفهمه العارف من قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.(٢)

قالوا: الكتاب اسم لظاهر القرآن والحكمة اسم لباطنه.

وقال ابن عباس وغيره فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.(٣)

هى الفهم فى كتاب الله عز وجل.

بالإضافة إلى هذا نجد أحمد بن أبى الحوارى صلى العتمة ثم قام يصلى فاستفتح بالحمد إلى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٤).

وهنا يقول محمد بن عوف الحمصي: فطفت الحائط كله ثم رجعت فإذا هو لا يجاوز "إياك نعبد وإياك نستعين". ثم نمت ومررت به سراً وهو يقول: "إياك نعبد وإياك نستعين". فلم يزل يرددها إلى الصبح.(٥)

ومن هنا نستطيع القول: إن ابن أبى الحوارى عندما تمسك بظاهر الشريعة وجعله علماً يدلل به للوصول إلى الله. فالعقل عنده عندما يمعن فى الفكر بالذكر والذكر بالفكر يستيقظ القلب فينطق بالحكمة. وهنا درجة الوصول فيمن عليه الله فى السر.

---

(١) المصدر السابق، ج١٠، ص: ١٩.

(٢) سورة البقرة: الآية: ١٥١.

(٣) سورة البقرة: الآية: ٢٦٨.

(٤) سورة الفاتحة: الآية: ٥.

(٥) ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي: شذرات الذهب (القاهرة: مكتبة القدسى، سنة ١٣٥٠هـ) ج٢، ص: ١١١.

وعن إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: "المؤمن قليل الكلام كثير العمل ... والمنافق كثير الكلام قليل العمل ... كلام المؤمن حكم، وصمته تفكر، ونظره عبرة، وعمله بر، وإذا كنت كذا ... لم تزل فى عبادة".(1)

وقال الفضيل: قيل لإبراهيم: إنك لتطيل الفكرة، قال: الفكرة مخ العمل ... وعن الفضيل قال: قال الحسن: "الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك".

فإن أردت التوبة فينبغى لك أن لا تخلو من التفكر طول عمرك، فتفكر فيما صنعت فى نهارك فإن وجدت طاعة فاشكر الله عليها وإن وجدت معصية فوبخ نفسك على ذلك واستغفر الله وتب إليه فإنه لا مجلس مع الله أنفع لك من مجلس توبخ فيه نفسك ولا توبخها وأنت ضاحك فرح بها بل وبخها وأنت مجد صادق مظهر العبودية حزين القلب منكسر ذليل، فإن فعلت ذلك أبدلك الله بالحزن فرحاً وبالذل عزاً وبالظلمة نوراً وبالحجاب كشفاً.(2)

ولقد جاء في: "وصية إلى الرجل المسلم": يابني، مداراة الناس بالفكر والتدبير والضمير، لا باليد واللسان، وما ترك من الحماقة شيئاً من قال لعدوه: إنى أكرهك. أو أنت عدوي، فإنه يسلط على نفسه شيطاناً كان فى حصون الحفظ منه ــ لولا تلك الكلمة ــ يقول الله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.(3)

التذكر والتفكر منزلان يثمران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان والعارف لا يزال بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم.

---

(1) عبد الحليم محمود: الفضيل بن عياض، ص: ٧٧.

(2) ابن عطاء الله السكندري: تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس (القاهرة: المطبعة الميمنية، ١٣٢٢ هـ) ص: ٢-٣.

(3) سورة فصلت: الآية ٣٤.

كما قال الحسن البصري: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت.

وقال صاحب: "المنازل": "التذكر فوق التفكر، لأن التفكر طلب، والتذكر وجود".

وقال بعض الأولياء: الفكرة نور، والغفلة ظلمة، والجهالة ضلالة، والسعيد من وعظ بغيره.[١]

ولقد سئلت أم الدرداء: ما كان أفضل عمل أبى الدرداء؟ قالت: التفكر والاعتبار.[٢]

كما قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

ويقول ابن أدهم: علامات العارف أن يكون أكثر صمته التفكر والعبرة، وأكثر كلامه الثناء والمدحة، وأكثر علمه الطاعة والخدمة، وأكثر نظره إلى لطائف صنع ربه.[٣]

وقال بعض الصالحين: للعارف أربع علامات: ذكر المنة، وصدق الهمة، وعرفان الحرمة، وخلاف الفرقة.

كما قال: من علامات العارف أن ينظر إلى الدنيا بعين الاعتبار، وإلى الآخرة بعين الانتظار، وإلى النفس بعين الاحتقار، وإلى الطاعة بعين الاعتذار لا بعين الاستكبار، وإلى المغفرة بعين الاستبشار، وإلى المعروف سبحانه وتعالى بعين الافتقار.[٤]

---

(١) ابن عربي: محاصرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ص: ٢٣٩.
(٢) ابن حنبل: الزهد، ص: ١٣٥.
(٣) ابن عربي: محاصرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ص: ٣١٠.
(٤) المصدر السابق، ص: ٣١٥.

ولقد سئل عامر بن عبد الله بن قيس من هو خير منك؟ فقال: من كان صمته تفكراً وكلامه ذكراً أو مشيه تدبراً فهذا خير منى.(١)

ومن كلام أحد العارفين: لذة العقول ملاحظة أسرار الملكوت الخفية عن الأبصار بالسرائر المحيطة بالأفكار فتعاين القلوب حقائق الغيوب وتصحبه قبول شواهد الأسرار فتلج الضمائر بحار الأفكار وتطمئن النفوس إلى ما لحقت به من العالم المحجوب، فكلما كشف عن الغيوب أذيال دلالتها على إتقان صنع وأبدع فطرة قابلتها من العقول هيبة وفكرة ويخرج الاعتبار من القلب فإذا كان القلب ظاهراً بعد الاعتبار بالشواهد وسمت به الهمة ورقى به الفكر ولم يمنعه مانع فالفكر طريق إلى الحق ودليل على الصدق والفكر أصل ثمرة المعرفة والمعرفة ثمرة طعمها العمل ولذتها الإخلاص، والإخلاص لذة غايته النعيم والنعيم غاية ليس لها انقضاء.(٢)

من هنا قال أبو الدرداء: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.(٣)

وكان أحد العلماء يقول: الأسباب للأمور الناشئة عن الكسب كالماء للزرع متى انقطع عنه الماء مات. وكذلك المتفكرون متى تركوا الفكر عطلت معتقداتهم النظرية. وكذلك المتقشفون متى تركوا تقشفاتهم بطلت تأثيراتهم الكونية ومكاشفاتهم الصورية. وما كان وهباً من الله تعالى فهو باق.(٤)

وقال آخر: التفكر والتدبر من صفات العقل الذى جعله الله تعالى آله يقطع الإنسان بحدها كل شيء والقلب وعاء الكل وإصلاح الأطعمة أصل ذلك.

فإذا صلح القلب كان بيت الله ومهبط الوحى والأنوار وإذا فسد كان بيت الشيطان والهوى والظلمة. فالبيت لا يقبل إلا ما شاكله. وكما أن الأحرف وعاء للمعانى فكذلك القلب وعاء للحق والشرع والنور كما أن الحرف إذا تغير بعض

---

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ٢٤.

(٢) المصدر السابق ص: ١٢٨.

(٣) ابن حنبل: الزهد، ص: ١٣٩.

(٤) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ٢٧.

صورته أو نقطة فسد المعنى كذلك القلب إذا تغير بعض صورته وصفته فسد ما فيه.(١)

ولما سئل الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه: ما أفضل صلاة؟ قال: ما أحضرت فيها القلوب، وذرفت فيعا العيون، وخلصت فيها النيات، وفاضت فيها العبرات.

(١) الشعرانى: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ١٤٩.

الفصل التاسع

كتمان السـر

الفصل التاسع

كتمان السر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): **[استعينوا على الحوائج بكتمان السر، فإن لكل نعمة حاسداً].**(١)

فالواجب على من سلك سبيل ذوى الحجي لزوم ما انطوى عليه الضمير بتركه إبداء المكنون فيه، لا إلى ثقة ولا إلى غيره، فإن الدهر لابد من أن يضرب ضرباته، فيوقع ضد الوصل بينهما حالة من الأحوال فيخرجه وجود ضد ما انطوى عليه قديماً من وفائه إلى صحة الخروج بالكلية إلى جفائه، بإبداء مكتوماته، والكشف عن مُخبآته.

ويقول عمرو بن العاص: عجبت من الرجل يفرُّ من القدر، وهو مواقعه، ومن الرجل يرى القذاة في عين أخيه، ويدع الجزع في عينه، ومن الرجل يخرج الضّغن من موضع ويدع الضغن في نفسه وما ندمت على أمر قط فلمت نفسي على تندمي عليه، وما وضعت سري عند أحد فلمته على أن يفشيه، كيف ألومه وقد ضقت به؟!(٢)

وينشدنا في هذا المقام على بن محمد البسامي:

تبيح بسرِّك ضيقاً به ∴ وتبغي لسرك منْ يكتمُ
وكتمانك السرَّ ممن تخاف ∴ ومن لا تخافُنَّهُ أحْزَمُ
إذا ذاع سرك من مخبر ∴ فأنت وإن لمته ألوم

وهذا ما نبه عليه عبد العزيز بن سليمان بقوله:

إذا ضاق صدر المرء عن بعض سره ∴ فألقاه في صدري، فصدري أضيق

---

(١) ذكره ابن حبان البستي في روضة العقلاء، ص: ١٨٧.

(٢) ابن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص ١٨٧-١٨٨.

ومـن لامسنى في أن أضيع سره ∴ وضـيَّعه قبلي، فذو السر أخرق

ولقد قيل: أصبر الناس الذي لا يفضي سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شئ فيفشيه.(١)

وفي هذا الصدد ينشد البغدادي :

صـن السر بالكتمان يرضيك غِبُّه ∴ فقـد يظهـر المرء المضيع فيندم

فـلا تلجئـن سراً إلى غير حرزه ∴ فـيظهر حرز السوء ما كنت تكتم

وأنشد محمد بن إسحاق الواسطي :

إذا المـرء لم يحفظ سريرة نفسه ∴ وكـان لسِـرِّ الأخ غـير كـتوم

فـبعداً لـه مـن ذي أخ ومـودة ∴ ولـيس علـى ود لـه بمقـيم

وقال أبو حاتم رضي الله عنه: من حَصَّنَ بالكتمان سره تم له تدبيره، وكان له الظفر بما يريد، والسلامة من العيب والضرر، وإن أخطأه التمكن والظفر، والحازم يجعل سره في وعاء، ويكتمه عن كل مستودع، فإن اضطره الأمر وغلبه أودعه العاقل الناصح له، لأن السر أمانة، وإفشاؤه خيانة، والقلب له وعاء، فمن الأوعية ما يضيق بما يودع، ومنها ما يتسع لما استودع.(٢)

وقد قيل: لو عرف زرّى سرى لطرحته. من هنا قيل: السر لطيفة مودعة في القالب كالأرواح، ويطلق لفظ السر على ما يكون مصوناً مكتوماً بين العبد والحق سبحانه وتعالى في الأحوال. وعليه يحمل قول من قال: أسرارنا بكر لم يفتضها وهم واهم. ويقولون صدور الأحرار قبور الأسرار.

كما قيل: صيانة الأسرار عن الالتفاف إلى الأغيار من علامات الإقبال على الله تعالى.(٣)

---

(١) ابن حبان البستي: روضة العقلاء، ص: ١٨٩.

(٢) القشيري: الرسالة، ص: ٧٦.

(٣) أبو عبد الرحمن السلمى. طبقات صوفية، ص: ٦٩.

فالسر الذي يسلم من رعونة البشر سر رباني.(١)

ويقول إبراهيم بن أدهم: لا تكون كاملاً حتى يأمنك عدوك، وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك؟!

وأنشد الكريزي:

اجعل لسرك من فؤادك منزلاً ∴ لا يستطيع له اللسان دخولاً
إن اللسان إذا استطاع إلى الذي ∴ كتم الفؤاد من الشئون وصولاً
ألقيت سرك في الصديق وغيره ∴ من ذي العداوة فاشياً مبذولاً

وأنشد المنتصر بن بلال الأنصاري:

سأكتمه سري وأكتم سره ∴ ولا غرَّني أني عليه كريم
حليف فيفشي، أو جهول فيذيعه ∴ وما الناس إلا جاهل وحليم

وأنشد بعض الإخوان:

لعمرك كتمان الفتى سرٍّ ما نوى ∴ أعف وأدنى للرشاد وأكرم
وأجْملُ في بث الحديث مقالة ∴ وأحسن في الأخلاق دوماً وأحزم

وأنشد الكريزي:

إذا أنت لم تحفظ لنفسك سرها ∴ فأنت إذا حمّلته الناسَ أضيعُ
ويضحك في وجهي إذا ما لقيته ∴ وينهش بالغيب يوماً ويلسع

وهنا يقول أبو حاتم رضي الله عنه: الإفراط في الاسترسال بالأسرار عجز، وما كتمه المرء من عدوه فلا يجب أن يظهره لصديقه، وكفى لذوي الألباب عبراً ما جربوا، ومن استودع حديثاً فليستر، ولا يكن مِهْتاكاً، ولا مِشْياعاً، لأن السر إنما سمي سراً، لأنه لا يُفشى.

فيجب على العاقل أن يكون صدره أوسع لسره من صدر غيره بأن لا يفشيه.(٢)

---

(١) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص: ١٢٠.
(٢) ابن حيان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص: ١٩٠.

ولقد قيل :

إذا ما ضاق صدري عن حديث ∴ فأفشاه الرجالُ، فمن تلومُ؟
إذا عاتبت من أفشى حديثي ∴ وسرّى عنده فأنا الظلوم
وإني يوم أسأم حمل سري ∴ وقد ضمنته صدري سؤوم
فلست محدثاً سري خليلي ∴ ولا نفسي إذا حضرت هموم
وأطوى السرَّ دون الناس: إني ∴ لما استودعت من سر كتوم

كما قيل :

أمت السر بكتمان ولا ∴ يسمعن منك إذا استودعت سر
فإذا ضقت به ذرعاً، فلا ∴ تضعن سرك إلا عند حر

ويضاف إلى ذلك ما قاله الأعمش: يضيق صدر أحدهم بسره، حتى يحدث به، ثم يقول اكتمه عليّ.(١)

ولقد قيل :

لا يكتم السر إلا من له شرف ∴ والسر عند كرام الناس مكتوم
السر عندي في بيت له غلق ∴ ضلت مفاتيحه والبابُ محتوم

وأنشد عبد الرحمن بن محمد :

وإني لأنسى السر كيما أصونه ∴ فيا من رأى شيئاً يصان بأن يُنسى
مخافة أن يجري ببالي ذكره ∴ فيخلسه قلبي إلى منطقي خلساً

وقال أبو حاتم رضي الله عنه: الظفر بالحزم، والحزم بإجالة الرأي، والرأي بتحصين الأسرار، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده، ومن أنبأ الناس بأسراره هان عليهم وأذاعوها، ومن لم يكتم السر استحق الندم، ومن استحق الندم صار ناقص العقل ومن دام على هذا رجع إلى الجهل.

---

(١) ابن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص: ١٩١.

فتحصين السر للعاقل أولى به من التلهف بالندم بعد خروجه منه.

ولقد أحسن الذي يقول :

خشـيت لسـاني أن يكون خؤوناً ∴ فأودعـته قلبـي، فكـان أميـناً

فقلـت، ليخفـي دون شخصـي ∴ أيـا حَرَكَاتـي كـنّ فـيّ سكونا

ولقد قيل في معنى قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (١). أنه ما كان يحتاج إليهم، ولكن أحب أن يَستَن به من بعده.

كما قال أبو حاتم رضي الله عنه: المستشار مؤتمن، وليس بضامن، والمستشير متحصن من السقط، متخير للرأي.

والواجب على العاقل السالك سبيل ذوي الحجي: أن يعلم أن المشاورة تفشي الأسرار، فلا يستشير إلا اللبيب الناصح الودود الفاضل في دينه، وإرشاد المشير المستشير قضاء حق النعمة في الرأي، والمشورة لا تخلو من البركة إذا كانت مع وصفنا نعته.(٢)

وحدثنا ابن عائشة عن الحسن أنه قال: ما حزب قوماً قط أمر فاجتمعوا فتشاوروا فيه إلا أرشدهم الله أصوبه.

وأنشد الكريزي :

دَبِّـره إذا مـا رمـت أمراً بفكرة ∴ لـتعلم مـا تأتـي ومـا تتجنبُ

وشـاور نقـي الرأي عند التباسه ∴ لكي يَفتتح الأمر الذي هو أصوب

وأنشد المنتصر بن بلال :

لا تسـبقن الـناس بالـرأي واتئد ∴ فـإنك إن تعجـل إلى القول تَزْلل

ولكن تصفح رأي من كان حاضراً ∴ وقل بعدهم رسلاً، وبالحق فاعمل

---

(١) سوره: آل عمران الآية : ١٥٩.

(٢) ابن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص: ١٩٠.

وعن وهب بن منبه أنه قال: في التوراة أربعة أحرف مكتوبة: من لم يشاور يندم، ومن استغنى استأثر، والفقر الموت الأحمر، وكما تدين تُدان.(١)

وقال أبو حاتم رضي الله عنه: لا أُنْسَ آنسُ من استشارة عاقل ودود، ولا وحشة أوحش من مخالفته، لأن المشاورة والمناظرة بابا بركة ومفتاحا رحمة، ومن استشير وليجعل المستشير كنفسه بترك الخيانة، وبذل النصيحة، وليكن كما أنشد على بن محمد البسامي.

ومـن الـرجال إذا زكت أحلامهم ∴ مـن يستشار إذا استشير فيطرق

حـتى يجـول بكـل واد قلـبه ∴ فـيرى ويعـرف ما يقول وينطق

إن الحلـيم إذا تفكـر لـم يكـد ∴ يخفـي علـيه من الأمور الأوفق

وعن الحسن رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ): **[ما شاور قوم قط إلا هدوا إلى رشدهم]**.

كما قال الحسن: لا يندم من شاور مرشداً.

ومن وصايا أبو حاتم رضي الله عنه: الواجب على العاقل إذا استشير قوم هو فيهم أن يكون آخر من يشير، لأنه أمكن من الفكر وأبعد من الزلل، وأقرب من الحزم، وأسلم من السقط، ومن استشار فلينفذ الحزم بأن لا يستشير عاجزاً، كما أن الحازم لا يستعين كسلاً، وفي الإستشارة عين الهداية، ومن استشار لم يعدم رشداً، ومن ترك المشاورة لم يعدم غيًّا ولا يندم من شاور مرشداً.(٢)

وقد أنشد الواسطي :

الهـمُّ مـا لـم تمضـه لسـبيله ∴ سـقمُ القلـوب وآفـة الأبـدان

ومعـول الـرجل الموفـق رأيـه ∴ عـند اعـتراض طوارق الأحزان

وإذا الحـوادث سـددت أسـبابه ∴ كـان التبصـر أنجـد الأعـوان

---

(١) ابن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص: ١٩٠.

(٢) المصدر السابق، ص: ١٩٢.

وإذا أضـل سـبيله تدبـيره ∴ طلـب الهـدى بتشاور الإخوان

ومما قيل: ما هلك امرؤ عن مشورة، ولا سعد بتوحد.[1]

وقال أبو حاتم رضي الله عنه: إن من شيم العاقل عند النائبة تنُوبه: أن يشاور عاقلاً ناصحاً ذا رأي ثم يطيعه، وليعترف للحق عند المشورة، ولا يتمادى في الباطل بل يقبل الحق ممن جاء به، ولا يحقر الرأي الجليل إذا أتاه به الرجل الحقير، لأن اللؤلؤة الخطيرة لا يشينها قلة خطر غائصها الذي استخرجها، ثم ليستخر الله، وليمض فيما أشار عليه.

وقد أنشد البغدادي :

أطـع الحلـيم إذا الحلـيم عصاكا ∴ إن الحلـيم إذا عصـاك هداكـا

وإذا استشـارك مـن تودُّ، فقل له ∴ أطـع الحلـيم إذا الحلـيم نهاكا

ولئـن أبيـت لتأتيـنَّ خلافـه ∴ أربـاً يحوطـك، أو يكون هلاكا

واعلـم بأنك لن تسود، ولن ترى ∴ سُـبل الرشـاد إذا أطعت هواكا

ومما رواه ابن المقفع عن وزير كسرى قوله: ثلاثة ليس لهم رأي فلا تستشيرهم: صاحب الخفّ، وحاقن البول، وصاحب المرأة السوء السليطة.[2]

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن عمر رضي الله عنه حين تأيمت* بنته حفصة قال: لقيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر. قال: سأنظر في أمري. فلبثت ليالي ثم لقيني فقال: قد بدا لي ألا أتزوج يومي هذا. فلقيت أبا بكر الصديق رضي الله عنه فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر. فصمت أبو بكر الصديق رضي الله عنه فلم يرجع إلى شيئاً! فكنت عليه أوجد مني على عثمان، فلبثت ليالي ثم خطبها النبي (ﷺ) فأنكحتها إياه. فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت عليّ حين

---

(١) ابن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص: ١٩٢.

(٢) المصدر السابق، ص: ١٩٤.

*تأيمت: أي صارت بلا زوج. وكان زوجها توفى رضي الله عنه.

عرضت عليَّ حفصة فلم أرجع إليك شيئاً؟ فقلت: نعم. قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليَّ إلا أني كنت علمت أن النبي (ﷺ) ذكرها فلم أكن لأفشي سر رسول الله (ﷺ) ولو تركها النبي (ﷺ) لقبلتها".(١)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كن أزواج النبي (ﷺ) عنده فأقبلت فاطمة رضي الله عنها تمشي ما تخطئ مشيتها من مشية رسول الله (ﷺ) شيئاً، فلما رآها رحب بها وقال: "مرحبا بابنتي"، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم سارَّها فبكت بكاءً شديداً، فلما رأى جزعها سارَّها الثانية فضحكت. فقلت لها: خصك رسول الله (ﷺ) من بين نسائه بالسرار ثم أنت تبكين؟ فلما قام رسول الله (ﷺ) سألتها: ما قال لك رسول الله (ﷺ)؟ قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله (ﷺ) سره. فلما توفي رسول الله (ﷺ) قلت: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما حدثتني ما قال لك رسول الله (ﷺ)؟ فقالت: أما الآن فنعم: أما حين سارني في المرة الأولى فأخبرني أن جبريل كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة أو مرتين وأنه عارضه الآن مرتين. "وأني لا أرى الأجل إلا قد اقترب فاتقي الله واصبري فإنه نعم السلف أنا لك فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارَّني الثانية فقال: "يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة؟ فضحكت ضحكي الذي رأيت.(٢)

وهنا يقول أحد الحكماء: اجعل سرك إلى واحد ومشورتك إلى ألف.(٣)

فلسان العاقل وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه.

ولذلك قيل: لا تفعل شيئاً خفية، لأن الزمن يرى، ويسمع ولا يكتم السر.

كما قيل: سرك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره.

فالقلوب أوعية والشفاه أقفالها والألسن مفاتيحها ... فليحفظ كل إنسان مفتاح سره.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه. وهذا لفظ مسلم.

(٣) مسلم جاسم حميد: ينابيع المعرفة، ص: ١٨.

وقال الإمام على بن أبي طالب رضي الله عنه: العادات قاهرات فمن اعتاد شيئاً في سره وخلوته فضحه في جهره وعلانيته.

من هنا كان لابد من كتمان الأسرار وعدم تبليغها لأحد. لذلك قيل: قلوب الأحرار قبور الأسرار.

والجدير بالذكر أن هذا الخلق قد صار غريباً في هذا الزمان فربما يسمع أحد الناس الكلمة الآن فيحكيها لغالب من يدخل عليه، وربما كان فيها خراب الديار.

ومن فعل ذلك أصبح معدوداً من الفاسقين بنقل النميمة وإفساده بين الناس وإن لم يقصد ذلك.

وفي الحديث: لا يدخل الجنة قتات يعني نمام.

وكان مجاهد رحمه الله تعالى يقول في قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (١).

قال: كانت تمشي بالنميمة بين الناس.

وقد قيل: من علامة النمام الذل بين الناس فلا تكاد تراه عزيزاً أبداً.

وكان يحيى بن أبي كثير رحمه الله تعالى يقول: النمام أشر من الساحر ولا يشعر به أحد فإنه قد يعمل في ساعة ما لا يعمله الساحر في شهر، فإن النميمة سفكت الدماء ونهبت الأموال وهاجت الفتن العظام وأخرجت الناس من أوطانهم وغير ذلك من المفاسد.(٢)

كما كان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يقول: لا يسعى بين الناس بالفساد إلا ولد بغي لأنه يهلك نفسه ويهلك أخاه ويهلك الذي أنهى إليه الكلام.

ويقول الحسن البصرى من نقل إليك نقل عنك، ومن مدحك بما ليس فيك فلا تأمن أن يذمك بما ليس فيك.

---

(١) سورة المسد: الآية: ٤.

(٢) الشعراني: تنبيه المغترين، ص: ٨٧.

وكان منصور بن زاذان رحمه الله تعالي يقول: والله إني لفي جهاد مع كل من جالسني حتى يفارقني فإنه لا يكاد يسلم من تبغيض صديق إلى أو من تبليغ غيبة من اغتابني فيدخل عليَّ الكرب من ذلك.

واعلم أن كتمان الأسرار من أقوى أسباب النجاح وأدوم لصلاح الأحوال.

روي عن النبي (ﷺ) أنه قال: **[استعينوا على الحاجات بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود]**.(١)

وقال على بن أبي طالب كرم الله وجهه: سرك أسيرك فإن تكلمت به صرت أسيره.

وقال بعض الحكماء لابنه يابنيَّ كم جواداً بالمال في موضع الحق ضنيناً بالأسرار عن جميع الخلق، فإن أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البر والبخل بمكتوم السر.

وقال بعض الأدباء: من كتم سره كان الخيار إليه ومن أفشاه كان الخيار عليه.

وقال بعض البلغاء: ما أسرّك ما كتمت سرك.

وقال بعض الفصحاء: ما لم تغيبه إلا ضالع فهو مكشوف ضائع.

وقال أنس بن أسيد :

ولا تفـــش ســــرك إلاً إلـــيك ∴ فـــإن لكـــل نصـــيح نصـــيحاً
فإنـــي رأيـــت وشـــاة الـــرجا ∴ ليـــتركون أديمـــاً صـــحيحاً

وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو كتمه كان من سطوته آمناً وفي عواقبه سالماً ولنجاح حوائجه راجياً.(٢)

وقال أنوشروان: من حصن سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات وإظهار الرجل سر غيره أقبح من إظهار سر نفسه،

---

(١) رواه الحسن البصري في أدب الدنيا والدين، ص: ٣١٠.

(٢) أبو الحسن البصري: أدب الدنيا والدين، ص: ٣١٠.

لأنه يبوء بإحدى وصمتين الخيانة إن كان مؤتمناً أو النميمة إن كان مستودعاً فأما الضرر فربما استويا فيه أو تفاضلا وكلاهما مذموم وهو فيها ملوم.

وفي الإسترسال بابداء السرد دلائل على ثلاث أحوال مذمومة:

إحداها: ضيق الصدر وقلة الصبر حتى أنه لا يتسع لسر ولم يقدر على صبر.

وقال الشاعر :

إذا المـرء أفشـى سـره بلسانه ∴ ولام علـيه غـيره فهـو أحمق

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه ∴ فصدر الذي يستودع السر أضيق

والثانية: الغفلة عن تحذر العقلاء والسهو عن يقظة الأذكياء.

وقد قال بعض الحكماء: انفرد بسرك ولا تودعه حازماً فيزل ولا جاهلاً فيخون.(1)

والثالثة: ما ارتكبه من غرور واستعمله من خطر.

وقد قال بعض الحكماء: سرك من دمك فإذا تكلمت به فقد أرقته. واعلم أن من الأسرار ما لا يستغنى فيه عن مطالعة صديق مساهم، واستشارة ناصح مسالم فليختر العاقل لسره أميناً إن لم يجد إلى كتمه سبيلاً، وليتحرّ في اختيار من يأتمنه عليه ويستودعه إياه فليس كل من كان على الأموال أميناً كان على الأسرار مؤتمناً والعفة عن الأموال أيسر من العفة عن إذاعة الأسرار، لأن الإنسان قد يذيع سر نفسه بمبادرة من لسانه وسقط كلامه ويشح باليسير من ماله حفظاً له وضنناً به ولا يرى ما أضاع من سره كبيراً في جنب ما حفظه من يسير ماله من عظم الضرر الداخل عليه، فمن أجل ذلك كان أمناء الأسرار أشدّ تعذراً وأقل وجوداً من أمناء الأموال. وكان حفظ المال أيسر من كتم الأسرار لأن إحراز الأموال منيعة وإحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق.(2)

---

(1) أبو الحسن البصري: أدب الدنيا والدين، ص. ٣١٠.

(2) المصدر السابق، ص: ٣١١-٣١٢.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: القلوب أوعية الأسرار والشفاه أقفالها والألسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره.

ومن صفات أمين السر أن يكون ذا عقل صادّ ودين حاجز ونصح مبذول وودّ موفور وكتوماً بالطبع فإن هذه الأمور تمنع من الإذاعة وتوجب حفظ الأمانة فمن كملت فيه فهو عنقاء مغرب.

وقيل في منثور الحكم: قلوب العقلاء حصون الأسرار وليحذر صاحب السر أن يودع سره من يتطلع إليه ويؤثر الوقوف عليه فإن طالب الوديعة خائن.

وقال صالح بن عبد القدوّس:

لا تـذع سـراً إلـى طالـبه ∴ منك فالطالب للسـر مذيـع

وليحذر كثرة المستودعين لسره فإن كثرتهم سبب الإذاعة وطريق الإشاعة لأمرين:

أحدهما: أن اجتماع هذه الشروط في العدد الكثير معوز ولابدّ إذا كثروا من أن يكون فيهم من أخل ببعضهما.(1)

والثاني: أن يكون كل واحد منهم يجد سبيلاً إلى نفي الإذاعة عن نفسه وإحالة ذلك على غيره فلا يضاف إليه ذنب ولا يتوجه عليه عتب.

وقد قال بعض الحكماء: كلما كثرت خزائن الأسرار إزدادت ضياعاً.

وقال بعض الشعراء:

وسـرك مـا كـان عـند إمـرئ ∴ وسـر الـثلاثة غـير الخفـي

وقال آخر :

فـلا تـنطق بسـرك كـل سـر ∴ إذا مـا جـاوز الاثنيـن فاشـي

---

(1) أبو الحسن البصري: أدب الدنيا والدين، ص: ٣١١-٣١٢.

ثم لو سلم من إذاعتهم لم يسلم من إدلالهم واستطالتهم فإن لمن ظفر بسر من فرط الإدلال وكثرة الاستطالة ما إن لم يحجزه عنه عقل ولم يكفه عنه فضل كان أشدّ من ذلّ الرق وخضوع التعبد.

ولذلك قال بعض الحكماء: من أفشى سره كثر عليه المتآمرون، فإذا وأرجو أن يوفق للاختيار، واضطر إلى استيداع سره وليته كفى الاضطرار وجب على المستودع له أداء الأمانة فيه بالتحفظ والتناسى له حتى لا يخطر له ببال ولا يدور له في خلد، ثم يرى ذلك حرمة يرعاها ولا يدل إدلال اللئام.[1]

وحكى أن رجلاً أسر إلى صديق له حديثاً ثم قال: أفهمت؟ قال: بل جهلت. قال: أحفظت، قال: بل نسيت.

وقيل لرجل: كيف كتمانك للسر؟ قال: أحجد المخبر وأحلف للمستخبر.

وقال بعض الشعراء:

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت ∴ مـنى الضـلوع علـى الأسرار

لكنـت أول مـن ينسـى سرائره ∴ إذ كنت من نشرها يوماً على خطر

وحكى أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر فقال ابنه:

ومسـتودعي سـراً تضمنت سره ∴ فأودعـته من مستقر الحشا قبرا

ولكننـي أخفـيه عنـي كأننـي ∴ من الدهر يوماً ما أحطت به خبرا

ومـا السر في قلبي كميت بحفرة ∴ لأني أري المدفون ينتظر النشرا

وقد قيل: خير الصديق هو الذي يحفظ السر.

كما قيل: العاقل كاتم سره والجاهل فاضح سره.

من هنا كان على الإنسان أن يكون كاتماً لأسراره ولا يشكو للناس ما به من آلام. وفي هذا الصدد يقول حكيم :

لا تشكو للناس حرجاً أنت صاحبه ∴ لا يؤلـم الجـرح إلا من به الألم

---

(١) أبو الحسن البصري: أدب الدنيا والدين، ص: ٣١٢.

ولذلك قيل:

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة. فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة.

وإياك ومؤاخاة الأحمق، فإنه يضرك من حيث يريد أن ينفعك... سرك.

ويقول الإمام على رضي الله عنه: الكلام في وثاقك ما لم تتكلم به، فإذا تكلمت به صرت في وثاقه.(١)

وقد عبر عن هذا ابن الجوزي بقوله: رأيت أكثر الناس لا يتمالكون من إفشاء سرهم، فإذا ظهر عاتبوا من أخبروا به.

فواعجباً كيف ضاقوا بحبسه ذرعاً ثم لاموا من أفشاه.

وفي الحديث: "استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان".

ولعمري إن النفس يصعب عليها كتم الشيء، وتري بإفشائه راحة، خصوصاً إذا كان مرضاً أو هماً أو عشقاً.

وهذه الأشياء في إفشائها قريبة. إنما اللازم كتمانه احتيال المحتال فيما يريد أن يحصِّل به غرضاً.(٢)

فإن من سوء التدبير إفشاء ذلك قبل تمامه، فإنه إذا ظهر بطل ما يراد أن يفعل، ولا عذر لمن أفشى هذا النوع.

وقد كان النبي (ﷺ) إذا أراد سفراً ورّى بغيره.

فإن قال قائل: إنما أحدث من أثق به.

قيل له: وكل حديث جاوز الاثنين شائع، وربما لم يكتم صديقك. وكم قد سمعنا من يحدّث عن الملوك بالقبض على صاحب فَنَمّ الحديث إلى الصاحب وهرب ففات السلطان مراده.

---

(١) مسلم جاسم حميد: ينابيع المعرفة، ص: ٦٣.

(٢) ابن الجوزي: صيد الخاطر، تحقيق عبد القادر عطا (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٩م) ص: ٣٠٩-٣١٠.

وإنما الرجل الحازم الذي لا يتعداه سره ولا يفشيه إلى أحد.

ومن العجز إفشاء السر إلى الولد والزوجة.

والمال من جملة السر. فاطلاعهم عليه، إن كان كثيراً فربما تمنوا هلاك الموروث. وإن كان قليلاً تبرموا بوجوده.

وربما طلبوا من الكثير على مقدار كثرته فأتلفته النفقات.

وستر المصائب من جملة كتمان السر، لأن إظهارها يسر الشامت ويؤلم المحب.(١)

وكذلك ينبغي أن يكتم مقدار السن، لأنه إن كان كبيراً استهرموه، وإن كان صغيراً احتقروه.

ومما قد انهال فيه كثير من المفرطين أنهم يذكرون بين أصدقائهم أميراً أو سلطاناً فيقولون فيه فيبلغ ذلك إليه فيكون سبب الهلاك.

وربما رأى الرجل من صديقه إخلاصاً وافياً فأشاع سره.

وقد قيل :

احـذر عـدوك مـرة ∴ واحـذر صـديقك ألـف مـرة

فلـربما انقلـب الصـديق ∴ فكـان أدرى بالمضـرة

وربّ مفشٍ سره إلى زوجة أو صديق فيصير بذلك رهيناً عنده، ولا يتجاسر أن يطلق زوجته، ولا أن يهجر الصديق، مخافة أن يظهر سره القبيح.(٢)

فالحازم من عامل الناس بالظاهر، فلا يضيق صدره بسره، فإن فارقته امرأة وصديق أو خادم لم يقدر أحد منهم أن يقول فيه ما يكره.

---

(١) ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص: ٣١٠-٣١١.

(٢) المصدر السابق، ص: ٣١١.

ومن أعظم الأسرار الخلوات، فليحذر الحازم فيها من الانبساط بمرأى من مخلوق. ومن خلق له عقل ثاقب وله على الصواب قبل الوصايا.

فلا ينبغي للعاقل قبل أن يظهر سراً حتى يعلم أنه إذا ظهر لا يتأذي بظهوره.

ومعلوم أن السبب في بث السر طلب الإستراحة ببثه، وذلك ألم قريب فليصبر عليه.

فرب مظهر سراً لزوجته، فإذا طُلقت بثته، وهلك.

أو لصديقه فيظهره عليه حسداً له إذا كان مماثلاً، وإن كان عامياً. فالعامي أحمق. ورب سر أظهر فكان سبب الهلاك.(١)

وروى سفيان الثوري بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (ﷺ): **[ثلاث من كنوز البر، إخفاء الصدقة، وكتمان الشكوى، وكتمان المصيبة].**

يقول الله تعالى: "إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عواده، أبدلته لحماً خيراً من لحمه، ودماً خير من دمه، فإن أبرأته، أبرأته ولا ذنب له، وإن توفيته فإلى رحمتي".(٢)

وينبغي لمن تظاهرت نعم الله عز وجل عليه أن يظهر منها ما يبين أثرها، ولا يكشف جملتها، وهذا من أعظم لذات الدنيا التي يأمر الحزم بتركها، فإن العين حق.

وهنا يقول ابن الجوزي: وإني تَفَقَّدتُ النعم فرأيت إظهارها حلواً عند النفس إلا أنها إن ظهرت لودود لم يؤمن تشعث باطنه بالغيظ.

وإن أظهرت لعدو فالظاهر إصابته بالعين لموضع الحسد، إلا أنني رأيت شر الحسود كاللازم، فإنه في حالة البلاء يتشفي، وفي حال النعم يصيب بالعين.

---

(١) ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص: ٥٥١-٥٢٢.

(٢) عبد الحليم محمود: سفيان الثوري (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٦م) ص: ٩٤.

ولعمري إن المنعم عليه يشتهي غيظ حسوده، ولكنه لا يؤمن أن يخاطر بنعمته، فإن الغالب إصابة الحاسد لها بالعين، فلا يساوي الالتذاذ بإظهار ما غيظ به ما أفسدت عينه بإصابتها.(١)

وكتمان الأمور في كل حال فعل الحازم، فإنه إن كشف مقدار سنه استهرموه إن كان كبيراً، واحتقروه إن كان صغيراً.

وإن كشف ما يعتقده ناصبة الأضداد بالعداوة.

وإن كشف قدر ماله استحقروه إن كان قليلاً، وحسدوه إن كان كثيراً، وفي هذه الثلاثة يقول الشاعر :

احفــظ لســانك لا تــبح بــثلاثة ∴ ســن ومال ما استطعت ومذهب

فعلـــى الـــثلاثة تبتلـــي بـــثلاثة ∴ بممـــوه وممخـــرق ومكـــذب

ويعود ابن الجوزي فيقول ناصحاً لمن يبيح بالسر وقس على ما ذكرت ما لم أذكره، ولا تكن من المذاييع الغر الذين لا يحملون أسرارهم حتى يفشوها إلى من لا يصلح. ورب كلمة جرى بها اللسان هلك بها الإنسان. فينبغي كتمان ما لا يصلح إظهاره.

وكذلك الأسرار ينبغي أن تُحفظ وأن يحذر منها، ومن الصديق، فربما انقلب. فقد قال الشاعر :

احـــــذر عـــــدوك مـــــرة ∴ واحـــذر صـــديقك ألـــف مـــرة

فلـــــربما انقلـــــب الصـــــديق ∴ فكـــــان أعلـــــم بالمضـــــرة

ومما يروى أن جارية لبعض الخلفاء كانت تحبه حباً شديداً، ولا تظهر له ذلك، فسئلت عن هذا، فقالت: لو أظهرت ما عندي فجفاني هلكت.

قال الشاعر :

لا تُظهـــرن مـــودة لحبيـــب ∴ فـــترى بعيـــنك مـــنه كل عجيب

---

(١) ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص: ١٤٥-١٤٦.

أظهـرت يومـاً للحبيـب مودتي ∴ فـأخذت مـن هجـرانه بنصيبي

وكذا ينبغي أن تكتم بعض حبك للولد، لأنه يتسلط عليك، ويضيع مالك، ويبالغ في الإدلال ويمتنع عن التعلم والتأدب.

وكذلك إذا اصطفيت صديقاً وخبرته، فلا تخبره بكل ما عندك، بل تعاهده بالإحسان كما تتعاهد الشجرة، فإنها إن كانت جيدة الأصل حسنت ثمرتها بالتعاهد، ثم كن منه على حذر فقد تتغير الأحوال.(١)

وأما إذا أبغضت شخصا لأنه يسوؤك فلا تظهرن ذلك، فإنك تنبهه على أخذ الحذر منك، وتدعوه إلى المبارزة، فيبالغ في حربك والاحتيال عليك، بل ينبغي أن تظهر له الجميل إن قدرت، وتبره ما استطعت حتى تكسر معاداته بالحياء من بغضك فإن لم تطق فهجر جميل، لا تبين فيه ما يؤذي.

ومتى سمعت منه كلمة قزعة فاجعل جوابها كلمة جميلة. فهي أقوى في كف لسانه. وكذلك جميع ما يخاف إظهاره، فلا تتكلمن به، فربما وقعت كلمة أسقطت بها عز السلطان، فنقلت إليه، فكانت سبب هلاكك. أو عن صديق فكانت سبب عداوته، أوصرت رهيناً لمن سمعها خائفاً أن يظهرها.

فالحزم كتمان الحب والبغض.(٢)

ومن كلام الحكماء: من أطلق طرفه كثر أسفه، إدمان النظر يكشف الخبر ويفضح البشر، ويطول به المكث في سقر. احفظ عينيك فإنك إن أطلعتهما أوقعتك في مكروه وإن ملكتهما ملكت سائر جوارحك.

وسأل رجل عبد الله بن المبارك عن مسألة فأجاب فقال: أعد عليَّ فقال أنا في ندامة.(٣)

والمقصود هنا أن ابن المبارك وقف موقف الندم لأنه تكلم في مسائل لا يجوز سماعها إلا لأهلها.

---

(١) ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص: ٤٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص: ٤٢٣.

(٣) أبو طالب: علم القلوب، ص: ٥٥.

وعن كتمان السر كان رسول الله (ﷺ) ينهى الزوجين عن التحدث بما يجرى حال الوقاع وغيره ويقول إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه ثم ينشر سرها. وكان (ﷺ) كثيراً ما يقول هلا أغلق أحدكم بابه وأرخى ستره ولم يحدث أحداً بما فعل في بيته، فإنما مثل من فعل ذلك مثل شيطان وشيطانة لقي أحدهما صاحبه في وسط الطريق فقضي حاجته منها والناس ينظرون إليه.(١)

ومن وصايا لقمان بن عنقاء بن بيرون لابنه: يا بني: كتمان السر صيانة للعرض، يا بني: إن أردت أن تقوى على الحكمة فلا تُملك نفسك للنساء، فإن المرأة حرب ليس فيها صلح، وهي إن أحبتك أكلتك، وإن أبغضتك أهلكت.(٢)

ومما أوصى به أبو بكر الصديق رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان، وهو مشيع له، أن قال له: إذا قدمت على أهل عملك، فعدهم الخير وما بعده، وإذا وعدت فأنجز، ولا تكثرن عليهم الكلام، فإن بعضهُ ينسي بعضاً، وأصلح من نفسك، يصلح الناس لك، وإذا قدمتْ عليك رسل عدوك، فأكرم منزلتهم، وأكرم مثواهم، فإنه أول خيرك إليهم، وأقلل حبسهم حتى يخرجوا جاهلين بما عندك، وامنع من قِبلَك من محادثتهم، وكن أنت الذي تلي كلامهم، ولا تجعل سرك مع علانيتك، فيمرح عمالك، وإذا استشرت فاصدق الخبر، تصدق لك المشورة، ولا تكتم المستشار فتؤتي من قبل نفسك، وإذا بلغك عن العدو عورة فاكتمها حتى تعاينها، واستر في عسكرك الأخبار، وأذكِ حرسك، وأكثر من مفاجأتهم في ليلك ونهارك، وأصدق اللقاء إذا لقيت، ولا تجبن فيجبن من سواك.(٣)

ولقد أوصي الحارث المذحجي بنيه حين حضرته الوفاة فقال لهم: يا بني، قد أتت عليَّ مائة وستون سنة، ما صافحت يدي يمين غادر، ولا أبحت لصديق بسر، وإني لعلى دين شعيب النبي، وما عليه أحد من العرب غيري،

(١) الشعراني: كشف الغمة، ج٢، ص: ١٠٤.
(٢) عبد الرحمن الضبع: الأنابيش، ج٢، ص: ١٩.
(٣) المرجع السابق، ج٣، ص: ٧٠-٧١.

وغير أسد بن خزيمة، وغيم بن مرة، فاحفظوا وصيتي، وموتوا على شريعتي: إلهكم فاتقوه يكفكم المهم من أموركم، ويصلح لكم أعمالكم، وإياكم ومعصيته حتى لا يحل بكم الدمار ويوحش منكم الديار.(١)

يا بني، كونوا جميعاً ولا تفرقوا فتكونوا شيعاً، وإن موتاً في عز، خير من حياة في ذل وعجز، وكل ما هو كائن كائن، وكل جمع إلى تباين، والدهر ضربان: ضرب رخاء وضرب بلاء، والناس رجلان: فرجل معك، ورجل عليك، والقطيعة تورث الهم وانتهاك الحرمة يزيل النعمة، وعقوق الوالدين يعقب النكد ويمحق العدد.

يابني، إني أكلت مع أقوام وشربت فذهبوا وعبرت، وكأني بهم قد لحقت. رجل معمر ذو تجربة وحنكة ودراية وبصر بالأمور، ذاق حلو الزمان ومره وكابد عسره ويسره، فإذا تحدث فإنما يصدر عن خبرة وينطق عن حكمة ويقول فصلاً.(٢)

أوصي بقطيعة الغادر وكتمان السر، إذ الغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم، ومن تخلق به لا تؤمن بوائقه، ولا تحمد سريرته ولا تدوم عشرته، وإفشاء السر مفسد للتدبير، مضيع للتقدير، وكتمانه من أهم أسباب النجاح وبلوغ القصد. وثاني ما أوصى به، تقوى الله في السر والعلن، خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه، فالتقوى خير ما يتزود به المرء في دنياه، وما لزمها قوم إلا عزوا وسادوا، وما هجرها قوم إلا ضعفوا وذلوا، وباءوا بخسران مبين.

وحث على الألفة وحذر من الفرقة، فيد الله مع الجماعة، وهل جل شأنه آخذ بناصيتهم وما اتفقت كلمتهم، وائتلفت قلوبهم وليس في الفرقة إلا الندامة والحسرة وسوء المنقلب، وقانا الله شر ذلك.

واختتم وصيته بطائفة من صالح القول ومأثور الحكم.

---

(١) عبد الرحمن الضبع: الأنابيش، ج٣، ص: ٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص: ٧٩.

ويقول المحاسبي في: "المسائل في أعمال القلوب والجوارح".

الأسرار بالعمل على نوعين :

أحدهما: إخفاء عمل الجوارح من أبصار الخلائق وأسماعهم.

والنوع الثاني: إخفاء ما تضن به القلوب وتخفيه عن العباد وأبصارهم، وإن كانت أعمال الجوارح لهم بادية.

فلا يبدي الصادقون من أعمال الجوارح إلا ما كان إبداؤه أقرب إلى مليكهم، ولو أمكنهم القربة بذلك من غير إظهار لأعمالهم لم يظهروها، لأنهم قانعون بعلم من يعاملون، ولكن لا يمكنهم ذلك لخلتين:

إحداهما: أن من الأعمال ما لا يمكن فعله سراً، وقد مدح الله سبحانه وتعالى السر والعلانية، فالسر أفضل ما أمكن العمل سراً، فإذا لم يكن فالعلانية أولى من ترك العمل.

والخلة الثانية: أنهم قد يمكنهم العمل سراً، ولكن أظهروه للقدوة من غيرهم بهم، رغبة من أن يصيبوا مثل أجور من اقتدي بهم، مع أجورهم.

وليست القدوة لكل أحد تجوز في أكثر الأعمال، ولكن لمن قوي على دفع التصنع في وقت عمله وبعده، ومن كان موضعاً للقدوة.

والعبد الصادق فيما يظهر يستحي من الله أن يظهر من عمله أكثر مما يسر، بل لا يكاد يكون في عمله إلا وسره أفضل من ظاهره، لأن الله تعالى ينفرد بعمل يعمله سره، وإنما يظهر من عمله ما لا يجد بداً من إظهاره.[(١)]

فأقل عمله يظهر مع سر منه في ضميره إذا أبداه بجوارحه، كالبكاء والتحزن وشدة التضرع، وكل ذلك يجب أن يستره من العباد إذا أظهر العمل بجوارحه إلا ما قد غلبه منه.

---

(١) المحاسبي: المسائل في أعمال القلوب والجوارح، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا (القاهرة: دار التراث الإسلامي، سنة ١٩٨٦م) ص: ٤٥.

وقد روى في الحديث "أن العبد إذا أظهر العمل بجوارحه فاستوت سريرته وعلانيته، قال الله: هذا عبدي حقًا".

واستواء السريرة والعلانية على الوجهين:

أحدهما في الفرض. والآخر في النافلة.

فما كان في الفريضة فكانت سريرته أقل من علانيته فيما يخفي من عمل جوارحه، وما يخفي من ضمير قلبه فقد جار وأساء.

والوجه الآخر أن يكون في النافلة، فإن كانت سريرته أقل من علانيته فيما يخفي من عمل جوارحه، فقد يكون في ذلك جائزاً مسيئاً، وقد لا يكون مسيئاً.

فأما الذي يكون فيه مسيئاً فهو أن يكون ما يظهره من الزيادة من عمل الجوارح على ما يخفي ويستر، ليكثرها ويكملها، تصنعاً للعباد، وحباً للمنزلة عندهم.(1)

والوجه الآخر الذي لا يكون به مسيئاً، ويكون منقوصاً، أن يكون يزداد على ما يخفي من نافلته، لاتعاظهم واعتبارهم، ولا يعتبر هذا مسيئاً في سريرته لأنه يذكر الله بالكمال.

فأما زيادة ظاهرة على ما سمي، فيما يظهر من عمله في عقد صدقة، فلا يكون به إلا مسيئاً، لأن ذلك لا يكون إلا تصنعاً ورياء لهم.

والناس في استواء السريرة والعلانية على ثلاثة أوجه:

فإذا زادت العلانية على السريرة، لم تخل أن تكون معصية أو نقصاً، إلا ما تريد به القدوة.

وإن استوت السريرة والعلانية، فذلك منة وفضل، وعظم في درجة الطاعة، وشرف المقام.(2)

---

(١) المحاسبي: المسائل في أعمال القلوب والجوارح، ص: ٤٦.

(٢) المصدر السابق، ص: ٤٧.

ولولا أن الآثار جاءت بفضل السر على العلانية، وإن النفس والعدو ينازعان إلى طلب حمد المخلوقين، وخوف مذمتهم، وأن العبد لا يجوز أن يأنس بالمخلوقين كأنسه بالصلاة، ما كان ينبغي له أن يكون في علانيته مثله في سريرته، حتى يبدي إذا حضروه مثل ما يخفي إذا حضروه.

فهم في نظرهم إلى عمله وزوال النظر منهم واحد، ولا يوجب نظرهم خيراً في دين ولا في دنيا، لأنهم كالبهائم في نظره، من جهة المنفعة له في دنياه وفي آخرته. إذ لا يملكون نفعاً ولا ضرًّا.

ولكن جاءت الآثار بفضل السر، وهو أحرز العملين، وأبعد من قوة الخاطر. والعامل المحب لله تعالى ينقبض عن الخلق، ولا يأنس بهم، وبالخالق، فيبدي كل ما عنده إليه.

وقال: ثلاث خلال يرثها القارئ محبوباته لله عز وجل خوفاً مما يباعده منه:

إحداها: أن يألف في العمل حلاوة الآمال في الله عز وجل، أن يطالع بالرضى على من ترك محبته لمحبته.

والثانية: إياس النفس مما عودها من الركون إلى ما يكره الله عز وجل، مما تستلذ به ويسرها، لأن من عودته عادة ثم منعته لم ييأس مما عودته.(١)

فإذا أمنت المن، ورأت الجد في المنع له أمنت فسكنت، فإذا أيست النفس فسكنت عن المنازعة، بقي العمل بحلاوة معاملته ومناجاته.

والثالثة: أن الله عز وجل يقبل عليه بالمعونة له إذ يسر للسالكين إليه تسهيله، أو تخفيه عليهم، فيصير الغم منه فيما كان يسره، ويصير سروره فيما كان يغتم به، لأن سروره كان في إصابة لذته، فصار في تركها رضى لربه، وصار غمه في الركون إليها خوفاً من سخط ربه، وأن يسقط من عينه.

---

(١) المحاسبي: المسائل في أعمال القلوب والجوارح، ص: ٤٨.

وما يصيب من لذة الترك لأجل الرضي، أكثر من لذة الركون إلى العمل لله عز وجل، لأنه لو ركن إلى ذلك العمل كانت لذته في وقت ركونه فقط، فإذا ترك شهوته لله تلذذ بل ما صحب الدنيا إذا ذكر أنه تركها لله، وأنه يرجو أن يكون قد رضي عنه.

ودوام عز الوثيقة في القلب أكثر من لذة الشهوة، لأنه يلتذ بموافقته في وقت شهوته، فإذا غفل عن ترك شهوته اهتم أيام حياته، إذا كان لا يأمن أن يكون الله تعالى وقد سخط عليه بذلك.(١)

وقد قيل خمس خصال تزيد المرء هيبة وكمالاً: لزوم الصمت، وترك مالاً يعنيه، والنظر إلى عيوب نفسه، وترك عيوب غيره، والاستعانة على إنجاح الحوائج بالكتمان.

ويقول الإمام على رضي الله عنه: فاعل الخير خير منه. وفاعل الشر شر منه. لا فرق بين من يفشي سراً اؤتمن عليه ومن يختلس مالا أودع عنده.

وقالت أعرابية توصي ابنتها ليلة زفافها: إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت وعشك الذي فيه درجت إلى وكر لا تعرفيه وقرين لم تألفيه. فكوني له أمة يكن لك عبداً واصطحبيه بالقناعة وعاشريه بحسن السمع له والطاعة، ولا تعصي له أمراً، ولا تفشي له سراً، وكوني أشد الناس له إعظاماً وآثري هواه على هواك.(٢)

وعن يونس بن عبيد الله أنه قال: إني وجدت نفسي تحتمل مؤنة الصيام في الحر الشديد بالبصرة ولا تحتمل ترك كلمة لا تعنيها. فعليك إذن بالتحفظ جداً وبذل المجهود.

ونذكر هنا خمسة أصول في حفظ اللسان:

أحدها: ما روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن ابن آدم إذا أصبح بكرت الأعضاء كلها إلى اللسان وقلن له ينشدك الله أن تستقيم فإنك إن استقمت

---

(١) المحاسبي: المسائل في أعمال القلوب والجوارح، ص: ٤٨.

(٢) حلمي عبد الحميد: مختارات إسلامية، ص: ١٥٤.

استقمنا وإن اعوججت إعوججنا. قلت: والمعنى فيه والله أعلم أن نطق اللسان يؤثر في أعضاء الإنسان بالتوفيق والخذلان.(١)

ويؤكد هذا المعنى ما حكي عن مالك بن دينار أنه قال: إذا رأيت قساوة في قلبك ووهنا في بدنك وحرماناً في رزقك فاعلم أنك تكلمت فيما لا يعنيك.

والأصل الثاني: حفظ وقتك فإن أكثر ما يتكلم به الإنسان من غير ذكر الله تعالى فعلى الأقل يكون لغواً يضيع الوقت به. وذكر أن حسان بن أبي سنان مر على غرفة بنيت فقال: منذ كم بنيت هذه ثم أقبل على نفسه وقال يا نفسي الغرورة تسألين عما لا يعنيك وعاقبها بصوم سنة، قلت: فيا طوبى للمهتمين بأنفسهم ويا ويح الغافلين الذين خلعوا العذار وأرخوا العنان والله المستعان. ولقد صدق القائل وأحسن حيث يقول:

واغنم ركعتين في ظلمة الليل ∴ إذا كنت خالياً مستريحاً

وإذا هممت باللغو في الباطل ∴ فاجعل مكانه مستبيحاً

ولزوم السكوت خير من النطـ ∴ ـق وإن كنت في الكلام فصيحاً

والأصل الثالث: حفظ الأعمال الصالحة فإن لم يصن لسانه وأكثر الكلام يقع لا محالة في غيبة الناس. كما قيل من كثر لفظه كثر سخطه، والغيبة هي الصاعقة المهلكة للطاعات على ما قيل إن مثل من يغتاب الناس مثل من نصب منجنيقاً فهو يرمي به حسناته شرقاً وغرباً يميناً وشمالاً.

وبلغنا عن الحسن أنه قيل له يا أبا سعيد إنَّ فلاناً اغتابك فبعث إليه بطبق فيه رطب وقال: بلغني أنك أهديت إليّ حسناتك فأحببت أن أكافئك.(٢)

وذكرت الغيبة عند ابن المبارك فقال: لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت أمي لأنها أحق بحسناتي.(٣)

---

(١) رواه الترمذي والطبراني والبيهقي وغيرهم بلفظ: "إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا". وتكفر اللسان أي تذل وتخضع له.

(٢) الغزالي: منهاج العابدين، ص: ٨١-٨٢.

(٣) المصدر السابق، ص: ٨٢.

والأصل الرابع: السلامة من آفات الدنيا على ما قال سفيان لا تتكلم بلسانك ما تكسر به أسنانك.[1]

وقال آخر: لا تبطي لسانك فيفسد عليك شأنك.

وأنشدوا :

احفظ لسانك لا تقول فتبتلي ∴ إن البلاء موكل بالمنطق

ولابن المبارك رضي الله عنه :

ألا احفظ لسانك إن اللسان ∴ سريع إلى المرء في قتله

وإن اللسان دليل الفؤاد ∴ يدل الرجال على عقله

ولابن أبي المطيع رحمه الله :

لسان المرء ليث في كمين ∴ إذا خلى عليه له إغارة

فصنه عن الخنا بلجام صمت ∴ يكن لك من بلبات ستارة

وفي المثل السائر رب كلمة تقول لصاحبها دعني نسأل الله التوفيق برحمته.

والأصل الخامس: ذكر آفات الآخرة وعواقبها. وأذكر فيه نكتة واحدة هي أنه لا يخلو إما أن تقول قولاً محظوراً حراماً أو قولاً مباحاً من فضول لا يعنيك، فإن كان محظوراً حراماً ففيه من عذاب الله تعالى الذي لا طاقة لك به.

فقد روى عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: ليلة أسري بي رأيت في النار قوماً يأكلون الحيف. فقلت يا جبريل من هؤلاء. قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس. ولقد قال (ﷺ) لمعاذ: "اقطع لسانك عن حملة القرآن وطلاب العلم ولا تمزق الناس بلسانك فتمزقك كلاب النار".[2]

وعن أبي قلابة أنه قال: إن في الغيبة خراب القلب من الهدى فنسأل الله تعالى العصمة من ذلك بفضله هذا في الكلام المحظور. وأما المباح ففيه أربعة أمور:

---

(١) الغزالي: منها ج العابدين، ص: ٨٤.

(٢) المصدر السابق، ص: ٨٤-٨٥.

أحدها: شغل الكرام الكاتبين بما لا خير فيه ولا فائدة. وحق المرء أن يستحي منهما فلا يؤذيهما. قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (١).

والثاني: إرسال كتاب الله سبحانه وتعالى من اللغو والهذر فليحذر العبد من ذلك وليخش الله عز وجل. وذكر أن بعضهم نظر إلى رجل يتكلم بالخنا فقال يا هذا ويحك إنما تملي كتاباً إلى ربك فانظر ماذا تملي.(٢)

والثالث: قراءته بين يدي الملك الجبار يوم القيامة على رءوس الأشهاد بين الشدائد والأهوال عطشان عريان جوعان منقطعاً عن الجنة محبوساً عن النعمة.

والرابع: اللوم والتعيير بماذا قلت وانقطاع الحجة والحياء من رب العزة. فقد قيل: إياك والفضول فإن حسابه يطول. وكفى بهذه الأصول واعظاً لمن اتعظ. وقد قيل: من كتم: تم، ومن باح ناح، لأن من باح بسر نفسه ندم. لأنه كما قيل: السر في الكتمان.

كما قيل: الصبر مرادف للكتمان إن كان قدرة على إخفاء السر.(٣)

وكذلك من الصبر كتمان المصائب والأوجاع وترك الاستراحة إلى الشكوى بها فذلك الصبر الجميل. قيل: هو الذي لا شكوى فيه ولا إظهار.

وقال بعض السلف: لا يتم المعروف إلا بثلاث: تعجيله وتصغيره وكتمه.

ويقول أبو الدرداء في علم السلوك: ثلاث تجعل المرء يملك زمام نفسه: الأمر الأول: لا تشكو مصيبتك، والأمر الثاني: لا تتحدث بوجيعتك، والأمر الثالث: لا تزكي نفسك بلسانك.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: "القلوب أوعية، والشفاه أقفالها، والألسنة مفاتيحها، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره".

---

(١) سورة: ق: الآية: ١٨.

(٢) الغزالي: منها ج العابدين، ص: ٨٥.

(٣) عثمان أمين: الجوانية (القاهرة: دار القلم، ١٩٦٤م) ص: ٢٨٨.

ومن حبس كلمة السوء كان سيداً لها، ومن لفظ كلمة الشر أصبح عبداً لها مقيداً بها محاسباً عليها، ومن أمسك الفضل من قوله سلم، ومن أطلق لسان الذم ندم، وكف اللسان خلق الشجعان وإطلاق عنان الملام من سوء الخلق وزعزعة الإيمان.

قال (ﷺ): **[إن الله يحب الحليم الحيى، ويبغض الفاحش البذي].**

وامتدح الله المتقين بقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١).

وقد صح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين أما أحدهما فبثثته في الناس وأما الآخر فلو أبثه لقطع هذا البلعوم.

وقد روي عن الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه كتب إلى أبي بكر بن حزم: "انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه. فإن خفت دروس العلم، وذهاب العلماء، وليفشوا العلم، وليجلسوا له حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً.(٢)

وقد قال بعض العارفين: "أسرارنا بكر لا يفتضها وهم واهم".(٣)

لذلك اختلفت الآراء ووجهات النظر عند تناول الإفصاح والكتمان. فقد أثيرت هذه المسألة لما كان قد اتهم به كل من البسطامي، والحلاج، وموقف كل من الجنيد والشبلي من محنة الحلاج أثناء محاكمته. فقد رفضا الصورة التى باح بها في شطحاته. وإن كان يتفقان معه في مضمونها. ولكن لم يفتأ الحلاج حتى يبوح بالسر فيقتل بسيف الشرع لإفصاحه.

قال الشبلي: "كنت أنا والحسين بن منصور شيئاً واحداً، إلا أنه أظهر وكتمت. أما الجنيد فيستنكر الإفصاح لأن العبد يجب أن يكون ثابتاً كالجبل الأشم.

---

(١) سورة آل عمران: الآية: ١٣٤.

(٢) أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: الإنسان والكون (القاهرة: دار الثقافة، ١٩٧٥م) ص: ٢٢.

(٣) الطوسي: اللمع، ص: ٣٠٤.

وقد قيل: السر مالك عليه إشراف، أما سر السر: فهو ما لا إطلاع عليه لغير الحق، ويقولون: الأسرار معتقة عن رق الأغيار من الآثار والإطلاق، ويطلق لفظ السر على ما يكون مصوناً مكتوباً ما بين العبد والحق سبحانه وتعالى.(١)

كما قيل :

قنعـت بعلـم الله ذخري وواجدي ∴ بمكـتوم أسرار تضمنها صدري

فلـو جـاز ستر الستر بيني وبينه ∴ إلى القلب والأحشاء لم يعلما سرّي

ويتضح من هذا القول السابق لأحمد بن أبي الحواري معنى: "الإفصاح والكتمان" الذي تداول بين العارفين فيما بينهم فمن أفصح عن السر فقد هتك أسرار محارم الله، وهذا الإفصاح أدى إلى قتل الحلاج الثائر الروحي في الإسلام بسيف الشرع لأنه أفصح عن سره. وهذا ما أوضحناه.

أما الكتمان فقد أنجى صاحبه وهو أبو بكر الشبلي فقد قال: إن الحلاج قد أفصح وأما أنا فكتمت فنجوت.

فابن أبا الحواري كتم سر معرفة الله في قلبه فربط بين العلم والمعرفة المكنونة المتوجه بحب الله فلا تعلم جارحة من جوارحه به لأنه سر بينه وبين ربه وهذا أدى بابن أبى الحواري أن يتغنى بالحب الإلهي.

وقد قيل: إنَّ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام سراً، وللعلماء رضي الله عنهم سراً، وإن للملوك سراً. فلو أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أظهروا سرهم للعامة لفسدت النبوة، ولو أن العلماء رضي الله عنهم أظهروا سرهم للعامة لفسدت عليهم، ولو أن الملوك أظهروا سرهم للعامة لفسد ملكهم.(٢)

(١) القشيري: الرسالة، ص: ٤٤-٤٥.

(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ٤٨.

كما قيل: أصل العقل الصمت، وفرع العقل العافية، وباطن العقل كتمان السر، وظاهره الاقتداء بالنبي (ﷺ).[1]

وكتم السر من شيم الأحرار، وخلق الأبرار، والمحافظة على الأسرار.[2]

ويقول الشاعر في ذلك :

لاجزى الله دمع عيني خيراً ∴ وجزى الله كل خير لساني

ثم دمعي فليس يكتم شيئاً ∴ ووجدت اللسان ذا كتمان

ويقول أحد الحكماء: اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك.

وقال آخر: إن أمكنك أن تجعل لك خبئاً من الخير فافعل.[3]

فكتمان السر خلق مركب من الوقار، وأداء الأمانة. فإن إخراج السر من فضول الكلام. وليس بوقور من تكلم بالفضول.[4]

وأيضاً، فكما أن من استودع مالاً فأخرجه إلى غير صاحبه، فقد خفر الأمانة.*

وكتمان السر محمود من جميع الناس، وخاصة ممن يصحب السلطان، فإن إخراجه أسراره ــ مع أنه قبيح ــ يؤدي إلى ضرر عظيم، يدخل عليه من سلطانه. وإفشاء السر من الأخلاق الرديئة. وهذا الخلق مركب من الخرق والخيانة، فإنه ليس بوقور من لم يضبط لسانه، ولم يتسع صدره لحفظ ما يستسر له. والسر أحد الودائع، وإفشاؤه نقيصة على صاحبه. فالمشي للسر: خائن. وهذا الخلق قبيح جداً، وخاصة ممن يصحب السلاطين ويداخلهم.

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني: الحلية، ج١٠، ص: ٢٠٣.

(٢) ابن الخطيب: روضة التعريف بالحب الشريف، ص: ٦٤٤.

(٣) الغزالي: منها ج العابدبن، ص: ٢١٥.

(٤) ابن عربي: تهذيب الأخلاق، ص: ٢٧.

*خفر الأمانة: أضاعها.

ومن قبيل إفشاء السر: النميمة، وهو أن يبلغ إنساناً عن آخر قولاً مكروهاً. وهذا الخلق قبيح جداً.

وإن لم يستتر أيضاً بما يسمعه أو يبلغه، فنقله إلى من يكرهه: قبيح، لأن في ذلك إيقاع وحشة بين المبلغ والمبلغ عنه. وذلك غاية التشرر.

وكان الجنيد رحمه الله تعالى يقول كثيراً للشبلي لا تفشِ سر الله تعالى بين المحجوبين.(١)

وكان الشافعي يقول: من كتم سره ملك أمره.

وقال أحد العلماء: إذا مكثت الأنوار في السر نطقت الجوارح بالبر.

كما قيل: لن تصل إلى درجات العارفين حتى يسكن سرك إلى الله تعالى وتثق بضمانه فيما وعدك وقسم لك.(٢)

وقد قيل: حقائق الحق إذا تجلت لسر أزالت عنه الظنون والأماني لأن الحق إذا استولى على سر قهره فلا يبقى لغيره معه أثر.

ويحدثنا أحد العلماء فيقول: ليس كل من يصلح للمجالسة يصلح للمؤانسة وليس كل من يصلح للمؤانسة يؤتمن على الأسرار إلا الأمناء.

ومن كلام أحد العلماء: كتمان الحسنات أولى من كتمان السيئات.

وقيل: أربع من كنوز الجنة كتمان المصيبة، وكتمان الفاقة، وكتمان الصدقة، وكتمان الألم.(٣)

ويقول أحد العلماء: من أبدى من أسرار الله تعالى ما لا يليق إبداؤه وأفشى من العلم المكنون ما لا يناسب إفشاؤه عوقب بسوء الظنون فيه أو بما هو فوق ذلك من العقوبات.(٤)

---

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ١٠.

(٢) المصدر السابق، ج١، ص: ٨٧.

(٣) الحريفيش: الروض الفائق في المواعظ والرقائق، ص: ١٠٦.

(٤) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ١٦٩.

ويسوق سمرة بن جندب رأياً يقول فيه: من سره أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما له عنده، ومن سره أن يعلم مكان الشيطان منه، فلينظره عند عمل السر.[1]

ويروى ابن المبارك بسنده عن أبي بكر بن حزم قال: قال رسـول الله (ﷺ): إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله، فلا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره.

وكان أحد العلماء يقول: من كتم سره ملك أمره، ولم يكتم شيئاً من أظهر من الأحوال ما يدل عليه. فلا تظهر لقومك إلا ما تعرف منهم قبوله منك.[2]

وقال آخر: السر في المتكلم لا في كلامه فمتى انبسط المتكلم إلى السامع انشرح له كلامه وإن قل ومتى انقبض المتكلم لم تتبسط للسامع معاني كلامه وإن كثر. والكلام صفة المتكلم فمن وجد الموصوف وجد صفته وإلا فلا إذ الصفة متى انفصلت عن موصوفها زالت مرتبتها وغاب عنها.[3]

وكان أحد الحكماء يقول: ما في القلب يظهر على الوجه، وما في النفس يظهر على الملبوس، وما في العقل يظهر في العين، وما في السر يظهر في القول، وما في الروح يظهر في الأدب، وما في الصورة كلها يظهر في الحركة.

وقيل لبعض الحكماء: من المخلص؟ قال: الذي يكتم حسناته كما يكتم سيئاته.[4]

وسئل الإمام مالك رضي الله عنه عن الحكمة؟ فقال: ما زهد عبد واتقى إلا أنطقه الله بالحكمة، ثم قال: من أراد أن يفتح الله عين قلبه فليكن عمله في السر أكثر من عمله في العلانية لأن عمل السر منبع الإخلاص، والإخلاص منبع الحكمة.[5]

---

(١) عبد الحليم محمود: عبد الله بن المبارك، ص: ١٥٠-١٥١.
(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج٢، ص: ٢٧.
(٣) المصدر السابق، ج٢، ص: ٦٠.
(٤) السمرقندي: تنبيه الغافلين، ص: ٥.
(٥) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص: ٣٢٠.

وعن الحسن أنه قال: يا ابن آدم إن لك قولاً وعملاً وسراً وعلانية، وعملك أولى بك من قولك، وسرك أولى بك من علانيتك.(١)

وكان بشر بن الحارث يقول: اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك.

وقال عمرو بن العاص: ما استودعت رجلاً سرًّا فأفشاه، فلمتُهُ، لأني كنت أضيق صدراً، حين استودعته.

ويقول شاعراً :

لاجـزى الله دمـع عينـي خـيراً ∴ وجـزى الله كـل خـير لسـاني

ثـمَّ دمعـي فلـيس يكـتم شـيئاً ∴ ووجـدت اللسـان ذا كـتمان

كنـت مـثل الكـتاب أخفـاه طي ∴ فاسـتدلوا علـيه بالعـنوان

وقال عليه الصلاة والسلام: [**عليكم بمجالسة العلماء واستماع كلام الحكماء، فإن الله تعالى يحيى القلب الميت بنور الحكمة كما يحيى الأرض الميتة بماء المطر**].

وعن أبي بكر رضي الله عنه قال في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (٢).

قال: البر هو اللسان، والبحر هو القلب، فإذا فسد اللسان بكت عليه النفوس، وإذا فسد القلب بكت عليه الملائكة.(٣)

وعن إبراهيم النخعي: إنما هلك من هلك قبلكم بثلاث خصال: بفضول الكلام، وفضول الطعام، وفضول المنام.

وعن علي رضي الله عنه: من لم يكن عنده سنة الله وسنة رسوله وسنة أوليائه فليس في يده شيء. قيل له: ما سنة الله؟ قال: كتمان السر. وقيل: ما سنة الرسول؟ قال: المداراة بين الناس. وقيل: ما سنة أوليائه؟ قال: احتمال

---

(١) ابن حنبل: الزهد، ص: ٢٨٢.

(٢) سورة الروم: الآية: ٤١.

(٣) ابن حجر: الاستعداد ليوم المعاد (بيروت: موسسة المعارف، ط٦، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص: ١٢.

الأذى من الناس. وكانوا من قبلنا يتواصون بثلاث خصال ويتكاتبون بها: من عمل لآخرته كفاه الله أمر دينه ودنياه. ومن أحسن سريرته أحسن الله علانيته، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس.(١)

وقد قيل: من حفظ اللسان سلم في الدنيا والآخرة.(٢)

كما قيل: إن الرجل يعطي لسانه وقلبه وروحه لأحد غير الله تعالى، فهو يعطي لسانه للسالكين لتقوى رغبتهم، ولينجذبوا بالتلقين والسماع إلى مقامات الوصل والاتصال. ويعطي قلبه للواصلين ليدار عليهم رحيق اليقين من القلب للقلب. ويعطي للمتمكنين روحه لتسوح أرواحهم في ملكوت الله الأعلى فتشرف على قدس الله. أما لسانه وقلبه وروحه فلله وحده.(٣)

ومن الحكم الرائعة: عليك بالسكوت، وارض بالقوت، والزم القنوت، حتى تموت.(٤)

وقال عمر رضي الله عنه: رأيت جميع الأخلاء فلم أر خليلاً أفضل من حفظ اللسان.(٥)

وعن بعض الحكماء أنه قال: من لم يخش الله لم ينج من زلة اللسان.

وسئل بعض الحكماء: هل يعرف العبد إذا تاب أن توبته قبلت أم ردَّت؟

قال: لا أحكم في ذلك، ولكن لذلك علامات: إحداها أن يرى نفسه غير معصومة من المعصية، ويرى في قلبه الفرح غائباً والحزن شاهداً، ويقرب أهل الخير ويباعد أهل الشر، ويرى القليل من الدنيا كثيراً، ويرى الكثير من عمل الآخرة قليلاً، ويرى قلبه مشتغلاً بما ضمن من الله تعالى فارغاً عما ضمن الله تعالى منه، ويكون حافظاً اللسان دائم الفكرة لازم الغم والندامة.

---

(١) ابن حجر: الاستعداد ليوم الميعاد (بيروت: مؤسسة المعارف، ط٦، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص: ٢٣.
(٢) المصدر السابق ص: ٤٦.
(٣) أبو العزائم، محمد ماضي: من جوامع الكلم، ص: ١٥.
(٤) المصدر السابق، ص: ٢٩.
(٥) ابن حجر: الاستعداد ليوم الميعاد، ص: ٦٤.

وعن عثمان رضي الله عنه أنه قال: علامات العارفين ثمانية أشياء: قلبه مع الخوف والرجاء، ولسانه مع الحمد والثناء، وعيناه مع الحياء والبكاء، وإرادته مع الترك والرضا (يعنى ترك الدنيا وطلب رضا مولاه).

وقد قيل: ذكر اللسان حسنات، وذكر القلب قربات ودرجات.[1]

كما قيل: يشغل القلب ظل الكون، ويشغل النفس ظل الملكوت.

وقيل أيضاً: نزه سمعك عن استماع الخنا، كما تنزه لسانك عن القول به، فإن المستمع شريك القائل، وأنه نظر إلى شر ما في وعائه فأفرغه في وعائك.[2]

ويقول الشافعي [3]:

إذا المرء أفشى سره بلسانه ∴ ولام عليه غيره فهو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن سر ∴ فصدر الذي يستودع السر أضيق

كما قال :

احفظ لسانك أيها الإنسان ∴ لا يلدغنك إنه ثعبانُ
كم في المقابر من قتيل لسانه ∴ كانت تهاب لقاؤه الأقرانُ

وقال أيضاً [4]:

إذا رمْتَ أن تحيا سليماً من الردى ∴ ودينك موفور وعرضك صين
فلا ينطقن منك اللسان بسوأة ∴ فكلك سوءات وللناس ألسن
وعيناك إن أبدت إليك معايباً ∴ فدعها، وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف، وسامح من اعتدى ∴ ودافع ولكن بالتي هي أحسن

(١) أبو العزائم، محمد ماضي: من جوامع الكلم، ص: ٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص: ٣٠.

(٣) الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس: ديوان الشافعي، ص: ٦٥

(٤) المصدر السابق، ص: ٨٤.

وكتب إبراهيم بن أدهم إلى سفيان الثورى: من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن أطلق بصره طال أسفه، ومن أطلق أمله ساء عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه.(١)

وقد قيل: اترك نهمة الدنيا تسترح من الغم، واحفظ لسانك تسترح من المعذرة.(٢)

ومن نفيس الكلام في ذلك ما سجله عبد الله الإنطاكي لفتح بن شخرف: يا خراساني، إنما هي أربع لا غير: عينك، ولسانك، وقلبك، وهواك. فانظر عينك لا تنظر بها إلى ما لا يحل، وانظر لسانك لا تقل به شيئاً يعلم الله خلافه من قلبك، وانظر قلبك لا يكن فيه غل ولا حقد على أحد من المسلمين، وانظر هواك لا تهو شيئاً من الشر ... فإذا لم يكن فيك هذه الأربع فقد شقيت.

ومما يروى عن الخراز أنه قال: إن الله تعالى عجل لأرواح أوليائه التلذذ بذكره، والوصول إلى قربه، وعجل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم، وأجزل نصيبهم من كل كائن ... فعيش أبدانهم عيش الجنانيين، وعيش أرواحهم عيش الربانيين. لهم لسانان: لسان في الباطن، يعرفهم صنع الصانع في المصنوع، ولسان في الظاهر يعلمهم علم المخلوقين، فلسان الظاهر يكلم أجسامهم، ولسان الباطن يناجي أرواحهم.

كما قيل: للعارفين خزائن أودعوها علوماً غريبة وأنباء عجيبة، يتكلمون فيها بلسان الأبدية، ويخبرون عنها بعبارة الأزلية.

من هنا يجب أن ننتبه إلى فائدة اللسان عندما ينطق صاحبه بالحكمة والويل له كل الويل عندما يكون غير ذلك فيقف صاحبه موقف النادم الآسف على ما قدم، لذلك كان فساد أكثر الأمور يأتي من خصلتين: إذاعة السر، وإئتمان أهل الغدر.(٣)

(١) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص: ١٣.

(٢) المصدر السابق، ص: ٣٢.

(٣) أبو منصور الثعالبي: درر الحكم، ص: ١٣.

ومما يحكى عن الفضل بن الربيع أنه صار إلى أبي عباد ـ في نكبته ـ يسأله حاجة فأرتج عليه فقال: يا أبا العباس بهذا اللسان خدمت خليفتين! فقال: إنا تعودنا أن نُسأل ولا نَسأل.(١)

وتصديقاً لما نقول: كما فرض الله على الأنبياء إظهار الآيات والمعجزات ليؤمنوا بها، كذلك فرض على الأولياء كتمان الأسرار حتى لا يفتتن الخلق بها.(٢)

ومن الحكم الرائعة: ألسنة مستنطقات، تحت نطقها مستهلكات، وأنفس مستعملات، تحت استعمالها مستهلكات.

فجمال الرجل في حسن مقاله، وكماله في صدق فعاله.

من هنا قيل: عبر بلسانك عن حالك، ولا تكن بكلامك حاكياً أحوال غيرك.

فالدعوى رعونة لا يحتمل القلب إمساكها فيلقيها إلى اللسان، فتنطق بها ألسنة الحمقى، ولا يعرف الأعمى ما يبصره البصير من محاسنه وقبائحه.(٣)

وكان الصديق رضي الله عنه يأخذ بطرف لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. وكان إذا سقط حطام ناقته ينخيها ويأخذه فيقال له هلا أمرتنا فيقول إن رسول الله (ﷺ) أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً.(٤)

---

(١) أبو منصور الثعالبي: درر الحكم، ص: ١٤-١٥.

(٢) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص: ٦٥.

(٣) المصدر السابق، ص: ٩١.

(٤) سيد الشبلنجي: نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار، ص: ٥٧.

الفصل العاشر

الإشارة أو الرمزية فى التعبير

الفصل العاشر

الإشارة أو الرمزية فى التعبير

الإشارة ما يخفى على المتكلم كشفه بالعبارة للطافة معناه. ويدلل السراج الطوسى على ذلك بقول أبو على الروذباري: "علمنا هذا إشارة فإذا صار عبارة خفي".(١)

ونحن نرى من عبارة أبى على الروذبارى أن المقصود من علم الإشارة أنه هو علم ذوقى خاص. وإذا أصبح عبارة خفى ولا يعرف المقصود. لأنه على حد قول السراج الطوسى مشتملاً على اللطائف والإشارات وعلم المعارف التى تخفى عن أصحاب العبارة. ولذلك يقال: "فلان صاحب إشارة".

وروى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله (ﷺ): **[إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله]**.

فعلم الإشارة الذى يكشف المعانى المذكورة، واللطائف والأسرار المخزونة، وغرائب العلوم، وطرائف الحكم فى معانى القرآن، ومعانى أخبار الرسول (ﷺ).

قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ .(٢)

والرمزية نجد أصولها مجملة فى القرآن الكريم:

(١) النار والنور للدلالة على الله:

قال تعالي: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ

---

(١) الطوسي: اللمع، ص: ٤١٤.

(٢) سورة محمد: الآية: ٢٤.

تَصْطَلُونَ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِى من شَاطِئِ الْوَادِى الأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.(١)

أما النور لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّى يُوقَدُ من شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.(٢)

(٢)حجب النور والظلمة:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾.(٣)

(٣) الطائر رمزاً للبعث (أو بالأحرى الخلود):

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.(٤)

وقال تعالى: ﴿أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّه﴾.(٥)

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾.(٦)

---

(١) سورة القصص: الآيتان: ٢٩-٣٠.
(٢) سورة النور: الآية: ٣٥.
(٣) سورة فصلت: الآية: ٥.
(٤) سورة البقرة: الآية: ٢٦٠.
(٥) سورة آل عمران: الآية: ٣٩.
(٦) سورة الملك: الاية: ١٩.

(٤) مساء السماء:

قال تعالي: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُورًا﴾.(١)

(٥) الشجرة رمزاً للإنسان ومصيره:

قال تعالي: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾.(٢)

وقال تعالي: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء﴾.(٣)

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا﴾.(٤)

(٦) الكأس والشراب والسلام:

"ووصفها رموزاً لمراسم تولية الأولياء المقربين في الجنة: قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.(٥)

وقال تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.(٦)

وقال تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا إِلا قِيلا سَلامًا سَلامًا﴾.(٧)

(٧) الطريق في الجبل:

قال تعالي: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.(٨)

---

(١) سورة الفرقان: الآية: ٤٨.
(٢) سورة القصص: الآية: ٣٠.
(٣) سورة إبراهيم: الآية: ٢٤.
(٤) سورة يس: الآية: ٨٠.
(٥) سورة الواقعة: الآيتان: ١٧-١٨.
(٦) سورة الإنسان: الآية: ٢١.
(٧) سورة الواقعة: الآيتان: ٢٥-٢٦.
(٨) سورة فاطر: الآية: ٢٧.

ونورد هنا قول حاتم الأصم الذى تكلم فيه عن أربعة أنواع من الموت، أو بمعنى قسم الموت إلى: موت أبيض وهو الجوع، وموت أسود وهو احتمال الأذى من الخلق، وموت أحمر وهو العمل الخالص من الشوب فى مخالفة الهوى، وموت أخضر وهو طرح الرقاع بعضها على بعض.(١)

وكذلك فيما كتبه يحيى بن معاذ الرازى إلى أبى اليزيد يقول له: "سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته". فكتب إليه أبو اليزيد: "غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روى بعد، ولسانه خارج، فيقول: هل من مزيد.(٢)

ومن المفيد فى هذا المقام أن ننبه إلى ما تقدم ذكره أن الكلام ينقسم إلى نوعين: كلام يخرج من القلب إلى القلب فيحدث فيه أثره. وكلام يخرج من اللسان إلى الأذن ولا يتجاوزها. واللسان قول والأذن فعل.

من هنا قيل: من خرج من القلب فلابد وأن يقع فى القلب. وما خرج من اللسان لا يتجاوز الآذان. إذن قول اللسان الظاهرى لا تستطيع الأذن بفعلها تجاوزها لأنها من الإدراكات الحسية ولكن إدراكات القلب إدراكات بصيرية ذوقية لها تأثيرها فهى تتجاوز أدوات الحس الظاهري. ولذلك لهم فى هذا عبارات طريفة ننقل منها ما رواه أبو نعيم: كان قاص يجلس قريباً من مجلس محمد بن واسع فقال يوماً وهو يوبخ جلساءه: مالى أرى القلوب لا تخشع، ومالى أرى العيون لا تدمع، ومالى أرى الجلود لا تقشعر؟ فقال محمد بن واسع: ما أرى القوم أوتوا إلا من قبلك. إن الذكر إذا خرج من القلب وقع فى القلب.(٣)

---

(١) أبو نعيم: الحلية، ج٨، ص: ٧٨.

(٢) القشيري: الرسالة، ص: ١٤٦.

(٣) ابـن عباد الرندي: شرح الحكم العطائية، تحقيق عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٧٠م، ج٢، ص: ٢١-٢٣.

وكذلك قيل لحمدون القصار: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ فقال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفس، وطلب الدنيا وفضول الخلق.(١)

فمن كان على هذه الشاكلة فإن صمته دعوة إلى الله، وسيره دعوة إلى الله، وكذلك حديثه وجلوسه وعمله لله يستجيب لدعواه كما يستجيب الناس له بمقدار ما فى قلبه من الخير والصفاء والإيمان فلا يحاربه إلا أهل الشقاوة والبغضاء.

فلغة الرمز تعلو على الحس ومن هنا يكون الكلام غريباً على السامعين.

ومما يروى عن النبى (ﷺ) أنه قال لأبى بكر: **[أتدرى يا أبا بكر يوم يوم؟ فقال: نعم، لقد سألتنى عن المقادير ... وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى بكر: أتدرى ما أريد أن أقول؟ قال: نعم هو ذاك].**

فأهل الخصوص يستخدمون مصطلحات وإشارات رمزية يدللون بها على ما يقصدون من معانى تتداول فيما بينهم وذلك للكشف عن معانيهم لأنفسهم علاوة على الإجمال والستر على من باينهم فى طريقتهم.

ولعلك تفهم من هذا الكلام أن الوسائل التى يستخدمها عامة الناس بالاتصالات تكون عن طريق التخاطب، أو التحاكي، أو المقابلة، أما أهل الخصوص فيستخدمون الإشارة تعبيراً وإرسالاً واستقبالاً.

ويقول أحد العارفين: "ما كتب صحيح إلى صحيح، وما افترقا على الحقيقة".

ويشرح ذلك قائلاً: ومعنى ذلك أن لغة التخاطب العادية هى وسائل للعامة أما ألصحاء الصادقين أو العارفين فإنه لا داعى لديهم هذه المخاطبات، أو المكاتبات، وإنما طرق الاتصال تكون بالإشارة.

---

(١) ابـن عباد الرندي: شرح الحكم العطائية، تحقيق عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٧٠م، ج٢، ص: ٢١-٢٣.

فلقد استخدم العارفون علوم الإشارة واستعملوها فيما بينهم وشرحوا معناها وبينوا مغزاها وعبروا عن علومهم الرمزية يتلقاها بعضهم عن بعض. وقد استغلق فهمها على من ليس منهم فهم لا يبوحون بها إلا لمن ذاق مذاقهم وشرب من مشربهم من أصحابهم.

إن الرمزية فى التعبير لها عمل كعمل السحر، لا تمس العقل إلا من حيث نثير فيه الخيال، والوجدان ولكنها تمس القلب مساً مباشراً. ويعمق أثرها، وتتضح معانيها مع التكرار.[1]

وهذه الألفاظ أو المصطلحات التى استخدمها العارفون تسمى علوم الإشارة للتفرقة بينها وبين علوم العبارة.

فأهل النظر من أصحاب الأفكار لا يملكون العدة والعتاد للغوص فى بحر الحقائق والأسرار .. فهم كالجالس على الشاطئ يرى الذى يغوص فى الأعماق فى بحر متلاطم الأمواج فيحسبه غريقاً أو مجنوناً يقذف بنفسه إلى التهلكة.

وكما أن الذى يعرف العوم وفن الغوص ليس كالذى لا يعرف، فكذلك الذى غاص فى بحر المعارف والأسرار ليس كالذى يجلس على الشاطئ ليحكم على شرعية الغوص فى بحر اللجى.

فعلوم الإشارة غوض فى بحار المعاني، وبحثاً عن الجواهر واللآلئ الثمينة التى يعز وجودها ويعجز غيرهم عن الحصول عليها أو اقتنائها.

لقد عدلت مريم عليها السلام من استخدام العبارة إلى الإشارة فى ولادتها عيسى عليه السلام بلا أب، وعندما تجمع القوم حولها ليستنكروا فعلتها جهلاً منهم لحكمة الله البالغة. ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [2].

فالعبارة التى يمكن أن تدافع بها عن نفسها وعن وليدها لن تكون مقنعة لديهم إذ المعنى المقصود إليه لا يتحمله لفظ أو عبارة أنه يجل عن فهم أصحاب العبارة.

(١) أبو العلا عفيفي: الثورة الروحية في الإسلام، ص: ٢٤٨.
(٢) سورة مريم: آية (٢٩).

فكلما أخلص العبد مع الله سبحانه وتعالى، تفتحت أمامه المعانى وغرف من بحر الأسرار ما تيسر له منها، وارتشف من رحيقها الذكى ما قدرت عليه نفسه.

إنه لبون شاسع بين علماء الإشارة وعلماء العبارة، ذلك يذوق العسل فيجده أحياناً مراً وما هو بمر لكن به علة أفقدته حاسة التذوق عملها فوجد العسل مراً... وأما علماء الإشارة فذاقوا العسل وعرفوا حلاوته، وكلما رجعوا إليه اكتشفوا حلاوة أكثر على حلاوته ولم يستطعموا إلا الحلاوة فى كل آن ولم يشبعوا منه قط ولم يزهدوا فيه أبداً.

ويعطى لنا الكندى تعريفاً لماهية الرؤيا فيقول: بأنها استعمال النفس الفكر ورفع استعمال الحواس. كذلك يوضح أن هناك أموراً أربعة تتصل بالرؤيا وهى: التنبؤ بالمستقبل أو الرؤيا الصريحة، والرؤيا الرمزية التى تحتاج إلى تأويل، ورؤية الأشياء من أضدادها، ثم رؤية أشياء فى النوم فلا تقع ولا نجد لها تأويلاً وهى أضغاث أحلام.(١)

ويفسر لنا الكندى السبب فى الرؤيا الصحيحة والرؤيا الرمزية: فالنفس لأنها علامة يقظة حية إذا كانت متهيأة لكمال القبول بالنقاء التام والصقل الجيد أنبأت بالأشياء قبل كونها صراحاً، أما إذا كانت أقل نقاء فإنها ترمز، ولذلك تسمى النفس الرامزة. والرامز منه الصادق ومنه ظن فاسد. فالرمز الصادق يمثل بشيء يدل على المعنى المقصود.(٢)

إن أهل الذكر والمناجاة عاشوا فى النعيم، وهم ينظرون فى الليل بعد أن رفع الحبيب عنهم نومهم. فهم شاخصون فى مناجاة دائمة. وقد فاض الوصال فأرادوا المزيد.

وهنا يقول الدارانى مؤكداً هذا: إن أهل القيام بالليل على ثلاث طبقات: منهم من إذا قرأ تفكر، ومنهم من إذا قرأ تفكر فصاح، وهو يجد فى صياحه

(١) أحمد فؤاد الأهواني: الكندي فيلسوف العرب، أعلام العرب العدد ٢٦ (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للترجمة والنشر، ١٩٧٠م) ص: ٢٤٩-٢٥٠.

(٢) المصدر السابق، ص: ٢٥١.

راحة، ومنهم من إذا قرأ تفكر ولم يبك ولم يصح فبهت. فقال له تلميذه: ابن أبى الحواري: من أى شىء بكى هذا؟ ومن أى شىء صاح هذا؟ ومن أى شىء بهت هذا؟ فقال: ما أقوى على تفسير هذا.

ونحن نرى أنه لا يفهم من كلام الدارانى أنه لا يقوى على التفسير. فالتجربة الروحية التى يعيش فى مضامينها كل واحد من هؤلاء لا تخضع لمقولة التفسير والتعبير لأنها ذاتية يختص بها كل على حدة.

وكذلك كان بداية الطريق لدى أبى سليمان الدارانى هو الليل الذى كان مصدره الأول لديه القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلا﴾.(١)

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا﴾.(٢)

وقال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.(٣)

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.(٤)

ويقول تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلا طَوِيلا﴾.(٥)

ويقول عز وجل مخاطباً رسوله الكريم: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.(٦)

هكذا يتضح لنا مصطلح الليل الذى جاء فى هذه الآيات القرآنية. فكان الليل حالاً لهؤلاء العباد ما لهم فيه من الهمس والصمت وعدم النطق بما فيه

(١) سورة المزمل: الآية: ٦.
(٢) سورة المزمل: الآية ٨.
(٣) سورة الذاريات: الآيتان: ١٧، ١٨.
(٤) سورة الإسراء: الأنعام: الآية: ٥٢.
(٥) سورة الإنسان: الآية: ٢٦.
(٦) سورة الأنعام: الآية: ٥٢.

من سكون، واتخذوا منه قبولاً للدعاء والمناجاة والإمعان والانصهار فى قراءة القرآن والتعبد بالنوافل تقرباً إلى الله.

ويقول أبو سليمان الدارانى فى أحد نصوصه: "ما رجع من وصل، ولو وصلوا ما رجعوا.

ثم يجيء التعليق على هذا القول للدارانى من جانب المحاسبى فيقول: يحتمل معانى كثيرة: أولها: أنه أراد أن يحرض المريدين لئلا يميلوا إلى الفتور، ويحترزوا من الانقطاع، ويجدوا فى الطلب والاتصال والقرب إلى الله. أما المعنى الثانى ويحتمل أن يكون أراد فكرة روحية سامية وهى ما رجع إلى الزلل ومن وصل إلى صافي العمل.

والمعنى الثالث ما رجع إلى وحشة الفتور من تفحم فى المقامات السنية من الأمور وهى فكرة روحية سامية أيضاً. والمعنى الرابع ما رجع من رجع إلى ذل العبودية. أى إلى ذل عبودية المخلوقين ومن وصل إلى طيب روح اليقين.[1]

ونحن نرى من ذلك التفسير والتعليق على قول الدارانى فقد أصاب كل الصواب فى جميع منهجه المعرفى فيما قل ودل.

ولقد جاء في الصحيحين أن رسول الله (ﷺ) تحدث ذات يوم على المنبر إلى أصحابه فقال: **[إن عبداً قد خيره الله بين زهرة الدنيا وما عنده، فاختار ما عند الله].**

وفهم أبو بكر رضى الله عنه ما يقصد بهذه العبارة، فقال: "بل نفديك بآبائنا وأمهاتنا". ولم يدرك الصحابة حقيقة مغزاها إلا حين اختار الله رسوله للرفيق الأعلى.

---

(١) على سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج٣، ص: ٤٤٨.

ولم يلبث النبى (ﷺ) بعد ذلك الحديث حتى أحس بالوجع، فكان يمرض فى بيت عائشة، ويخرج إلى الصلاة، فلما ثقل عليه المرض أمر أبا بكر أن يصلى بالناس.(١)

وتوفى النبى (ﷺ) وارتاب المسلمون حين نبئوا بوفاته، وحاج بعضهم فى بعض، وكان عمر رضى الله عنه أشدهم شكاً، ولكن أبا بكر رضى الله عنه تلا عليهم الآية الكريمة من سورة: "آل عمران": ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.(٢)

فثاب المسلمون إلى صوابهم، وذكروا قول الله لنبيه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.(٣)

وقد روى: "أن أبا هريرة لما قدم من دوس عام خيبر لقى النبى (ﷺ) وقد وقعت من يده سكين: فقال له: ناولنى السكين، فالتفت أبو هريرة يَمْنَة ويسره، ولم يفهم ما المراد باللفظ، فكرر له القول ثانية وثالثة، فقال: المدية تريد؟ وأشار إليها فقيل له: نعم، فقال: أو تسمى عندكم السكين؟ ثم قال: والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ.(٤)

وتتضح الرمزية فى التعبير فى قول ابن عربى عن سهل التستري:

"كان بدء سهل فى هذا الطريق ــ أى الطريق إلى الله ــ سجود القلب.

وكم من ولى كبير الشأن، طويل العمر، مات وما حصل له سجود القلب. ولا علم أن للقلب سجوداً مع تحققه بالولاية ورسوخ قدمه فيها، فإن سجوده إذا حصل لا يرفع رأسه أبداً من سجدته فهو ثابت على تلك القدم الواحدة التى تتفرع منها أقدام كثيرة.(٥)

---

(١) مناع القطان: تاريخ التشريع الإسلامي (بيروت: مؤسسة الرسالة ط١١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م) ص: ١٢٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

(٣) سورة الزمر: الآية: ٣٠.

(٤) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص: ٨٥.

(٥) عبد الحليم محمود: سهل التستري، ص: ٢١.

ويحدد الشيخ الأكبر مقام سهل رضى الله عنه بأنه السجود فيقول :

مقام سهل سجود القلب ليس له
فى غير سهل من الأكوان أحكام

لا يرفع القلب رأساً بعد سجدته
والوجه يرفع والتغيير إعلام

فإنه غير مشهود بقبلته
وقبلة القلب أسماء وأعلام

تبدى حقيقته تأييد سجدته
وماله فى علوم الخلق أقدام

وهذه الحالة تسمى، فيما يروى الشيخ الأكبر، منزلة التمكين. وفيها يكون قلبه ساجداً، وكيانه كله خاضع، لقد أصبح سجوداً وخشية وتواضعاً لله سبحانه وتعالى.

ونذكر فى هذا المقام قول الجارية لما سألها النبى (ﷺ) أين الله؟ قالت: فى السماء، إنها كانت من قوم يعبدون الأحجار وينكرون الصانع، فلما أقرت بوجود الله صارت بذلك مؤمنة ولو أنكر عليها ذلك لثبت عندها جحود الصانع من أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنكروا عليها فقال (ﷺ) دعوها فإنها مؤمنة فعرف بإشارتها تعظيم الخالق.

وقوله (ﷺ) "الحجر الأسود يمين الله". فالعقل يشهد بأن الله لا يتحيز ولا يتبعض والحس يشهد بأن الحجر الأسود ليس يمين الله حقيقة بل هو من اليمن والبركة.

وقال أهل الإشارة إن إبراهيم عليه السلام ادعى محبة الله تعالى ثم نظر إلى ولده بعين المحبة فلم يرض حبيبه بمحبة مشتركة. فقيل له: اذبح ولدك، فلما أسلم قيل له ليس المراد ذبح الولد، إنما المراد أن ترد قلبك إلينا فلما ردته إلينا رددنا عليك ولدك.[1]

---

(١) عبد الرحمن الصفوري: نزهة المجالس ومنتخب النفائس، ص: ٨١.

وكذلك كلام الله مشافهة للعبد، كما حصل لرسول الله (ﷺ)، وكما حصل للكليم عليه الصلاة والسلام، ووحيه الذى يوحيه بنفسه، ووحيه سبحانه وتعالى بطريق الملك.

فمشافهة العبد: إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾.(١)

ووحيه بنفسه لعبده: إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾.(٢)

ووحيه بطريق الملك: إشارة إلى قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾.(٣)

ثم التحدث لقوله (ﷺ) "إن منكم محدثين وإن عمر منهم"، ثم الإلهام بمراتبه، وأقلها الرؤيا الصادقة التى هى بعد مقام الأسماع والفراسة والفهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾.(٤)

وهذه الآية إشارة إلى المقامات.

ويقول الصديق رضى الله عنه: العجز عن درك الإدراك إدراك.

فمن رأى الخلق لا فعل لهم فقد فاز، ومن رأى الخلق موتى فقد جاز، ومن رآهم بعين العدم فقد وصل.

وإليه الإشارة بقوله: كان الله ولا شىء معه، وهو الآن على ما عليه كان.(٥)

وكذلك كان خلع النعلين رمزاً لخلع حجب الدنيا وحجب الأجساد، كما فسرته وفلسفته مدرسة ابن عربى مع ابن قسى فى كتابه: "خلع النعلين".

---

(١) سورة النساء: الآية: ٦٤.

(٢) سورة النجم: الآية: ١٠.

(٣) سورة الشعراء: الآيتان: ١٩٣-١٩٤.

(٤) سورة الصافات: الآية: ١٦٤.

(٥) ابن الخطيب: روضة التعريف بالحب الشريف، ص: ٢٨٩.

وكانت قضيته العلم اللدنى والمعرفة الفوقية تلك التى يؤتيها الله من يشاء من عباده العالمين العارفين المتقين المخلصين. فإذا تذكرنا قصة موسى مع الخضر كان لنا مع هذه القصة رباط بين المعرفة الإشراقية اللدنية وبين ما أثارته هذه المعرفة من قضايا جوهر الولاية عند الخضر الذى كان بمعرفته اللدنية فوق معرفة النبوة الإيمانية درجات ودرجات.(١)

ويقول الإمام أبو العزائم: إن العبارة لا تكشف الحقيقة، ولو أنها تكشفها ما بقى على الأرض كافر.

كما قال: إن العبارة لا تفى بيان المضمون من كلام العارفين. إنما هى انوار وإشارات، والنفس تذوق من المعانى بقدر ما وهبها الله.

وقد قيل: الكلمة: يكنى بها عن كل واحد من الماهيات والأعيان والحقائق والموجودات الخارجية. وفى الجملة عن كل متعين. وقد تخص المعقولات من الماهيات والحقائق والأعيان بالكلمة المعنوية أو الغيبية والخارجيات بالكلمة الوجودية، والمجردات المفارقات بالكلمة التامة.(٢)

وكلمة الحضرة إشارة إلى قوله تعالى: ﴿كُن﴾. ففى قول الحق: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾. فهى صورة الإرادة الكلية.

فاستخدام الرمزية فى التعبير له أهميته الأساسية وهو الحرص على المعانى والأسرار وصوناً للقداسة والروحانيات التى تحملها الإشارة.

قـــال الشبلى يوماً لرجل: أتدرى لم لا يصح توحيدك ..؟ لأنك تطلبه بك!!! فالذى يظن أنه يطلب الله بجهده هو، وليس بتوفيق مطلق من الله لا يحسن التجرد ولا التوحيد.

---

(١) عـبد القـادر محمود: دراسات في الفلسفة الدينية والصوفية والعلمية (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٨م)، ص: ٦٩-٧٠

(٢) الكاشاشـاني: اصـطلاحات الصـوفية، تحقيق عبد الخالق محمود عبد الخالق (المنيا: دار حراء، ١٩٨٠م)، ص: ٧٩.

وآية ذلك التجرد ماثلة فيما يقول أبو عبد الله القرشي: "ألا يبقى لك منك شيء".

وقد قيل: الحقيقة لا ينطق بها اللسان، بل هى ذوق ووجدان. لأن اللسان يعجز عن التعبير عنها، لأنها سر من أسرار الله تعالى، فلا تتكيف بالحروف والكلمات.(١)

ورؤى الجنيد فى المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال طاحت تلك الإشارات، وذهبت تلك العبارات، واندرست تلك العلوم، وما نفعنى إلا ركيعات كنت أصليها فى جوف الليل.

وتتفاوت الرموز أو خواطر أو الإشارات تبعاً لمقام قائلها، وهى غالباً ما ترتكز على أربع صور منهجية هي: الموازنة بين الظاهر والباطن، والتجريد، والإيماء الحسى بالظاهر إلى الباطن، والإعتناء بالأصوات والأبحاث اللغوية.(٢)

ومن خلال بعض خواطر أبى العباس المرسى حول بعض آيات القرآن الكريم يمكن التمثيل لتلك الصور المنهجية على الوجه التالي.

(١) الموازنة بين الظاهر والباطن: وذلك يكون بربط الأمور الظاهرة فى الشريعة بأمور أخرى باطنة، ومثال ذلك تفسير أبى العباس لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.(٣) حيث يرى أن الله سبحانه وتعالى طلب من العباد أن يعبدوه واقتضى منهم أن يسجلوا ذلك على أنفسهم نطقاً كما قاموا به عملاً، واقتضى منهم أن يفردوه، واقتضى منهم أن تنتظم العبادة جميع جوارحهم الظاهرة وحقائق وجوداتهم الباطنة.(٤)

---

(١) ابن عربي: الحكم الحاتمية، ص: ١٠.

(٢) سيد عبد التواب عبد الهادي: الرمزية الصوفية في القرآن الكريم (القاهرة: دار المعارف، سنة ١٩٧٩م) ص: ٣٩.

(٣) سورة الفاتحة: الآية: ٥.

(٤) ابن عطاء الله: لطائف المنن، ص: ٢٣٠.

وبذلك استخدم أبو العباس الآية الكريمة فى حث المريدين على الموازاة والتوفيق بين أمور الشريعة الظاهرة وأمور الحقيقة الباطنة.

(٢) التجريد: وهو إبراز معنى روحانى معنوى من معنى حسى يدل عليه ظاهر الآية، ومثال ذلك ما حكاه أبو العباس عن نفسه حيث قال: "صليت خلف الشيخ أبى الحسن "صلاة الصبح" فقرأ بحم عسق، فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا﴾[١]. فخطر لى أنها حسنات، ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ﴾[٢]. فخطر لى أنها العلوم ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ أى علوم وحسنات، "ويجعل من يشاء عقيماً" أى لا علم ولا حسنة.

وبذلك صرف المعنى الحسى المقصود بالذكر والأنثى إلى معنى مجرد هو العلوم والحسنات.

(٣) الإيماء: وهذا معناه الانتقال بالحس الظاهر إلى الباطن. ومثال ذلك ما خطر لأبى العباس عن قوله تعالى:﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾.[٣] فقال: بقرة كل إنسان نفسه، والله أمرك بذبحها، فاستخدم بذلك البقرة فى الإشارة إلى النفس وضرورة مجاهدتها وتصفيتها.

(٤) الاعتناء بالأصوات والمباحث اللغوية من نحو وبلاغة ..إلخ: وذلك لتوضيح بعض المعانى التى يعتقدها أهل الذوق، ومثال ذلك ما لاحظه أبو العباس عن قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذى أَسْرَى بِعَبْده﴾.[٤] حيث أنه تعالى لم يقل بنبيه ولا برسوله، وهو نبيه ورسوله، وإنما قال ذلك لأنه تعالى أراد أن يفتح باب السريان للأتباع فأعلمنا أن الأسرار من بساط العبودية والنبى (ﷺ) كان له كمال العبودية فكان له كمال الإسراء، حيث أسرى بروحه وجسمه وظاهره وباطنه، والأولياء لهم قسط فى العبودية، فلهم إذن قسط من الإسراء، حيث يسرى بأرواحهم فقط لا بأشباحهم، وبذلك استخدم أبو العباس لفظ: "عبده" فى بيان هذا المعنى بصورة بلاغية رائعة.

---

(١) سورة الشورى: الآية ٤٩.

(٢) سورة الشورى: الآية ٤٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ٦٧.

(٤) سورة الإسراء: الآية: ١.

ويحدثنا الرفاعى مستخدماً الرمزية فى التعبير فيقول: "ملتفت لا يصل".

ويشرح هذا المعنى فيقول: "وللتلفت صور كثيرة: منها أن ينظر المرء إلى حال نفسه وحال الناس، فينظر نفسه إلى أين وصلت، ويقارنها بالناس ليعلم فضلها عليهم.

والاستشهاد على هذا قول موسى لربه: كيف الوصول إليك. قال "خل نفسك وتعالَ. ليس فى المملكة شئ ينازعنى غيرها". ومنها مراقبة عيوب الناس. وبصفة عامة الانشغال عن الخالق بالمخلوق أى كان.

كما قال "انظر إلى النخلة لما رفعت رأسها جعل الله ثقل حملها عليها، وانظر إلى شجرة اليقطين لما وضعت نفسها وألقت خدها على الأرض جعل ثقل حملها على غيرها.

ومما يذهب إليه جلال الدين الرومى فى هذا الصدد أنه قال: "فطهر نفسك من أوصاف نفسك حتى ترى ذاتك النقية الطاهرة، فتجد فى الكلام علوم الأنبياء بغير كتاب ومعبد وأستاذ.(١)

وقال الشيخ داود الكبير بن ماخلا ــ وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ــ من الأولياء من يتكلم من خزانة قلبه، ومنهم من يتكلم من خزانة غيبه، فالمتكلم من خزانة قلبه محصور، والمتكلم من خزانة غيبه غير محصور.

كما قال: جلت الحقيقة أن تكون البشرية محلاً لتلقيها، ولكن إذا أراد أن يوصلها إليك، انبسط شعاع سلطان شعاعها، فمهد فى قلبك محلاً لتلقيها، فبها وجدتها، لا بك:

أعــارتك طــرفاً رآهــا بــه ∴ فكــان البصــير بهــا طــرفها

ولما كان موضوع هذا الفصل هو: "الإشارة أو الرمزية فى التعبير". كان لابد من التوضيح إلى كلمة "حرف".

---

(١) كامل سعفان: سبحان الله، ص: ٢٣.

اتخذت كلمة حرف فى اللغة العربية عدة معان منها:

(١) حرف الشئ أى حده، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾.(١)

(٢) الانحراف عن الشيء، كتحريف الكلام، كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾.(٢)

(٣) اللغة أو اللهجة: وهذا المعنى مستمد من الحديث النبوي: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأ ما تيسر منه". وتفسيره أن هذا القرآن قد أنزل بسبع لهجات أو أوجه كلامية لاختلاف ألسنة العرب.(٣)

وهنا ينبغى أن نوضح ما ورد فى القرآن الكريم من الحروف. يعتقد علماء التفسير أن لتلك الحروف أسراراً لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، ولم يطلع على جملتها سوى آدم عليه السلام، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك قال: "أوتيت جوامع الكلم".(٤)

أما بقية الأنبياء فقد اطلع كل واحد منهم على أسرار بعض الحروف كل بحسب مكانته.

ولقد سئل عن حال موسى عليه السلام فى وقت الكلام. فقيل: أفنى موسى عن موسى فلم يكن لموسى خبر من موسى ثم كلم فكان المكلم والمتكلم هو. وكيف كان يطيق موسى حمل الخطاب وردّ الجواب لو لا بإياه سمع.

---

(١) سورة الحج: الآية: ١٢.

(٢) سورة البقرة: الآية: ٧٥.

(٣) ابــن الخطيــب، محمد محمد عبد اللطيف: الفرقان (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت) للسيوطي، ص: ٢٠٣.

(٤) رواه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه (الجامع الصغير للسيوطي، من فيض القدير، ج٣، رقم الحديث ٣١٤٩، ص: ٢٠٣.

وانظر:

Arberry, A-J.: An Introduction of his Edition the Mawagif and Mukhatbat, of Al-Niffari, Cambridge University Press, London, 1935 PP 21-22

ومعنى هذا أن الله تعالى منحه قوة بتلك القوة سمع ولولا تلك القوة ما قدر على السمع.

ويقول ابن عربى عن بداية سيره فى الطريق: "خرجت عن كل ما أملك خروج الميت من أهله وماله".

وهذا رمز لفعل التجرد والتصفية والتخلية.

فابن عربى هنا حسبما نرى يخرج عن ماله وجاهه وسلطانه وجميع حظوظه الدنيوية ويتجرد لربه.

ويقول الشعراني: سألت سيدى على الخواص رضى الله عنه عن التوحيد ما هو؟ فقال: عدم. قلت: ووجود. قال: ووجود. فقلت فإذاً العدم وجود والوجود عدم. قال: نعم. فقلت: فقد انعدم العدم لأنه عدم. والعدم لا يعبر عنه ولم يبق إلا وجود كما كان وهو الآن على ما عليه كان. فقال: "إنا لله وإنا راجعون".(١)

هذا النص يوضح لنا الرمزية فى التعبير عند الشعرانى والخواص.

ويقول الجنيد: العارف من نطق الحق عن سره وهو ساكت، كأنه لا ينطق عندما يخبر عن الحق، أو كأن الحق ينطق عن لسانه.(٢)

ومن مرويات الشبلى أنه قال: لقيت جارية حبشية، فقلت: "من أين؟" قالت: "من عند الحبيب". قلت: "كم تذكرين الحبيب؟" قالت: "ما يسكت لسانى عن ذكراه حتى ألقاه".

وروى عن بعض الواجدين الصادقين، الذين يسمعون ألسن الكون ناطقة، ويرون أعينها مشيرة رامقة، أنه سمع عتاباً بين محبين، فشهق وغشى عليه، فلما أفاق بعد حسن، قال: أعجبنى ذل المحب، وعز المحبوب، وحسن صبره للبلاء على المطلوب، فهيج أحزان الفؤاد وما يدري.

---

(١) الشعراني: درر الخواص، هامش الإبريز للدباغ، هامش ص: ٤٥.

(٢) محمد مصطفى: دراسات عن الجنيد البغدادي، ص: ١٤.

ولقد قال ابن مسعود رضى الله عنه: "من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن". وأن ذلك بلا ريب لا يكون بغير تعمق فى الفهم، وتعرف بالإشارة والمرامي، من غير اقتصار على ظاهر الألفاظ والمعاني.(١)

وقال رضى الله عنه: "من فهم القرآن، فسر به جمل العلم، وذلك لا يكون إلا بالتعمق فى الفهم".

نقل المرحوم السيد رشيد رضا عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أنه قال: إن لكلام ابن عربى مفتاحاً، من عرفه فهم جميع كلامه، فأنا أقرأ الفتوحات كما أقرأ تاريخ ابن الأثير.

كان الجنيد يأخذ على الشبلى استغراقه فى الوجد وسبحاته الطويلة مع الأمواج؟!

وكان الشبلى يأخذ على الجنيد صلابته فى موقفه من الشهيد الحلاج ومدرسته، كما كان يأخذ عليه مداراته للفقهاء ومحاولاته المتعددة لإرضائهم على حساب أصحاب المواجيد الصادقة.

وكانا يتبادلان الرسائل حول هذه الدقائق والرقائق فيحاول كل منهما أن يشرح منهجه.

كتب الشبلى إلى الجنيد:

"يا أبا القاسم، ما تقول فى حال علا فظهر، وظهر وقهر فبهر، فاستناخ واستقر، فالشواهد منتظمة، والأوهام خنسة، والألسن خرسة، والعلوم مندرسة، ولو تكاتف الخليقة على من هذا حاله، لم يزده إلا توحشاً، ولو أقبلت إليه تعطفاً لم يزده ذلك إلا تباعداً، فالحاصل فى هذا الحال قد صفد بالأغلال والأنكال وغلبه عقله فحال وجاء الحق بالحق، وصار الخلق عقالاً".

فكتب إليه الجنيد :

"آثرك الله يا أخى بالاصطفاء، وجمعك بالاحتواء، وخصك بعلم أهل النهى، وأطلعك على ما أدلى، وتمم لك ما تريد منك له، ثم أخلاك منك له،

(١) محمد أبو زهرة: ابن تيمية (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٧م) ص: ٢٢٨.

ومنه به له ــ من الله وبالله وإلى الله ــ ليفردك فى تقلبه لك بما يشهدك من حيث لا يلحق مشاهد من الشواهد يخرجك".

وخطاب الشبلى يشرح حال الوجد الآخذ بالقلب حتى يذهل صاحبه عن الخلق ويفنى مع الحق، فالشواهد منظمة، والأوهام خنسة، والألسن خرسة، والعلوم مندرسة، ولو تكاثف الخليقة على من هذا حاله لم يزده ذلك إلا توحشاً من العباد.

وتلك سمة الشبلى وطابعه ومنهجه، وخطاب الجنيد فى الرد عليه آية من آيات الكياسة التى انفردت بالذوقية العالية، فهو لا ينكر على صاحبه حاله، ولكنه يوجهه إلى أن هذا الحال فيه مع كل هذا بقية من النفس، فليس الميزان هو توحشك من الخلق وإنما أن يخليك الحق منك له وهى معادن مبطنة بالكلم الجميل لا يدرك حوارها إلا أرباب القلوب.

ومما رواه الإمام القشيري: أن الجنيد والشبلى التقيا، والشبلى فى وجده، فقال له الجنيد: "لو رددت أمرك إلى الله لاسترحت؟". فقال الشبلى يا أبا القاسم: لو ردّ الله أمرك إليه لاسترحت. فقال الجنيد: سيوف الشبلى تقطر دماً ...؟

ألا تدل هذه النصوص على قمة الرمزية فى التعبير عن الجنيد والشبلى لأن كلا منهما حدثنا من ساحة ذوقه.

وروى القشيرى أيضاً أن الفقيه ابن بشار كان ينهى الناس عن الاجتماع بالشبلى ثم جاء ليجادله ويمتحنه. فقال له: كم فى خمس من الإبل ــ يريد الزكاة ــ فسكت الشبلي، فأكثر ابن بشار عليه. فقال له الشبلي: فى واجب الشرع شاه وفيما يلزم أمثالنا كلها؟ فقال له ابن بشار: هل لك فى ذلك إمام؟ قال: نعم، قال: من؟ قال: أبو بكر الصديق رضى الله عنه حيث أخرج ماله كله. فقال له النبى (ﷺ): ما تركت لعيالك؟ قال: الله ورسوله.

فرجع ابن بشار إلى أصحابه الفقهاء متغير الوجه فلما سألوه عن أمره قال: لقد أضعنا حياتنا فى المجادلات، وذهب أصحاب الذوق بالخير كله.

ويقال للصدّيقين على لسان الحضرة إذا رددناكم إليكم لم يبق لكم إلا العجز والضعف والفاقة والذلة وإذا أخذناكم عن أنفسكم صرتم بنا قادرين أقوياء أعزاء تنفعل لكم الأكوان وتتسخر لكم الأشياء.(١)

وقد قيل:

إذا كـــنا بـــه تهـــنا دلالا ∴ علـــى كـــل الموالـــى والعبـــيد

ولكـــنا إذا عدنـــا إلـــيه ∴ يعطـــل ذلـــنا ذل الـــيهود

والحاصل أن من آواه الله إليه وأظهر جوده عليه فقد اصطنعه لنفسه ورفعه إلى حضرة قدسه، وكانت أحواله حسنة جميلة كلها ممدوحة.(٢)

ومن أقوال ابن عطاء الله فى الحكم: "تسبق أنوار الحكماء أقوالهم لا ينطقون إلا بالله ولله، فحيث صار التنوير وصل التعبير فأى قلب تصل إليه أنوار المعارف فلا يشرق، وأى غرس ينميه كلام الواصل فلا يورق.

وقال بعض العارفين: "ما الحياة إلا فى الموت. أى ما حياة القلب إلا فى إماتة النفس. فالنعمة العظمى الخروج عن النفس لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله تعالى.(٣)

وقد عبر الإمام القاسم القشيرى رضى الله عنه عن طريق موت النفس بعبارات صحيحة مليحة، فقال قتل النفس فى الحقيقة التبرى من حولها وقوتها أو شهود شئ منها وردّ دواعيها إليها وتشويش تدبيرها عليها وتسليم الأمور إلى الحق سبحانه بجملتها وانسلاخها من اختيارها وإرادتها.

وما حدثنا به عبد الله ابن الأستاذ المروزيّ، قال: رأى بعض الفقراء فى واقعته الشيخ أبا مدين ومعه ثلاثة من الرجال فيهم أبو حامد وهم جلوس، فقدم لهم صحفة فيها ثريد فأكلوا ثم حمدوا وأثنوا، ثم قال أبو حامد: يا أبا مدين نحبّ

---

(١) السيد دحلان: تقريب الأصول لتسهيل الوصول، ص: ١٩٠.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) نفس المرجع السابق، ص: ٢٥٥.

غذاء الروح؟ فقال لهم: سلوا عمّا شئتم، فقالوا له: نسألك عن حقيقة سرِك، فقال لهم: سرى مسرور بأسرار تستمد من البحار الإلهية الأبدية الأزلية التى لا ينبغى كشفها ولا يجوز بثها لغير أهلها، إذ العبارة تعجز عن دركها، وأبت الغيرة إلاَ سترها هى البحار المحيطة بالوجود، لا يلجها إلاَ من وطنه مفقود، وفى عالم الحقيقة بسره موجود، يتقلب بالحياة الأبدية، وينطق بالعلوم الأزلية، فهو بجسمه ظاهر، وبسر حقيقه ظافر، يطير فى عالم الملكوت، ويسرح فى عالم الجبروت، تخلق بالأسماء والصفات، وفنى عنها بمشاهدة الذات، هناك فرارى ووطني، وقرة عينى وسكني، به رام فرحي، وهو علانيتى وسرّي، والممدُّ لوجودي، ومالكى ومعبودي، أظهر فى وجودى قدرته، ورتب فى بدائع صنعه حكمته، فهو الظاهر الباطن، الملك القاهر، فمن رقت همته عن ملاحظة نفسه لم يلتفت إلى غده وأمسه، وإنما هو ابن وقته، بالحق سبحانه يجرى عليه أفعاله، وهو راض به مسروراً، إذ لم يكن شيئاً مذكوراً، فمن نزّه أقواله وأفعاله، فقد صفى همته وأحواله، فمن كان نطقه به يصول، ومن كان هو دليله فقد نال الوصول، ومن حقق نظره به يسمع وبه يقول، ويسمع عنه، ويسأل به منه، إذا الوجود كله فاني، والباقى فيه معاني، به كل شيء يعرف، ولولاه لم يفهم ولم يوصف، فهو المظهر سبحانه للأكوان، وسرّ السرائر ومظهر الإعلان، فرحمته لخلقه عامة، ونعمته لهم شاملة تامة، فهم فيها يغدون ويروحون، وبإسباغها عليهم ظاهرة وباطنة يتنعمون، فكل شيء بجملتها يشهد له بالوحدانية، ويقر له بالحدوث والعبودية، هو سبحانه منطقها بكرمه ومجده، وإن من شئ إلا يسبح بحمده.(١)

وقد كان الشيخ أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه يقول لعلماء عصره أخذتم علمكم من علماء الرسوم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت.(٢)

(١) ابن عربي: محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ص: ٤٦٨-٤٦٩.

(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ٥.

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾. فالمراد إظهار التذلل والتباعد عن طلب العزة وهى إشارة إلى فناء العبد ذاتاً ووصفاً وذلك موجب لخلع القرب والاصطفاء والعز والدنو المشار إليه بقوله: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾.

فالساجد إذا أذيق طعم السجود تقرب، لأنه يسجد ويطوى بسجوده بساط الكون ما كان وما يكون، ويسجد على طرفى رداء العظمة.(١)

وسئل الجنيد عن الإنسان يكون هادئاً فإذا سمع السماع اضطرب. فقال إن الله تعالى لما خاطب الذرية فى الميثاق الأول بقوله: ألست بربكم استقرعت عذوبة سماع الكلام الأرواح فإذا سمعوا السماع حركهم ذكر ذلك.(٢)

وقال (ﷺ) لأنس بن مالك احفظ سرى تكن مؤمناً.

ولقد جاء فى لطائف المنن فى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٣).

إياك نعبد شريعة وإياك نستعين حقيقة، وإياك نعبد إسلام وإياك نستعين إحسان، وإياك نعبد عبادة وإياك نستعين عبودية، وإياك نعبد فرق، وإياك نستعين جمع.(٤)

وقد قيل فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ (٥).

بقرة كل إنسان نفسه، والله آمرك بذبحها.

كما قيل فى معنى قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ﴾ (٦).

---

(١) الرندي، ابن عباد النضري: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، تحقيق عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٧٠م) ج١، ص: ١٠١.

(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ٧٣.

(٣) سورة: الفاتحة: الآية ٥.

(٤) ابن عطاء الله: لطائف المنن، ص: ١٥٠.

(٥) سورة: الفاتحة: الآية: ٦٨.

(٦) سورة: الحج: الآية ٦١.

يولج المعصية فى الطاعة والطاعة فى المعصية يطيع العبد الطاعة فيعجب بها، ويعتمد عليها ويستصغر من لم يفعلها ويطلب من الله العوض عليها. فهذه حسنة أحاطت بها سيئات ويذنب الذنب فيلجأ إلى الله فيه ويعتذر منه ويستصغر نفسه، ويعظم من لم يفعله. فهذه سيئة أحاطت بها حسنات فأيهما الطاعة وأيهما المعصية.[1]

وقد قيل فى قوله تعالى: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [2]. أى من طاعتهم وأعمالهم التى قاموا بها لله فى ليلهم أن يشهدوها من أنفسهم.

فالحق سبحانه وتعالى وصفهم قبل ذلك بقوله: ﴿كَانُوا قَلِيلا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾[3]. ثم قال: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. فلم يتقدم منهم فى ليلهم ذنوب يكون استغفارهم منها.

وتتمثل الرمزية فى التعبير عند الشبلى عندما قال ذلى عطل ذل اليهود.

قال بعض العارفين فى معناه أى لأن ذل الذليل على قدر معرفته بعظمة من ذل له والشبلى بلا شك أعرف بعظمة الله تعالى من اليهود فذله أعظم من ذل اليهود.[4]

ولقد قيل فى قوله تعالى: "إلا من أتى الله بقلب سليم، هو قلب إبراهيم عليه السلام لأنه كان سالماً من خيانة العهد ومن السخط على مقدور كائناً من كان.

كما قيل: الإشارة الإبانة عما يتضمنه الوجد من المشار إليه لا غير. وفى الحقيقة أن الإشارة تصحبها العلل، والعلل بعيدة عن الحقائق.[5]

---

(١) ابن عطاء الله: لطائف المنن، ص: ١٥٤.

(٢) سورة الذاريات: الآية: ١٨.

(٣) سورة: الذاريات: الآية: ١٧

(٤) الشعرانى: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ٨٩.

(٥) المصدر السابق، ص: ٩١.

وقال أحد العارفين لما سئل عن حديث تفكر ساعة خير من عبادة سنة. المراد بذلك التفكر نسيان النفس والله أعلم.

وقال آخر: من حفظ جوارحه تحت الأوامر فهو فى اعتكاف على الدوام.(١)

ونتساءل: لأى شيء رمز العارفون إشاراتهم؟

والجواب: إنما رمز العارفون إشاراتهم اكتفاءً بها فيما بينهم غيرة على طريق الله الخاصة أن يدعى معرفتها أحد بالعبارة، فإن الكتاب يقع فى يد أهله وفى غير أهله فقصدوا برمزها بقاءها فى الوجود بعدهم تنوب عنهم فى إرشاد المريدين.

وقد أنشدوا:

ألا أن الرموز دليل صدق ∴ على المعنى المغيب فى الفؤاد
وكل العارفين لها رموز ∴ وألغاز تدق على الأعادي
ولولا اللغز كان القول كفراً ∴ وأدَّى العالمين إلى العناد
فهم بالرمز قد حسوا فقالوا ∴ بإهراق الدماء وبالفساد
فكيف بنا لو ان الأمر يبدو ∴ بلا ستر على رؤوس العباد
أقام بنا الشقاء هنا يقيناً ∴ وعند البعث فى يوم التناد
ولكن الغفور أقام ستراً ∴ ليسعدنا على رغم الأعادي

وقد كان الحسن البصرى رضى الله عنه وبعده معروف والسرى السقطى والجنيد لا يقررون مسائل العلم بالله تعالى إلا بعد غلق أبواب بيوتهم وأخذ مفاتيحها ووضعها تحت وركهم خوفاً على إفشاء أسرار الله تعالى بين المحجوبين عن حضرته.(٢)

---

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ١٠٥.

(٢) الشعراني: كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان، ص: ١٢٨.

وقد قيل: الأدب نوعان: أدب السنة وأدب المعرفة. فأدب السنة الأخذ بالعلم على سبيل القصد، وحسن النية لله. وأدب المعرفة مصحوب بالإذن والأمر والقول والإشارة الثابتة من الله تعالى، فالإشارة تفهيم من الله لعبده عن نور جماله وجلاله.(١)

ومن مرويات الدسوقي أنه قال: إذا كمل العارف في مقام العرفان أورثه الله علماً بلا واسطة وأخذ العلوم المكتوبة في ألواح المعاني ففهم رمزها وعرف كنوزها وفك طلسماتها وعلم اسمها ورسمها وأطلعه الله تعالى على العلوم المودعة في النقط. ولولا خوف الإنكار لنطقوا بما يبهر العقول. وكذلك لهم من إشارات العبارات عبارات معجمة وألسن مختلفة، وكذلك لهم في معاني الحروف والقطع والوصل والهمز والشكل والنصب والرفع ما لايحصر ولا يطلع عليه إلاهم. وكذلك لهم الاطلاع على ما هو مكتوب على أوراق الشجر والماء والهواء وما في البر والبحر وما هو مكتوب على صفحة قبة خيمة السماء وما في جباه الإنس والجان مما يقع لهم في الدنيا والآخرة. وكذلك لهم الاطلاع على ما هو مكتوب بلا كفاية من جميع ما فوق الفوقي وما تحت التحت ولا عجب من حكيم يتلقى علماً من حكيم عليم، فإن مواهب السر اللدني قد ظهر بعضها في قصة موسى والخضر عليهما السلام.(٢)

ومن أقواله أيضاً: حسنات الأبرار سيئات المقربين لأن المقرب يراعي الخطرات واللحظات وبعد ذلك من الهفوات ويفتش على هواجس النفوس ويراقب خروج أنفاسه ويخاف من حسناته كما يخاف المذنب من سيئاته والأبرار لا يقدرون على هذا الحال. وأيضاً فالمقرب لا يقول عند شرابه أواه ولا ما أحلاه ولا يصفق بكف ولا يصرخ ولا يشق ولا يضرب برأسه حجرا ولا يهيم ولا يمشي على الماء ولا يقفز في الهواء، فلما لم يقع منه شيء من ذلك أثبته أهل الطريق ونفوا من فعل ذلك لقلة ثبوته على الواردات مع أنهم سلموا له حاله لغلبته عليه، وجعلوا حسناته سيئات مع أن المقربين ليس لهم سيئات، إنما هي محاسبات عاليات نفيسات.(٣)

---

(١) ابن عياد الشافعي: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية، ص: ١٢١.
(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ١٤٧.
(٣) المصدر السابق، ص: ١٥٥.

ولقد أذاع النفرى رأياً قال فيه: "لا تفارق مقامك يميد بك كل شيء وليس مقامك إلا رؤيته تعالى فإذا دمت على رؤيته رأيت الأبد بلا عبارة إذ الأبد لا عبارة فيه لأنه وصف من أوصاف الله عز وجل لكن لما سبح الأبد خلق الله من تسبيحه الليل والنهار.[1]

وقد قيل فى معنى الحديث: من عرف نفسه عرف ربه. معناه: من عرف نفسه بذلها وعجزها عرف الله بعزه وقدرته.[2]

وقال تعالى فى أهل الكهف ما يعلمهم إلا قليل. وأهل الله كهف لأمور الناس ولكن قليل من يعرفهم.

وينبغى أن ننبه الأذهان إلى أن صلاة النبى (ﷺ) خلف عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه إشارة إلى أن المتبوع فى المعنى قد يكون تابعاً فى الباطن. وقد أوحى إلى نبينا محمد (ﷺ) أن اتبع ملة ابراهيم حنيفاً مع أنه القائل "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة. حتى إبراهيم عليه السلام يقول فى ذلك اليوم اجعلنى من أمتك".

ومن الرمزية فى التعبير قول أحد العلماء فى قوله تعالى ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[3]. المراد بالزينة هنا: المكارم والمحامد والفضائل، فهذه هى الزينة للنفوس الآدمية وضد ذلك من زينة البهائم. والمراد بكل مسجد هو كل هاد للخلق بنوره ومرشدهم إلى حسن العبودية.[4]

ولقد قيل فى قوله: "إن الله جميل يحب الجمال" فيه إشارة إلى أن الله يحب أن لا يرى أحد فى عبيده نقصاً لا ظاهراً ولا باطناً لأن العبد من مولاه وأمره راجع إليه.

---

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ١٧٥.

(٢) المصدر السابق، ص: ١٢.

(٣) سورة: الأعراف: الآية ٣١.

(٤) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج٢، ص: ٢٧.

وكان أحد العارفين يقول: ثم من العلوم اللدنية ما لا يمكن الجواب عنها حقيقة ولا شريعة مع أن التعبير عن كل ما يشهده الإنسان غير ممكن وذلك أن من المشهود ما هو أوسع أن يدخل فى ضيق العبارة وألطف من أن تكشفه الإشارة وذكر كل معلوم يدل على قلة علم صاحبه، لأن من المعلوم ما لا يدخل تحت دائرة الحصر كالعلوم الملكوتية المفاضة من عوالم الغيوب مما لا يفهمه العقل ولا يدركه الوهم ولا يسعه الحفظ وهو فى قلوب العارفين به يكون أولاً مجملاً ثم يفصل لهم بحسب الوقائع والحاجة إليه، ثم منه ما لا يكون إلا غيباً فى غيب، ومنه ما يكون غيباً فى شهادة، ومنه ما لا يؤذن فى إفشائه لأحد البتة ومنه ما يؤذن فى إفشائه لقوم دون آخرين وإذا كان ذلك كذلك فالجواب عن كل سؤال.

قال بعض من لاح له ما أشرنا إليه أكون حالة الأخذ عن البشرية فى حضرة أشاهد فيها ملائكة يتكلمون بلغة لدنية أفهمها هناك بفهم يناسب تلك الحالة الملكية، فإذا عدت إلى بشريتى نسيت ما علمت ولم أذكر شيئاً مما سمعت وذلك لأنى خرجت من وصف إلى وصف ومن عالم إلى عالم وكل علم له عالم بوصف ذلك العلم يدرك، حقائقه العالم. ولهذا كانت العلوم الكشفية غير العلوم العقلية والعقلية غير النقلية وعلم العبارة غير علم الإشارة. فمن أراد أن يأخذ علم الإشارة من العبارة فقد طلب المحال وأنكر على الرجال وحرم تمام الكمال.

وقد قيل: كان سجود الملائكة عليهم السلام لآدم عليه السلام إشارة لتواضع الصغير للكبير.

وقال تعالى حكاية عن مريم رضى الله عنها: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أى صمتاً وإمساكاً عن الكلام.(١)

ويفسر ابن الخطيب الأمر، والخلق فى قوله تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ (٢). بأن الأمر هو عالم الباطن أوعالم الروحانيات، وعالم الخلق هو عالم الظاهر أو عالم الجسمانيات.

---

(١) صالح الجعفري: أسرار الصيام للخواص والعوام، ص: ١٩.

(٢) سورة: الأعراف: الآية: ٥٤.

ويوضح ذلك فيقول: عالم الأمر مجموع خمسة عوالم: عالم السر، وعالم العقل، وعالم الروح، وعالم النفس، وعالم الصورة.

وعالم الخلق خمسة عوالم كذلك: عالم الطبيعة، وعالم الأفلاك، وعالم الكرسي، وعالم اللوح، وعالم القلم.

وفى عبارة أخرى: عوالم الأمر روحانيات، وعوالم الخلق جسمانيات.

والعرش ينتهى إليه كل من الأمر والخلق، فهو روحانى من حيث باطنه، جسمانى من حيث ظاهره.

الخلق والأمر تعبران عن الطريقة التى تتجلى بها الذات الإلهية.

فالخلق هو الإيجاد أو التقدير، والأمر هو التصريف أو التدبير كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾.(١)

ويقول حكيم: لا يتصرف فى الأسماء والحروف إلا من غيبه له مكشوف.

وقال آخر: لا تصحب من الرجال إلا من كان: حاله يترجم دون المقال.

وقال آخر: الحروف خزائن الله المخفية، فمن شاهدها: تصرف فى العلوية والسفلية. وسر الحروف لا يفشي، والعارف لا يرقب غير الله ولا يخشى.

وفى بعض أخبار داود عليه السلام أنه قال: يارب أين أجدك؟ فقال: اترك نفسك وتعال. أى غب عنها تجدني.

وفى هذا يفسر بعض الحكماء كلام الله لموسى عليه السلام فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.(٢)

إن المقصود بالنعلين هما النفس والجسد ... هوى النفس وملذات الجسد .. فلا لقاء بالله إلا بعد أن يخلع الإنسان النعلين: نفسه وجسده بالموت أو بالزهد.

---

(١) عبد الكريم الخطيب: الله والإنسان – قضية الألوهية بين الفلسفة والدين (القاهرة: دار الفكر العربى، ط٢، ١٣٨٢ه/١٩٦٢م) ص: ١٧٣.

(٢) سورة طه: الآية: ١٢.

والله سبحانه وتعالى يصورهما كنعلين لأنهما القدمان اللتان تخوض بهما الروح فى عالم المادة وعن طريقهما نزلت من سماوتها إلى الأرض.(١)

إن تجارب الصالحين منذ عصور متطاولة، دلت على أن تزكية النفس، وتطهيرها، والالتجاء إلى الله، والتقرب إليه، كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية تستشرف فيها النفس إلى الملأ الأعلى، فتفيض عليها منه نفحات، وإلهامات، ومعرفة لا تتأتى لذوى النفوس المادية، الذين شغلوا بالدنيا عن الدين وبالمادة عن الله.

وقد قال بعض العارفين: ما الحياة إلا فى الموت. أى ما حياة القلب إلا فى إماتة النفس. فالنعمة العظمى الخروج عن النفس لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله.

وقد عبر الإمام أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه عن طريق موت النفس بعبارات صحيحة مليحة، فقال: قتل النفس فى الحقيقة التبرى من حولها وقوتها أو شهود شيء منها وردّ دواعيها إليها وتشويش تدبيرها عليها وتسليم الأمور إلى الحق سبحانه وتعالى بجملتها وانسلاخها من اختيارها وإرادتها.

ومن الرمزية فى التعبير ننقل هنا ما وصف به حال رابعة، وحال أشباهها فى المحبة، ما ورد فى كتاب (شرح حال الأولياء) لعز الدين عبد السلام بن غانم المقدسي، من أنه قيل لرابعة: كيف رأيت المحبة ؟ فقالت: "ليس للمحب وحبيبه بين، وإنما هو نطق عن شوق، ووصف عن ذوق. فمن ذاق عرف، ومن وصف مما اتصف. وكيف تصف شيئاً أنت فى حضرته غائب، وبوجوده ذائب، وبشهوده ذاهب، وبصحوك منه سكران، وبفراغك له ملآن، وبسرورك له ولهان!... فما ثم إلا دهشة دائمة، وحيرة لازمة، وقلوب هائمة، وأسرار كاتمة، وأجساد من السقم سالمة، والمحبة بدولتها الصارمة، فى القلوب الحاكمة...

(١) مصطفى محمود: القرآن محاولة لفهم عصري (القاهرة: دار المعارف، ط٣، ١٩٨١م) ص: ١٣٥.

وقيل: سبعة أشياء لا توجد إلا عند سبعة أصناف من الناس، فمن وجد ذلك عند غيرهم فهو باطل، الحكمة عند الزاهدين، والسماع عند العاشقين، والحزن عند المشتاقين، والبكاء عند المحزونين، والذل عند المحبين، والإشارة عند الواجدين، والغناء عند المحبين.

العالم الكونى كله من بداية البشرية إلى النهاية الترابية مجموع أمرين: من ظاهر وباطن. أما الباطن فيعبر عنه بالأمر، وأما الظاهر فيعبر عنه بالخلق، قال تعالى: ﴿ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .

فعالم الأمر مجموع خمسة عوالم: عالم السر، وعالم الفعل، وعالم الروح، وعالم الصورة وانتهى الأمر إلى ظاهر العرش المجيد.

وعالم الخلق أيضاً مجموع خمسة عوالم: عالم الطبيعة، وعالم الأفلاك، وعالم الكرسي، وعالم اللوح، وعالم القلم وانتهى الخلق إلى ظاهر العرش المجيد.

إن الله سبحانه وتعالى خاطب العوالم بخطاب يليق بكل جزء من أجزائها، بصلاح حالها ودوام بقائها، فخاطب عالم السر بخاصية العلم: "أنه يعلم السر وأخفي". وخاطب العقل بالأمر والنهى "أقبل وأدبر"، وخاطب عالم الروح "قل الروح من أمر ربي"، وخاطب النفس بالوعد والوعيد "يا أيتها النفس المطمئنة"، "إن النفس لأمارة بالسوء".

وخاطب الصورة بما تسعه الإحاطة: "وسعنى قلب عبدى المؤمن"، وخاطب العرش بالتوحيد "إذا قال العبد لا إله إلا الله هتز له العرش"، وخاطب القلم بحقيقة العلم "اكتب علمى فى خلقي"، وخاطب اللوح بالحفظ "فى لوح محفوظ"، وخاطب عالم الكرسى "وسع كرسيه السموات والأرض"، وخاطب الأفلاك بالتصريف "كل فى فلك يسبحون"، وخاطب الطبيعة بالكون والفساد "كل من عليها فان".(١)

فما من عالم علوى أوسفلى إلا والله عز وجل يخاطبه بخطاب على الجملة، وخطاب على التفصيل، والإنسان يخاطب بهذه المخاطبات كلها، فإذا

(١) ابن الخطيب: روضة التعريف بالحب الشريف، ص: ١٣٦-١٣٧.

كان العالم جملة من تفاصيل الإنسان فهو العلة، وما سواه معلول له، والنور الآدمى حقيقة الإنسان، والنور المحمدى على هذه الحقيقة، وبه وصارت حقيقة، وهذا النور هو حقيقة الرسالة، وسر القرآن، والرحمة المنزلة، وهى العناية فى الدنيا، وسر الإيجاد، ومقتضى الإرادة العلية، ومعنى الكون ومميز الشهادة من الغيب.

الفصل الحادى عشر

البلاغة فى الإيجاز

الفصل الحادى عشر

البلاغة فى الإيجاز

الأمثال العربية غاية فى البلاغة والفصاحة من حيث إيجاد ألفاظها، وإصابة معانيها. فقد أوصلت إلينا الأمثال حكم العرب وإرشاداتهم وحسن أفكارهم ونتائج تجاربهم، وأعطتنا فكرة كاملة بكلام موجز عن الأشخاص الذين استعملوها، وصورت لنا أخلاقهم وعاداتهم.

لذلك كانت الأمثال والحكم سجلاً من سجلات العرب التي نقلت إلينا أحداثهم الهامة وثقافاتهم المختلفة.

وسوف نستعرض فى هذا الموضوع طرفاً من الأقوال التى تتسم بالبلاغة فى الإيجاز.

قال رجل لعمرو بن العاص: والله لأتفرغن لك! قال: هنالك وقعت في الشغل. فقال له الرجل: كأنك تهددني، والله لئن قلت لى كلمة لأقولن لك عشراً! فقال له عمرو: وأنت والله لئن قلت لى عشرا لم أقل لك واحدة!

وقال رجل لأبى بكر الصديق رضى الله عنه: والله لأسبنك سباً يدخل القبر معك. فقال الصديق: معك يدخل لا معي.

وقيل لعمرو بن عبيد: لقد وقع فيك اليوم أبو أيوب السجستانى حتى رحمناك. فقال عمرو: إياه فارحموا.

ومما يتناسق مع ما قلناه: أن رجلاً قال لضرار بن القعقاع: والله لو قلت واحدة لسمعت عشرا، فقال له ضرار: والله لو قلت عشراً لم تسمع واحدة.(١)

وقال صائغ يصف البلاغة: خير الكلام ما أحميته بكير الفكر وسبكته بمشاعل النظر وخلصته من خبث الإطناب فبرز بروز الإبريز فى معنى وجيز.

---

(١) عبد الرحمن الضبع: الأنابيش، ج٢، ص: ٨٦

ولقد أمر رسول الله (ﷺ) بإقصار الخطب، وبالإيجاز فى الكلام، فقال: **[إن الله بعثنى بجوامع الكلم، واختصر لى الحديث اختصارا].**(١)

من هنا جاء أمر الرسول (ﷺ) فى الحديث السابق بالإيجاز مع البيان للحق، ونهى عن الإكثار.

ونسوق هنا كلاماً لابن تيمية فى مناظرة بينه وبين ابن عطاء الله السكندرى عندما سأله ماذا تعرف عنى يا شيخ الإسلام؟

فأجاب ابن تيمية: أعرف عنك الورع وغزارة العلم وحدة الذهن وصدق القول، واشهد أنى ما رأيت مثلك في مصر ولا فى الشام حبًّا لله أو فناء فيه أو انصياعاً لأوامره ونواهيه، ولكنه الخلاف فى الرأي.

ومن أقوال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه:

أحسن بصاحبك الظن ما لم يغلبك (أى يغلب ظنك الحسن وذلك بعمله الشىء).

* لا خير فى خير لا يجىء إلا بالسيف.
* لا ينفع القلب إلا ما خرج من القلب.
* أحذر المرء فإنه لا تؤمن فتنته ولا حكمته.
* من لم يعلم أن كلامه من عمله كثرت ذنوبه.
* قد أفلح من عصم من المراء والغضب والطمع.

وقد قيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: اختيار الكلام وتصحيح الأقسام.

وقيل ذلك للرومي فقال: حسن الاختصار عند البديهة والغزارة يوم الإطالة.

وقيل للهندي: فقال: معرفة الفصل من الوصل.

وقيل للعربي: فقال: ما حسن إيجازه وقل مجازه.

---

(١) رواه الدارمى فى المقدمة. والبخارى فى الجهاد، وفى التعبير، والاعتصام، والنسائى فى الجهاد، وفى التطبيق.

وقيل للبدوي: فقال: ما دون السحر وفوق الشعر يفت الخردل ويحط الجندل.

وقيل للحضري: فقال: ما كثر إعجازه وتناسبت صدوره وأعجازه.

من هنا يتضح لنا الفرق بين الإيجاز فى الكلام والثرثرة.

وقد قيل: إن الانبعاق فى الكلام إنما يعنى الثرثرة أو الكلام أو أن صاحبه عندما يتكلم لم يوجز فى الكلام.

سئل حكيم: ما أمر الأشياء فى الدنيا وما أحلاها؟ فقال: أمر الأشياء استماع الكلام الخشن ممن لا قيمة له والدين الفادح وضائقة اليد. وأحلى الأشياء: الولد الطيب والكلام الطيب واليسار.

وسئل آخر: ما الموت وما النوم؟ فقال: النوم موت خفيف والموت نوم ثقيل.

وسئل آخر: ما الغنى؟ فقال: القناعة والرضا. فقيل: ما العشق؟ فقال: مرض الروح وموت فى حسرة.

ويقال: ثلاثة أشياء لا تجتمع مع ثلاثة أكل الحلال مع اتباع الشهوات والشفقة مع ارتكاب المعاصي، وصدق المقال مع كثرة الكلام.

وقال الشافعى رضى الله عنه: القول يزيد فى الدماغ، والدماغ من العقل.

ولقد قيل: فكرك فيك يكفيك. وقد جمع الله تعالى ذكر دلالتى النفوس والآفاق فى قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(١). وذلك أنا نعلم بالضرورة وجودنا أحياء قادرين عالمين ناطقين سامعين مبصرين مدركين بعد أن لم نكن شيئاً، وأن أول وجودنا كان نطفة قذرة مستوية الأجزاء والطبيعة غاية الاستواء بحيث يمتنع فى عقل كل عاقل أن يكون منها بغير صانع حكيم ما يختلف أجناساً وأنواعاً وأشخاصاً.(٢)

(١) سورة: فصلت: الآية: ٥٣.

(٢) ابن المرتضى اليماني: إيثار الحق على الخلق، ص: ٤٤.

قال تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ (١). فكلمة: إستبرق ليست بعربية. وهنا ينبغى أن نتنبه أن غير العربى من الألفاظ دون العربى فى الفصاحة والبلاغة. وهذا أمر لا شك فيه.

ونتساءل: ما الحكمة فى ذكر هذه الكلمة الأعجمية فى هذه الآية القرآنية؟

والجواب: أنه لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذه الكلمة غير العربية ويأتوا بلفظة عربية تقوم مقامها فى الفصاحة لعجزوا عن ذلك. وذلك لأن الفصيح لو أراد أن يترك هذا اللفظ لا يمكنه أن يأتى بما يقوم مقامه من الألفاظ العربية بحال من الأحوال لأن ما يقوم مقامه إما لفظ واحد أو ألفاظ متعددة.(٢)

ولعلنا نفقه من هدى القرآن. ولا يسأل الإنسان عما يجهل، ولكنه يسأل عما علم وعما وسعه أن يعلم، وما من شىء فى عالم الغيب أو عالم الشهادة هو محجوب كله عن علم الإنسان، فما وسعه من علم فهو محاسب عليه.

فالإنسان يعلو على نفسه بعقله، ويعلو على عقله بروحه. وحق العقل أن يدرك ما وسعه من جانبه المحدود، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبه المطلق إلا بإيمان أو إلهام.

ويكفينا فخراً أن القرآن الكريم، قد سن السنن، وقعد القواعد الشرعية وسبق غيره فى هذه الميادين. فالحقيقة التى ينبغى البصر بها والنفاذ إليها، أن الدين لابد أن يتفاعل مع واقع الحياة، وأن الفكر الدينى محصلة التقاء الحكمة الإلهية بالطبيعة البشرية.

وقال الأعمش: كان ابن عباس إذا رأيته قلت أجمل الناس، فإذا تكلم قلت أفصح الناس، فإذا حدث قلت أعلم الناس.(٣)

ولقد كان واسع الرواية قوى الحجة.

---

(١) سورة: الكهف: الآية: ٣١.

(٢) القنائي: سواطع الأنوار، ص: ٤٨-٤٩.

(٣) مناع القطان: تاريخ التشريع الإسلامي، ص: ٢٣٧.

ودعا له رسول الله (ﷺ) فقال: [**اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل**]. فاستجاب الله دعاءه.

وروى من دعاء رسول الله (ﷺ) له: [**اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب**].

وقال ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس.

وكان ابن عباس كثير المعارف، يؤم الناس للتفسير، والحديث، والفقه، والشعر.

وعن عطاء قال: ما رأيت قط أكرم من ابن عباس فى مجلسه: أكثر فقهاً، وأعظم خشية، إن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من واد واسع.

وعن مجاهد قال: كان ابن عباس يسمى البحر لكثرة علمه.(١)

وكان الحسن البصرى من سادات التابعين وكبرائهم، جمع كل فن، من علم، وزهد، وورع، وعبادة، وأكثر كلامه حكم وبلاغة. قال عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري.(٢)

ويقول محمد بن الحكم أحد تلاميذ الشافعي: لولا الشافعى ما عرفت كيف أرد على أحد، وبه عرفت ما عرفت، وهو الذى علمنى القياس رحمه الله، فكان صاحب سنة وأثر وفضل وخير، مع لسان فصيح طويل، وعقل صحيح رصين.

ونتاج الشافعي، وما تركه من آثار يشهد له بذلك، فقد أوتى علم العربية، وعلم الكتاب، وفقه الحديث، وضبط قواعد السنة، وبرز فى فقه الرأى والقياس.

وكان يقول: من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر فى الفقه نبه قدره، ومن نظر فى اللغة رق طبعه، ومن نظر فى الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه.

---

(١) مناع القطان: تاريخ التشريع الإسلامي، ص: ٢٣٥-٢٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص: ٢٥٩.

ولقد أتى الله الشافعى حظاً من المواهب يجعله فى الذروة الأولى من قادة الفكر، وزعماء الآراء، كان قوى المدارك،حاضر البديهة، عميق الفكر، بعيد الفهم، يعتمد على الضوابط العامة، والقواعد الكلية فى معرفة الجزئيات والفروع، وكان قوى البنيان، واضح التعبير، نافذ البصيرة قوى الفراسة، صافى النفس، طاهر القلب، مخلصاً فى الله.

قال الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه: تجد الرجل لا يخطئ بلام ولا واو خطيباً مصقعاً، ولقلبه أشد ظلمة من الليل المظلم. وهكذا الانهماك فى تطبيق القواعد اللفظية، بما يصرف توجهه عن المعانى ويقطع التفاته عن الهدف.

وهنا نستطيع القول: ليس معنى كون العبارة تتمتع بالصحة اللغوية والسياق اللغوى كونها صحيحة فربما تكون صحيحة من حيث السياق اللغوى ولكنها ليست صحيحة لكونها حقيقة علمية. والعكس ربما تكون العبارة صحيحة علمياً ولكنها غير صحيحة من حيث السياق اللغوي.

وروى أن بعض الأئمة سأل الإمام الرازى عن قوله تعالى: "أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين". لِمَ لمْ يقل: وتدعون أحسن الخالقين. وهذا أقرب فى الفصاحة للمجانسة بينهما. فقال الإمام لأنهم اتخذوا الأصنام آلهة وتركوا الله بعدما علموا أن الله ربهم ورب آبائهم الأولين استكباراً، فلذلك قيل لهم وتذرون ولم يقل وتدعون.(١)

وقد قيل: ومن تمسك بالعدل، وترك فضول الكلام، وأوجز فى النطق، وترك ما لا يعنيه، واقتصر فى أموره فهو عابد.(٢)

ويقول ابن عطاء الله السكندري: ليس الرجل من يربيك لفظه إنما الرجل من يربيك لحظه.

وقد قالت الفلاسفة: إن ترك الخير الكثير من أجل شر قليل شر كثير.

(١) أحمد بن يحيى الحفيد: كتب الدر النضيد من مجموعة الحفيد (القاهرة: مطبعة التقدم، ط١، سنة ١٣٢٢هـ) ص: ٢٣٦.

(٢) ابن عربي: الموعظة الحسنة، ص: ٢٢.

يقال إن عمر بن الخطاب ولى رجلاً من قريش عملاً فبلغه أنه قال:

اسقني شربة ألذ لديها ∴ واسق بالله مثلها ابن هشام

فأمر بعزله عن عمله، فلما قدم عليه قال له: ألست القائل وأنشده البيت. فقال الرجل نعم يا أمير المؤمنين وقد قلت بعده:

عسلاً بارداً بماء سحاب ∴ إنني لا أحب شرب المدام

فقال أمير المؤمنين: أكذا قلت؟ ورده إلى عمله.

وأتى عبد الملك بن مروان بمصلقة بن هبيرة وكان ممن أمر من جيش الخوارج تحت قيادة مدعى الخلافة شبيب. فأمر بقتله وقال له ألست القائل:

ومنا سويد والبطين وقعنب ∴ ومنا أمير المؤمنين شبيب

فقال: يا أمير المؤمنين: إنما قلت أمير المؤمنين (بالفتح) فاستحسن ذلك منه وأطلقه.

قدم الأحنف بن قيس سيد بنى حنيفة على معاوية بن أبى سفيان فأقام شهراً لا يسأله فيما جاء: فقال له يوماً يا أمير المؤمنين إنك ترعينى مرعى وبيلا، وتوردنى ظمأ طويلاً، أفيأس وراوح، أم حبس ونجاح؟ فقضى حاجته.

ووقف أعرابى على رجل يستميحه فقال: إنى امتطيت إليك الرجاء، وسرت على الأمل، ووفدت بالشكر، وتوسلت بحسن الظن، فحقق الأمل وأحسن المثوبة، وأقم الأود، وعجل السراح.

وقال بعض الشعراء مستنجزاً :

جعلت فداك قد وجب الزمام ∴ وقد طال التلبث والمقام

وقد أزف الرحيل إلى بلادي ∴ فرأيك لاعدمتك والسلام

وقال أبو الطيب فى مثل هذا:

لقد نظرت حتى حان مرتحلي ∴ وذا الوداع فكن أهلا لما شيتا

وكتب بليغ لصاحب حاجته: بنا إلى معروفك حاجة، ولك على حجتنا قوة، فانظر فى ذلك بما أنت له أهل ونحن له أهل.

وكتب بعضهم يستنجز: حقيق على من أزهر بقول أن يثمر بفعل، والسلام.

ووفد بشار بن برد على يحيى بن خالد فامتدحه فوعده خالد ومطله، فتصدى له فى طريقه وهو يريد الجامع وأخذ بعنان بغلته وأنشد:

أظلــت علينــا مــنك يوماً سحابة ∴ أضـــاء لها البرق وأبطا رشاشها

فــلا غــيمها يجلــى فييأس طامع ∴ ولا غيثها يهمى فتروى عطاشها

فقال له لن تنصرف السحابة حتى بتلك يا أبا معاذ، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

فإذا كانت اللغة هى وسيلة الفهم والتفاهم فإنها تدل على الحياة العقلية من ناحية أن لكل أمة فى كل عصر مظهر من مظاهر عقلها، فلم تخلق اللغة دفعة واحدة ولم يأخذها الخلف عن السلف كاملة، إنما يخلق الناس في أول أمرهم ألفاظاً على قدر حاجتهم. فإذا ظهرت أشياء جديدة خلقوا لها ألفاظاً جديدة. وإذا اندثرت أشياء قد تندثر ألفاظها، وهكذا اللغة فى حياة وموت مستمرين، كذلك الاشتقاقات والتعبيرات فهى أيضاً تنمو وترتقى تبعاً لرقى الأمة.(١)

قال ابن جنى فى "الخصائص": "إن العربى إذا قويت فصاحته، وسمت طبيعته، تصرف وارتجل ما لم يسبق إليه.

ويقول عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى ـ لابن البيطار فى غطرسة الملك وغروره "أنا عبد الملك، فارفع حوائجك إليّ، فيقول له فى عزة المؤمن: وأنا أيضاً عبد الملك، فهلم نرفع حوائجنا إلى من أنا وأنت له عبدان".(٢)

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: "إن أخوف ما أخاف إذا وقفت على الحساب، أن يقال: قد علمت، فماذا عملت فيما علمت؟".(٣)

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام (القاهره: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م) ص: ٨٣.

(٢) أبو العزائم، محمد ماضي: الفرقة الناجية، ص: ١٢.

(٣) أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الأجري: أخلاق العلماء، ص: ٧٠.

كما قال: "لا تكون عالماً حتى تكون بالعلم عاملاً".

وقد قيل: كان فتى يختلف إلى أم المؤمنين فيسألها وتحدثه، فجاء ذات يوم يسألها فقالت: يا بنى هل عملت بما سمعت؟ فقال: لا والله يا أمة؟ قالت: يا بنى ففيم تستكثر من حجج الله علينا وعليك؟!

وعن ميمون بن مهران، أن أبا الدرداء قال: "ويل للذى لا يعلم مرة، وويل للذى يعلم ولا يعمل سبع مرات".(١)

وعن مسروق، قال: "كنت أمشى مع أبى بن كعب، فقال له رجل: يا عماه كذا وكذا، فقال: يا ابن أخي: أكان هذا؟ قال: لا. قال: "فاعفنا حتى يكون".

وأخبرنا الصلت بن راشد، قال: سألت طاوساً عن شيء فانتهرني. وقال: أكان هذا؟ قلت: نعم. قال: آلله. قلت: آلله. قال: أصحابنا أخبرونا عن معاذ بن جبل، أنه قال: "أيها الناس لا تعجلوا بالبلاء قبل نزوله، فيذهب بكم هاهنا وهاهنا، فإنكم إن لم تعجلوا بالبلاء قبل نزوله لم ينفك المسلمون من أن يكون فيهم من إذا سئل سدد، أو قال: وفق.

قال رجل من العجم لملك كان من دهره: أوصيك بأربع خلال ترضى بهن ربك وتصلح بهن رعيتك، لا يغرنك المرتقى السهل إن كان المنحدر وعراً، ولا تعدن عدة ليس فى نيتك وفاؤها واعلم أن لله نقمات فكن على حذر، واعلم أن للأعمال جزاء فاتق العواقب.(٢)

وقد قيل: الشريعة كلها فيض، والعلم كله بسط، والقدرة كلها صفاء.

التدبر والتفكر والتأمل: ليست هذه الألفاظ مترادفة، فالتدبر يكون فى القرآن والحديث وفقه الشريعة. قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ (٣).

---

(١) المصدر السابق، ص: ٧١.

(٢) ابن عربي: محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ص: ١٤٢.

(٣) سورة: النساء: الآية: ٨٢.

والتأمل مرحلة تسبق التفكر. والتفكر يكون فى الأمور المسخرة للإنسان والتى لا دخل له فى عملها كالسحاب والشمس والقمر والنجوم. أما التأمل فيكون فيما للإنسان فيه دخل وما ليس له فيه دخل.

ويقول البسطامي: عرفت الله بالله، وعرفت ما دون الله بنور الله.

ويحدثنا أحمد بن مسروق عن العقل فيقول: "من لم يحترز بعقله من عقله لعقله هلك عقله".

قال رجل للثوري: ما الدليل على الله؟ قال: الله. قال: فما العقل؟ قال: العقل عاجز والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله.

ومن هنا كان الحكم بعجز العقل. إذا الأمر مجرد ذوق وحسن ووجدان.

وقال ابن عطاء: العقل آلة العبودية، لا للإشراف على الربوبية.

وقد قيل: "من الناس من عقله بفنائه، ومنهم من عقله معه، ومنهم من لا عقل له، فأما الذى عقله معه فالذى يبصر ما يخرج منه قبل أن يتكلم، وأما الذى عقله بفنائه فالذى يبصر ما يخرج بعد أن يتكلم، ومنهم من لا عقل له.(١)

وقد ورد فى أخبار داود عليه السلام أنه سأل ابنه سليمان أين موضع العقل منك؟ قال: القلب لأنه قالب الروح والروح قالب القلب.

ويقول صاحب: "أدب الدنيا والدين": لكل فضيلة أسا ولكل أدب ينبوعاً، وأسس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل الذى جعله الله تعالى للدين أصلاً وللدنيا عماداً فأوجب التكليف بكماله.(٢)

وروى عن النبى (ﷺ) أنه قال: **[لكل شيء دعامة ودعامة عمل المرء عقله فبقدر عقله تكون عبادته لربه]**. أما سمعتم قول الفجار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٣).

---

(١) ابن حبان البستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص: ٤٦.

(٢) أبو الحسن البصري: أدب الدنيا والدين، ص: ٤.

(٣) سورة الملك: الآية : ١٠

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أصل الرجل عقله وحسبه دينه ومروءته خلقه.

وقال بعض الحكماء: العقل أفضل مرجو والجهل أنكر عدو.

وقال بعض الأدباء: صديق كل امرئ عقله وعدوّه جهله.

وقال بعض البلغاء: خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ (١).

فدلت هذه الآية على أمرين: أحدهما أن العقل علم. والثانى أن محله القلب.

قالت الحكماء: آية العقل سرعة الفهم وغايته إصابة الوهم.

وقال بعض الحكماء: بترك ما لا يعنيك يتم لك ما يعنيك.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: العلم أكثر من أن يحصى فخذوا من كل شيء أحسنه.

كما قال: ذللت طالباً فعززت مطلوباً.

وقال بعض الحكماء: من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقى فى ذل الجهل أبداً.

وقد قيل: ما بينك وبين أن لا يكون فيك خير إلا أن ترى أن فيك خيراً.

وقال الفضيل بن عياض: رهبة المرء من الله تعالى على قدر علمه بالله تعالى.

وقال الحسن البصري: الدنيا كلها غم فما كان منها من سرور فهو ربح.

كما قال: نهارك ضيفك فأحسن إليه فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك وإن أسأت إليه ارتحل بذمك وكذلك ليلك.(٢)

وقال بعض السلف: أصاب الدنيا من حذرها ،أصابت الدنيا من أمنها.

وقد قيل لبعض الزهاد: لو سألت جارك أعطاك. فقال: والله ما أسأل الدنيا ممن يملكها فكيف ممن لا يملكها.

---

(١) سورة: الحج: الآية: ٤٦.

(٢) أبو الحسن البصري: أدب الدنيا والدين، ص: ١١٤.

وقيل لعيسى بن مريم على نبينا وعليه السلام: من أدَّبك. فقال: ما أدَّبنى أحد ولكن رأيت جهل الجاهل فجانبته.

قال رجل للحسن البصري: أينام إبليس؟ قال: لو نام لوجدنا راحة.

وقال الحسن بن صالح رحمه الله: إن الشيطان ليفتح للعبد تسعة وتسعين باباً من الخير يريد به باباً من الشر.(1)

ويقول أبو حازم: وجدت الدنيا شيئين: شيئاً لى وشيئاً لغيري. فأما الذى لغيرى فلو طلبته بكل حيل الأرض ما وصلت إليه، وكذلك الذى لى لن يستطيع أحد أن يناله منى.

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: أوصني. فقال: إياك والناس، وعليك بالناس، ولابد من الناس، فإن الناس هم الناس، وما أراهم بالناس، بل غمسوا فى ماء اليأس. فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة.(2)

وقد قيل: بما عاملت به الخلق يعاملك به الحق، وبما عاملت به الحق يعاملوك به الخلق.

كما قيل: لا تأخذ العلم إلا عمن يعمل به.

وقيل أيضاً: لا تصحب من الرجال إلا من كان: حاله يترجم دون المقال.

وكان سهل التسترى يقول: لو أن عبداً أعطى لكل حرف من القرآن ألف فهم لما بلغ نهاية علم الله فيه. وإنما يفهم على قدر ما يفتح الله على قلوب أوليائه من فهم كلامه.(3)

وقال شخص للنبى صلى الله عليه سلم عظنى وأوجز، فقال: إذا قمت إلى صلاتك فصل صلاة مودع ولا تتكلم بكلام معتذر منه غداً واجمع الإياس مما فى أيدى الناس.

---

(1) ابن الجوزي، جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن: تلبيس إبليس (القاهرة: دار الطباعة المنيرية، ١٣٦٨.

(2) الغزالي، أبو حامد: التوبة إلى الله. دراسة وتعليق عبد اللطيف عاشور (القاهرة: مكتبة القرآن، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦م) ص: ١٤٥.

(3) محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب (القاهرة: دار الشعب، ١٩٧٣م) هامش ص: ٩٠.

وقيل لابن مسعود رضى الله عنه: من ميت الأحياء؟ فقال: الذى لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.(١)

ومما يروى: شكا يهودى علياً بن أبى طالب رضى الله عنه إلى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه. فلما مثل بين يديه خاطب عمر اليهودى باسمه بينما خاطب علياً بكنيته فقال له: يا أبا الحسن. فظهرت آثار الغضب على وجه على. فقال عمر: أكرهت أن يكون خصمك يهودياً وأنت ماثل معه أمام القضاء؟ فقال على: لا، ولكنى كرهت وغضبت لأنك لم تسو بينى وبينه. فخاطبته باسمه وخاطبتنى بكنيتي.

ويحدثنا الإمام على عن القلب فيقول: القلب أنواع: القلب الأجرد، والقلب المنكوس، والقلب الأغلف، والقلب المصفح.

فالقلب الأجرد: هو انجراده بالزهد فى الدنيا وتجريده من الهوى. وسراجه الذى يزهو فيه هو نور اليقين يبصر به اليقين.

كما قيل: القلب الأجرد وهو انجراده بالتوحيد عن التشكيك والترديد والتقليد وتجريده عما سوى الله.

والقلب المنكوس: هو من اتخذ إلهه هواه.

والقلب الأغلف: هو المحجوب بظلمة ظلام جهل التقليد عن رؤية شمس النبوة والتوحيد.

وفى هذا قال بعض العارفين: أشد الظلم ظلمة العلم وأعظم الجهل جهل التقليد.

القلب المصفح: هو المتردد بين هوى النفس ومراداته بعلمه.(٢)

---

(١) ابن تيمية: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ص: ٢٠.

(٢) ابن عطاء الله السكندري: الله (القصد المجرد فى معرفة الاسم المفرد) ص: ٩١-٩٢.

وقديماً قالوا: اعرف الحق تعرف أهله. كما قيل: لا تعرف الحق بالرجال ولكن اعرف الرجال بالحق.(١)

ولقد جاء فى الحكم: لو قيل للطمع من أبوك؟ لقال: الشك فى المقدور. ولو قيل ما حرفتك؟ لقال: اكتساب الذل. ولو قيل: ما غايتك؟ لقال: الحرمان.

وقد قيل: من يمد يده لا يرفع سوطه ولسانه على المارقين.

وقيل أيضاً: الحاضر جسر يعبر عليه الزمان لينتقل من الماضى إلى المستقبل، والماضى تهيئة للحاضر، والحاضر إعداد للمستقبل، وكلما طال الماضي، كانت تهيئة الحاضر أتم وأوفى، وكان هذا الحاضر أنضج وأكمل.

ومما يروى: دخل رجل على عبد الملك بن مروان ممن كان يوصف بالعقل والأدب، فقال له عبد الملك بن مروان: تكلم، فقال: بم أتكلم وقد علمت أن كل كلام يتكلم به المتكلم عليه وبالٌ إلا ما كان لله، فبكى عبد الملك ثم قال: يرحمك الله ولم يزل الناس يتواعظون ويتواصون، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين إن للناس فى القيامة جولة لا ينجو عن غُصص مرارتها معاينة الرَّدَى إلاَ من أرضى الله بسخط نفسه، قال: فبكى عبد الملك، ثم قال: لا جَرَم لأجعلن هذه الكلمات مثالاً نصب عينى ما عشت أبداً.(٢)

سأل على ابن أبى طالب رضى الله عنه رسول الله (ﷺ): ما أفضل الصلاة؟ قال: **[ما أحضرت فيها القلوب، وذرفت فيها العيون، وخلصت فيها النيات وفاضت فيها العبرات].**(٣)

ويحكى عن يحيى بن خالد أنه وصف الفضل بن سهل وهو غلام على دين المجوسيَّة للرشيد، وذكر أدبه وحسن معرفته فعمل على ضمه إلى المأمون، فقال ليحيى يوماً: أدخل هذا الغلام المجوسِي حتى أنظر إليه فأوصله فلما مثل بين يديه ووقف تحيّر فأراد الكلام فأرتج عليه فأدركته كبوة، فنظر

(١) سلامة القصاعي: براهين الكتاب والسنة الناطقة (القاهرة: مطبعة السعادة سنة ١٣٦٦ هـ) ص: ١٤٠.
(٢) ابن عربي: محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ص: ١٦٤.
(٣) المصدر السابق، ص: ٢٣٨.

الرشيد إلى يحيى نظرة منكرة، لما كان يقدم من إفراط ثنائه عليه، فانبعث الفضل بن سهل، فقال: يا أمير المؤمنين إن من أبين الدلالة على فراهة الملوك شدة إفراط هيبته لسَيِّده، فقال له الرشيد: أحسنت والله، إن كان سكوتك لتقول هذا إنه لحسن وإن كان شيء أدركك عند انقطاعك أنه لأحسن وأحسن، ثم جعل لا يسأله عن شيء إلا رآه فيه مقدَّماً فضمه إلى المأمون.

ومن حديث ابن مروان، عن إبراهيم الحربي، عن الرياشي، عن الأصمعي، قال: خطب عبد الملك بن مروان بمكة لما حجَّ، فلما صار إلى موضع العظة قام إليه رجل، فقال: مهلاً إنكم تأمُرُون ولا تُأمرون، وتنهون ولا تنتهون، أفنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم أم نطيع أمركم بألسنتكم؟ فإن قلتم: اقتدوا بسيرتنا فأين وكيف وما الحجة؟ وكيف الاقتداء بسيرة الظلمة؟ وإن قلتم: خذوا الحكمة من حيث وجدتموها، فعلام قلدناكم أزمة أمورنا؟ أما علمتم أن فينا من هو أفصح منكم بفنون العظات، وأعرف بوجوه اللغات؟ فتلحلحوا عنها وإلاَ فأطلقوا عقالها، يبتدر إليها الذين شردتموهم فى البلدان، إن لكل قائم يوماً لا يعدوه، وكتاباً بعده لا يتلوه، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.(١)

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً وإنك لا تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس فى جنب الله، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً منك للناس.(٢)

وفد هشام إلى المدينة فأرسل إلى أبى حازم، فقال له: يا أبا حازم عظنى وأوجز، قال: لقد أوجزت يا أبا حازم، ارفع حوائجك إلى أمير المؤمنين، فقال أبو حازم: هيهات هيهات قد رفعت حوائجى إلى من تنجز الحوائج دونه فما أعطانى منها قنعت وما منعنى منها رضيت، وقد نظرت فى هذا الأمر فإذا هو نصفين أحدهما لى والآخر لغيري، فأما ما كان لى فيه وأما الذى لغيرى فذاك

(١) أبن عربى: نحاضرة الأبرار ومسامرة الاخبار، ص. ٢٧٠.
(٢) اس حنبل: الزهد، ص: ١٣٤

الذى لا أطمع نفسى فيما مضى ولا أطمعها فيما بقي، وكما منع غيرى رزقي، كذلك منعت رزق غيرى فعلام أقتل نفسي.(١)

قيل لحاتم الأصم: كيف أصبحت؟ قال: كيف يصبح من أجله قريب، وأمله بعيد، والموت أمامه، والقبر مسكنه، وهو مع ذلك مطالب بتسع خلال، قلت: وما هن؟ قال: أصبحت والله سبحانه وتعالى يطالبنى بالفرض، والنبى صلى الله عليه وسلم يطالبنى بالسنة، والعيال بالنفقة، والنفس بالقوت، والوالدان بالبر، والملكان بصدق اللسان، والقبر بالجسم، والدود باللحم، ومنكر ونكير بالحجة فهؤلاء غرمائى وهذه ديوني، فكيف يجب أن يكون من يصبح كل يوم على هذه الصفة وقد غلب تقصيرى على الوفاء.(٢)

وكان أويس الخولانى رضى الله عنه يقول: إعراب اللسان يقيم جاهك عند الناس وإعراب القلب يقيم جاهك عند الله تعالى.(٣)

وكتب الأوزاعى إلى إبراهيم بن أدهم قائلاً: إنى أريد أن أصحبك يا إبراهيم. فكتب إليه إبراهيم رضى الله عنه إن الطير إذا طار مع غير شكله طار الطير وتركه.(٤)

وقد قيل: إن الله تعالى يعطى الزاهد فوق ما يريد ويعطى المستقيم موافقة ما يريد.

وهنا ينبغى أن نوضح أن القاصر عن درجة العلماء العارفين بأسرار الشريعة رضى الله عنهم أجمعين من شأنه أن يحذر من التكلم على حصر مراد كل قائل من الشارع (ﷺ) والعلماء والأولياء، فإن التكلم على حصر مراد الغير فى معنى واحد غالبه خطأ قطعاً؛ إذ لا يتحد اثنان فى ذوق واحد ومرتبة لوسع الطرق لأنها بعدد أنفاس الخلائق فكل صاحب نفس له طريق تخصه فلا يصح

---

(١) ابن عربى: محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، ص: ٣٨٤.

(٢) المصدر السابق، ص: ٣٨٨.

(٣) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ٥٩.

(٤) المصدر السابق، ج١، ص: ٥٩.

أن يقال مراد القائل من هذا الكلام كذا فقط وإنما الأدب أن يقال الذى فهمته منه كذا ولا يقطع لأنه حصر للحق فى مذهب واحد وماذا بعد الحق إلا الضلال. فمن لم يشهد أن الشريعة واسعة تسع جميع المذاهب لزمه أمر شفيع لا يمكنه الخروج عنه وهو تخطئة بقية من خالفه من الأئمة المجتهدين وسائرهم على هدى من ربهم، فعلم أنه ليس فهم كلام المتكلم أن تعلم وجوه ما تضمنته تلك الكلمة بطريق الحصر بما تحتوى عليه مما تواطأ عليه أهل ذلك اللسان، إنما الفهم أن يفهم ما قصده المتكلم بذلك الكلام من قصد جميع الوجوه أو بعضها فينبغي لك أن تفرق بين الفهم للكلام والفهم عن المتكلم وهو المطلوب.

فالفهم عن المتكلم ما يعلمه إلا من أنزل القرآن على قلبه. وأما الفهم للكلام فهو للعامة. فكل من فهم من العارفين غير المتكلم فقد فهم الكلام. وما كل من فهم الكلام فهو عن المتكلم ما أراد به على اليقين له من كل الوجوه أو من بعضها.

فتأمل هذا التدقيق فإنك لا تجده فى كتاب. واعلم أنك عاجز عن الإحاطة بفهم كلام جنسك فكيف لا تعجز عن فهم كلام رب العالمين. فلا ينبغى أن يفسر كلام الله تعالى إلا كحمل ورثته الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المبرئين من الهوى.

ومما يروى عن بعض علماء النحو أنه حضر مجلساً لابن سمعون الواعظ، فسمع فى لسان ابن سمعون غلطاً فى كلامه، فانقطع عن المجلس، فكتب إليه ابن سمعون: مالى أراك من الإعجاب رضيت أن تقف دون الباب، أما سمعت رسالة بعض العارفين إلى بعض المتأدبين: كتبت إلى من اعتمد على ضبط أقواله، ولحن فى أفعاله أنك رفعت وخفضت وجزمت ونصبت وانقطعت ...، ألا رفعت إلى الله جميع الحاجات؟ ألا خفضت صوتك عن المنكرات؟ ألا جزمت نفسك عن الشهوات؟ ألا نصبت بين عينيك ميراث الممات؟ أما علمت أنه لا يقال غداً للعبد لِمَ لَمْ تكن معرباً وإنما يقال له لِمَ كنت مذنباً؟، يا هذا ليس المرغوب الفصاحة فى المقال وإنما الفصاحة فى الأفعال ولو كانت الفصاحة محمودة فى المقال دون الأفعال لكان هارون أولى بالرسالة

من موسى عليه السلام، قال الله تعالى إخباراً عن قول موسى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾.(١)

فجعلت الرسالة لموسى عليه السلام لفصاحة أفعاله. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.(٢)

وقد قيل: من علامة عدم حرية الرجل نقله قدمه حيث قاده هواه.

كما قيل: من دليل استقامة المؤمن شوقه لما ليس فيه هوى نفسه وخوفه ورجاؤه مما لا يلائم نفسه.(٣)

وروى ابن المبارك بسنده عن سليمان قال: إن لكل امرئ جوانياً وبرانياً، فمن يصلح جوانيه يصلح الله برانيه، ومن يفسد جوانيه يفسد الله برانيه.

ولقد جاء في الزهد لابن حنبل: حدثنا مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد أن أبا الدرداء كتب إلى سلمان الفارسي أن هلم إلى الأرض المقدسة، فكتب إليه سلمان أن الأرض لا تقدس أحداً وإنما يقدس الإنسان عمله.

ومن المرويات عن أحد العلماء أنه قال: الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة.

وقد قيل: لا تهجر ذات أخيك ولكن اهجر ما تلبس من المذمومات، فإذا تاب من ذلك فهو أخوك.

كما قيل: لا تعب أخاك مما أصابه من معايب دنياك فإنه في ذلك إما مظلوم لينصرنه الله، أو مذنب عوقب فطهره الله أو مبتلى فوقع أجره على الله.

وكان أحد العلماء يقول من الرعونة أن تفتخر بما لا تأمن سلبه، أو تعير أحداً بما لا يستحيل في حقك وأنت تعلم أن ما جاز على غيرك جاز عليك وعكسه.

---

(١) سورة القصص: الآية: ٣٤.

(٢) سورة الأنعام: الآية: ١٢٤.

(٣) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج١، ص: ١٧٠.

قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١). وهنا ينبغى أن نوضح أن هناك فرق بين الكلام والإخبار.

وقد قيل: إثبات المسألة بدليلها تحقيق، وإثباتها بدليل آخر تدقيق، والتعبير عنها بفائق العبارة ترقيق، ومراعاة علم المعانى والبيان فى تركيبها تنميق، والسلامة من اعتراض الشرع فيها توفيق.(٢)

وينبغى أن نفهم إذا فهمت المعانى فلا مشاحة فى الألفاظ. وقد قال الإمام مالك رضى الله عنه بالمعانى تعبدنا لا بالألفاظ.(٣)

ولقد قيل: لا يصح التعبير عن حقيقة الإيمان لأنه شىء وقر فى الصدر لا يمكن التعبير عنه. وأما ما ورد فى السنة من الألفاظ التى تحكم لصاحبها بالإيمان فكلها راجعة إلى التصديق والإذعان اللذين هما مفتاحان لباب العلم بالمعلوم المستقر فى قلب العبد بالفطرة. ولذلك لم يسأل أحد من الصحابة رسول الله (ﷺ) عن حقيقة هذه الألفاظ ولا ناقشوا أصحابها بل أجروا حكمهم على الظاهر ووكلوا سرائرهم إلى الله تعالى.

من هنا قيل: ما دامت العلوم فى معادنها فهى واسعة مطلقة لا تقبل تغييراً ولا تبديلاً، فإذا ظهرت مقيدة بالحروف دخلها ما يدخل الكون من التغيير والتبديل واختلاف العبارات.

وقد نبهنا الله فى كتابه العزيز أن الدين لا يكون إلا وحياً من الله إلى أنبيائه الذين يختارهم من عباده ويرسلهم أئمة يهدون بأمر الله. وهذا ما يمثل إليه فى الجو الإسلامى ولا ملامة علينا إذا فصلنا تعريف الدين فى الجو الإسلامى عن تعريف الدين فى علم مقارنة الأديان الغربى تأسيساً بما فعله القرآن الكريم، فهل بعد الحق إلا الضلال؟ وقد افترقت صفات الدين الحق. دين الله، عن صفات دين الشرك والأصنام والأهواء.

---

(١) سورة: النساء: الآية ٦٤.

(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى، ج٢، ص: ٦٣.

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص: ٦٥.

فإذا فقد دين الوحى أو النبوة مثل نحلة المسيحية فهى ليست بدين إلهى صحيح، فإن قولهم عيسى ابن مريم ينتفى عنه النبوة وبانتفاء النبوة ينتفى عنصر من عناصر الدين فلا تبقى المسيحية متصفة بأنها دين من عند الله.

ويقول الراغب الأصفهانى فى كتابه: "المفردات فى غريب القرآن": الملة كالدين: وهو اسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتواصلوا به إلى جوار ربهم.

وقال في أساس البلاغة: ومن المجاز فى استعمال الملة: بمعنى الطريقة المسلوكة ومنها ملة إبراهيم حنيفاً. وعليه فالفرق بين الدين والملة أن الدين ما يكون عليه كل واحد من أهل الملة الواحدة. وأن الملة اسم لجملة الشرائع.

ويعود الراغب الأصفهانى فيقول: والفرق بين الملة والدين: أن الملة لا تضاف إلا إلى النبى عليه الصلاة والسلام التى تستند إليه مثل قوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي﴾ (٢).

ولا تكاد توجد مضافة إلى الله ولا إلى آحاد أمة النبى (ﷺ)، ولا تستعمل إلا فى جملة الشرائع دون آحادها. فلا يقال: ملة الله. ولا يقال: ملتي. كما يقال: دين الله وديني.(٣)

وعلى هذا فأحكام التوراة ملة، هى ملة موسى، وأحكام الإنجيل ملة، هى ملة عيسى، لأنها مجموعة من الشرائع التى حملها موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

وعلى هذا فدين الله واحد هو الإسلام ولكل نبى ملة هى شريعة الله الخاصة بقومه.

---

(١) سورة: النحل: الآية ١٢٢.

(٢) سورة: يوسف: الآبه ٣٨.

(٣) رؤوف شلبي: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء (القاهرة: دار الاعتصام، الطبعة الثانية، ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠م، ص: ٦٣-٦٥.

ومعروف أن دين الإسلام دين الله للناس كافة، فهو إذن ليس نحلة بالمفهوم الذى وضعه علماء الغرب لمعنى نحلة.[١]

فالنحلة استعمال ضيق للتعبير عن إلحاق فرد أو جماعة بعقيدة معينة، سواء كانت هذه العقيدة دينية أو غير دينية، وسواء كانت صحيحة أو غير صحيحة.

ومن البلاغة فى الإيجاز: أخذ كل موجود حظه مما قابله. بحسب: كل ميسر لما خلق له".[٢]

وقد قيل: من خاف الله مولاه، خاف منه كل ما سواه.

ولقد جاء فى الحكم: الأخ من عرف حال أخيه فى حياته وبعد ما يواريه.

ويقول حكيم: إذا انفسدت أحوال الشريعة، فأشراط الساعة سريعة.

كما قال: إذا فسدت معاملة الناس تمكن منهم الوسواس.

من هنا قيل: لا تصحب من الناس إلا كل متشرع ذى بأس.

يقول الإمام النفري: إن الجسد حقيقة فانية وإنه ثوب ابتلاء خلقه الله لامتحان الروح.

وقد قيل: كلمة أنا لا يقولها إلا كل صاحب غفلة، وكل من كان محجوباً عن الحقيقة.

كما قيل: العلم ذو طرقات، والطرقات ذوات فجاج، والفجاج ذوات مخارج، والمخارج ذوات اختلاف، والاختلافات متاهة... والعقل إذا درى رجح بين احتمالات ووقع فى المختلفات.

والعلم البشرى علم له ضد لأن كل وجهة نظر تثير فى الذهن نقيضها. والجهل البشرى جهل له ضد. أما العلم الربانى اللدنى فهو علم يقينى ليس له

---

(١) رؤوف شلبي: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء (القاهرة: دار الاعتصام، الطبعة الثانية، ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠م، ص: ٦٣-٦٥.

(٢) لفظ حديث شريف رواه الإمام أحمد وأبو داود عن عمران بن حصين، والترمذى عن عمر، والامام أحمد عن أبى بكر.

ضد. وكذلك الجهل العرفانى فهو جهل أصلى ليس له ضد لأن الجهل بالذات الإلهية حقيقة نهائية لا ضد لها. إذ إن الله مجهول الهوية "ليس كمثله شيء" وهى صفة ذاتية له على وجه الأصالة.

ومما ينبغى أن يفهم أن للمصطلحات والأسماء الشائعة بين الناس للأشياء جناية على الحقائق، ولهذه الجناية قصة طويلة فى كل فن ولغة وفى كل أدب ودين، فإنها تولد كائناً آخر، تنشأ عنه الشبهات.

وسئل محمد بن عبد الله الفرغانى عن الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى صح الاستغناء به، فقال: إذا صح الاستغناء به صح الافتقار إليه، فلا يقال أيهما أكمل لأنه لا يتم أحدهما إلا بالآخر.

وهنا يوضح ابن قيم الجوزية ذلك بقوله: الاستغناء بالله هو عين الفقر إليه وهما عبارتان عن معنى واحد، لأن كمال الغنى هو كمال عبوديته، وحقيقة العبودية كمال الافتقار إليه من كل وجه، وهذا الافتقار هو عين الغنى به.(1)

يقول أهل السنة إن الدين نص تفسره أسباب النزول واللغة والرواية.

قال العلامة ابن خلدون فى مقدمته: إن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان. ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان، فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه، يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطبتهم، وينظم الكلام على ذلك الوجه، وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه منحى البلاغة التى للعرب.

ثم يمضى ابن خلدون فى بحثه عن الذوق فيعتبره ميزاناً من موازين الحكم الأدبي، بل يعتبره الحاكم المستبد بذلك فيقول: وملكة البلاغة ــ التى هى الذوق ــ تهدى البليغ إلى وجوه النظم وحسن التركيب الموافق لتركيب العرب فى لغتهم ونظم كلامهم.

---

(1) ابن قيم الجوزية: طريق الهجرتين، ص: ٤٤-٤٥.

وكذلك أشار الشيخ عبد القاهر الجرجانى إلى صلة الذوق بصيرفة الكلام والحكم عليه فى مواضع متفرقة فى كتابه: "دلائل الإعجاز" فقال وهو يتحدث عن اللفظ والنظم:

"واعلم أنه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعاً من السامع، ولا يجد لديه قبولاً، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة". وقد ختم كتاب دلائل الإعجاز بكلام طويل انتهى فيه إلى أن العمدة فى إدراك البلاغة إنما هو الذوق والإحساس الروحاني، فلا يصح للإنسان أن يرى الرأى فى الأدب، ويقضى فى الشعر "إلا إذا صحت قريحته، وصح ذوقه، وقت أدائه"، ثم أتى لهذا الكلام بكثير من الشواهد والأمثال، وحث القارئ على التدبر فيها والتأمل.

وفى هذا المعنى يقول ابن خلدون: "إن الذوق ملكة تحصل بالممارسة والاعتياد والتكرار لكلام العرب، فإن عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه والفارسى والزمخشري، وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجاماً فى نسبهم فقط، وأما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم، واستولوا بذلك من الكلام على غاية لا وراءها، وكأنهم فى أول نشأتهم من العرب الذين نشأوا فى أجيالهم.

ومهما يكن من شيء، فإن المقياس العملى للفصاحة فى أى أدب يجب أن يلتمس فى كلام فحوله، وأعيان البيان فيه على كلامهم، يجب أن يربى الذوق، وبمقياسهم يجب أن يقيس.

وفى الحق أن علوم البلاغة فى أى لغة لم تستنبط إلا من مثل ذلك الكلام، وليس يعوز الأدب العربى شيء من هذا كله، ففيه من كل نوع من أنواع البلاغة المثل بعد المثل، فيه القرآن هو المثل الأعلى الذى لا يفتأ يرقى بمن يهتدى به فى مراقى البلاغة، وفيه تحققت غاية البلاغة البشرية فى كلام الرسول (ﷺ) وكلام خلفائه وأصحابه، وفيه قبل ذلك ومن بعد ذلك مثل للبلاغة بعضها فوق بعض، وبعضها يدنى من بعض، لا يستطيع الأديب ولا الناقد أن يهملها وهو يطمع أن يكون له فى العربية مكان بين المجيدين.

وقد قيل: إذا كان للمحسن من الثواب ما يقنعه، وللمسيء من العقاب ما يقمعه ازداد المحسن فى الإحسان رغبة، وانقاد المسيء للحق رهبة.

ويقول ابن تيمية وهو فى سجن القلعة: ماذا يفعل بى أعدائي، وجنتى وبستانى فى صدري. أنا سجنى خلوة، وقتلى شهادة، وإخراجى من بلدى سياحة.

وقد قيل فى الإيمان:

من آمن بوجود الله، لم يكن من المتجبرين.

ومن آمن برحمته، لم يكن من اليائسين.

ومن آمن بحكمته، لم يكن من المترددين.

ومن آمن بمراقبته، لم يكن من المخدوعين.

ومن آمن برزقه، لم يكن من الطامعين.

ومن آمن بعدالته، لم يكن من الظالمين.

ومن آمن بوعده، لم يكن من المتقاعسين.

ومن آمن بوعيده، لم يكن من المخالفين.

ومن آمن بذلك كله، كان من عباده المقربين.

وقيل أيضاً فى المحكم والمتشابه:

المحكم: ما عرف المعنى المراد منه واتضح.

أما المتشابه: ما استأثر الله تعالى بعلمه، كقيام ساعة، والموت والحياة. وكذلك الحروف المقطعة التى تبدأ بها السور.

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال فى قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (١): البر هو اللسان، والبحر هو القلب. فإذا فسد اللسان، بكت عليه النفوس. وإذا فسد القلب، بكت عليه الملائكة.

---

(١) سورة: الروم: الآية:٤١.

خاتمة ونتائج عامة

والآن وبعد أن فرغنا من دراستنا لموضوع:

"اللسان ميزان بين الصمت والكلام"

وما ينطوي عليه من معاني علينا أن نلم في هذه الخاتمة بأهم النتائج التى انتهينا إليها نلخصها في النقاط الآتية:

أولاً: اللسان جارحة الكلام، واللسان: اللغة والكلام، ولسان الحال: ما دل عليه حال الشيء، ولسان الصدق: الذكر الحسن.

وقد وردت كلمة: "لسان" في القرآن الكريم في آيات كثيرة.

فاللسان أحد الحواس وهو عضو التكلم كما أنه وسيلة لنقل الأفكار وطريق للذكر الحسن. كما أن اللسان ترجمان القلب.

من هنا قيل: خلق الله اللسان ترجماناً للقلب، ومفتاحاً للخير والشر.

ولقد أمرنا الحق سبحانه وتعالى بحفظ اللسان لكونه عضو التكلم. كما أنه الوسيلة الوحيدة لنقل الأفكار. فالسلامة في السكوت. واعلم أن الإنسان لا يغلب الشيطان إلا بالسكوت. فينبغي للمسلم أن يكون حافظاً لسانه حتى يكون في حرز من الشيطان ويستر الله عليه عورته.

ولقد كان السلف الصالح يكرهون فضول الكلام، كما كانوا يعدون كل كلام فضولاً ما عدا كتاب الله تعالى أن يقرأه أحد أو أمراً بالمعروف أو نهياً عن المنكر أو تنطق بحاجتك في معيشتك التى لا بد لك منها.

وهكذا ينبغي للمسلم أن يحاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب في الآخرة؛ لأن حساب الدنيا أيسر من حساب الآخرة وحفظ اللسان في الدنيا أيسر من الندامة في الآخرة.

فينبغي للعاقل أن لا يتكلم بكلام لا فائدة له فيه. وينبغى أن يتكلم بكل كلام فيه منفعة في أمر دنياه وآخرته ويحفظ فرجه ولسانه.

وقد قيل: إذا ذكر اللسان سكنت النفس، وإذا ذكرت النفس سكن القلب، وإذا ذكر القلب سكنت الروح، وإذا ذكرت الروح سكن السر، وإذا ذكر السر سكنت نفحة القدس، وإذا ذكرت نفحة القدس ذكر الله تعالى.

فمن عدَّ كلامه من عمله، قل كلامه. فالنميمة من آفات اللسان التى يجب الصمت عنها، وحقيقتها إفشاء السر، وهتك الستر عما يكره الإنسان كشفه، فينقل للغير القول الذي قيل في حقه.

ومما ينبغي أن يُفهم أن اللسان ترجمان القلب، فيجوز أن تتكلم بما لا تعتقده فتعامل بموجب ما تكلمت، ولا يفيدك سرد المعاذير، وإن أفادتك في عدم إقامة الحد فلا تفيدك من الشبهة التى أصبحت لا تفارقك ولا تدري كيف التخلص منها.

وهذا يؤكد أن خطر اللسان عظيم، ولا نجاة منه إلا بالنطق بالخير.

من هنا قيل: "لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه".

ومما ينبغي أن يفهم الواجب على كل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد ينجرُ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثير في العادة والسلامة لا يعدلها شيء.

من هنا ينبه أحد العلماء: إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك، والزم الصمت، فإنه ستر للجاهل وزين للعاقل.

ولقد صدق الإمام على رضي الله عنه: قلّ ما ينصفك اللسان في نشر قبيح أو إحسان.

كما قال: ما أضمر أحدٌ شيئاً إلا ظهر من فلتات لسانه وصفحات وجهه.

وقال أيضاً: من كتم سره ممن يحب كراهية أن يشهره عند غضب من المستودع، فهو اللبيب.

وقد قيل: من أطلق طرفه كثر أسفه.

وعفة اللسان صمته من الفراغ.

ونستطيع أن نقول بيقين غش القلوب يظهر في زلات اللسان، وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول: لا تدع لسانك يقطع رأسك.

ومما قيل: حفظ اللسان من كرامة الإنسان.

كما قيل: خير القول ما أغناك جدّه وألهاك هزله.

وقيل أيضاً: صلاح الإنسان في حفظ اللسان. فمن حفظ لسانه نجا بينما فلتات اللسان تؤدي إلى هلاك الإنسان.

ومن كف لسانه ستر عورته. ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما أحوج إلى طول سجن من لساني.

وقال أبو الدرداء: انصف لسانك من فيك، فإنما جعلت لك أذنان وفم واحد لتسمع أكثر مما تتكلم به.

من هنا جاءت الوصية: ليكن لسانك في السر والعلانية لساناً واحداً وكذلك قلبك إني أحذرك لنفسك وكفى بي من خبير لا يصلح لسانان في فم واحد، ولا سيفان في غمد واحد، ولا قلبان في صدر واحد، وكذلك الأذهان.

وفي وصية لقمان لابنه بعلوم وحكمة بليغة قال: "يا بني من لا يملك لسانه يندم، ومن يدخل مداخل السوء يتهم، ومن يصاحب أهل السوء لا يسلم، ومن يجالس العلماء يغنم.

ثانياً: لقد خلق الحق سبحانه وتعالى الإنسان، وبدأ خلقه من طين، ثم جعل نسله من ماء مهين، وسواه فعدله، وجعله في أحسن صورة، سخر له كل ما في الوجود، حتى الملائكة لخدمته، خلقه ليعمر به ملكه وملكوته، وجعل له الأرض مقراً للإقامة، ومستقراً له بعد الموت. وكل ما في الملك والملكوت مسخر لخدمته، وصرفه الحق تبارك وتعالى بتصريف الربوبية في الملك. لذلك كان الإنسان خليفة الله فى أرضه، ووعده الحق عند الاستقامة الفوز بالجنة.

ولما كان الإنسان على هذا الوصف السابق خلق الله سبحانه وتعالى له لساناً يعبر به عن اللغة والكلام. فإذا انحدر اللسان عن طريقه تعرض لجملة من الآفات نذكر منها:

ـ الخطأ في فحوى الكلام فيما يرتبط بأمور الدين، لا سيما فيما يتعلق بالله سبحانه وتعالى ولا يقدر على تقويم اللفظ بذلك إلا العلماء الفصحاء، فمن قصر في علم أو فصاحة، ولم يخل كلامه عن الزلل، فإن يعفو الله عنه لجهله.

ومن آفات العوام سؤالهم عن صفات الله سبحانه وتعالى وكلامه.

اعلم أن الشيطان يخيل إلى العامي أنك بخوضك في العلم تكون من العلماء وأهل الفضل، فلا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم بما هو كفر وهو لا يدري.

ـ ومن آفات اللسان فضول الكلام وهو أيضاً مذموم. وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني ولزيادة فيما يعني على قدر الحاجة، فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يحسمه ويقرره ويكرره. ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول. أي فضل عن الحاجة وهو أيضاً مذموم وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر.

ومن مرويات بعض الصحابة أن الرجل ليكلمني بالكلام لجوابه أشهى إليّ من الماء البارد إلى الظمآن، فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولاً.

واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور في كتاب الله تعالى.

ـ ومن آفات اللسان الخصومة: وهي أيضاً مذمومة وهي وراء الجدال والمراء. فالمراء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير وإظهار رمزية الكياسة. والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها، والخصومة لجاج في الكلام ليستوفي به مال أو حق مقصود وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضاً. والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سابق.

فالخصومة مبدأ كل شر وكذا المراء والجدال فينبغي ألا يفتح بابه إلا لضرورة. وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة.

من هنا قال بعض الحكماء: الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح.

ـ الكلام فيما لا يعني: وهنا يجب على المرء ترك ما لا يعنيه لأن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه كما علمنا رسول الله (ﷺ).

ـ كلام ذي اللسانين: وهو الذي يتردد بين المتعادين، وينقل كلام كل واحد إلى الآخر، ويكلم كل واحد بكلام يوافقه، أو يعده أنه ينصره، أو يثني على الواحد في وجهه ويذمه عند الآخر.

ـ الخوض في الباطل: وهو الكلام في المعاصي، كذكر مجالس الخمر، ومقامات الفساق. وأنواع الباطل الكثيرة. فينبغي للإنسان أن ينكر المنكر من القول، ويبين الصواب.

ـ التقعر في الكلام: وذلك يكون بالتشدق، وتكلف السجع.

ـ الفحش والسب والإيذاء، ونحو ذلك، فإنه مذموم منهى عنه ومصدره الخبث واللؤم.

ـ إفشاء السر، وإخلاف الوعد، والكذب في القول واليمين، وكل ذلك منهى عنه، ومما ينبغي أن يفهم أن اللسان في الفتنة أشد من وقع السيف.

ـ ومن آفات اللسان: الكذب، وشهادة الزور وكتم الشهادة واليمين الغموس، واللعن، والسب.

لقد حذر الله سبحانه وتعالى ـ في كثير من آى القرآن ـ من آثام اللسان، وحذر رسوله (ﷺ) ـ في كثير من الأحاديث النبوية ـ عن آثام اللسان.

ولقد شرف الحق سبحانه وتعالى الإنسان بمضغتين جنانه ولسانه. فالجنان قابل واللسان قائل. ذاك عارف مستقر وهذا معترف مقر. ذاك ينشئ وهذا يحرر. وذاك يفتي وهذا يكرر. ذاك غدير وهذا سابح. وذاك قليب وهذا ماتح. ليكن قلبك فكوراً ولسانك ذكوراً. حتى تتعادل كفتاك، وتتقابل حافتاك. فإذا عزمت فتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً.

واعلم أن حصائد الألسنة قد تزرع العداوة. وطيارات الكلام قد تكبر العلاوة. ورب كلام يعود كلماً، ورب لثم يصير ثلماً. وخدذ اللسان ثلمة لا تنسد. والكلام كالنبل إذا طار لا يرتد. فلا تبرم كل حسباته من حنية النية. ولا تمتح كل صبابة من طوى الطوية. فربما تندم حيث لا ينفع الندم.

من هنا كان الواجب على الإنسان أن يحفظ لسانه وأن يكون في موقف الحياء لا يخوض بالألسن في فنون الآثام.

ثالثاً: إن الأخوة كما تقتضي السكوت على المكاره تقتضي أيضاً النطق بالمحاب بل هو أخص بالأخوة لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور. وإنما تراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص عن أذاهم. والسكوت معناه: كف الأذى، فعليه أن يتودد إليه بلسانه ويتفقده في أحواله التي يجب أن يتفقد فيها كالسؤال عن عارض إن عرض وإظهار شغل القلب بسببه واستبطاء العافيه عنه.

فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة وتبكيت المتعنت وتغليظ القول عليه والسكوت عن ذلك موغر للصدر ومنفر للقلب وتقصير في حق الأخوة.

من هنا قال الشافعي رضي الله عنه: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالإسرار والإعلان. كما أن الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء، فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدار، وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن.

ولذلك قيل: لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ولا مع النفس إلا بالمخالفة ولا مع الشيطان إلا بالعداوة.

ولقد صدق الذي قال: الصفات الذميمة عقارب وحيات وهي في الآخرة مهلكات، فإنها تلدغ القلوب والأرواح وألمها أشد مما يلدغ الظواهر والأجساد. وهي مخلوقة من نار الله الموقدة.

من هنا قيل: احفظ لسانك واخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر. فاللسان وحسبك أن فيه ربحك وغنيمتك وثمرة تعبك واجتهادك كله للعبادة والطاعة وإن خطر العبادة وإحباطها وإفسادها في الأكثر من قبل اللسان بالتصنع والتزين والغيبة ونحوها، يتلف عليك بلفظة واحدة ما تعبت فيه سنة واحدة بل خمسا وعشراً. ولذلك قيل: ما شيء أحق بطول سجن من اللسان.

وفي ضوء هذا التحليل يحدثنا الإمام علي: الألسن ثلاثة: لسان العلم، ولسان العطايا، ولسان الوحدانية.

فلسان العلم: وهو التعبير عن الحلال والحرام والحدود والأحكام والمعاملات.

ولسان العطايا: فإنه تعبير عن الأخطاء والإلهام والفهم والفطنة وعلو المراتب والدرجات، وهو شرف المؤمن ورائده.

ولسان الوحدانية: فإنه يعبر عن الله بالله.

واعلم أن الجوارح كلها تؤثر أعمالها في القلب ولكن اللسان أخص به، لأنه يؤدي عن القلب ما فيه من الصور، فيقتضي كل كلمة في القلب محاكياً لها، فلذلك إذا كان كاذباً حصل في القلب صورة كاذبة واعوج به وجه القلب وأظلم حتى تنتهى كثرة الكلام إلى إماتة القلب.

إن الله سبحانه وتعالى أنطق اللسان بالبيان وافتتحه بالكلام وجعل القلوب أوعية للعلم ولولا ذلك كان الإنسان بمنزلة البهيمة يومئ بالرأس ويشير باليد.

لذلك جاءت الوصية: احفظ لسانك ما يدرى عن مكانك. أي لا تتكلم فإن الكلام في كثير من الحالات يسبب الشرور وعظائم الأمور.

يضرب هذا مثلاً لخطورة الكلام وآثاره البليغة التى قد يكون فيها الخير كل الخير ... إذا كان المقصود به خيراً ... وقد يكون الشر كل الشر إذا قصد بها الإفساد ... أو كان مبعثها الهوى.

وكذلك تقتضي الأخوة السكوت. وهو أن يسكت المرء عن ذكر عيوب أخيه في غيبته وحضرته بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله. وبالجملة يسكت عن كل كلام يكرهه جملة وتفصيلاً إلا إذا وجب عليه النطق في أمر بمعروف أو نهي عن منكر ولم يجد رخصة في السكوت.

رابعاً: الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، تولاهم بالنبوة، أحل لهم أموراً، وحرم عليهم أخرى قصرها عليهم دون غيرهم. والأنبياء هم خيرة الخلق وصفوة البشر، وهذا الإكرام لهم بالنبوة إنما هو بفضل الله وبمحض الفعل الإلهي والحكمة الربانية ولا يمكن لأحد مهما سما في سلم الكمال أن ينال مرتبة النبوة عن طريق الرياضة النفسية، أو الجهد في الطاعة.

وقد كانوا لا يتكلمون إلا بالحكمة والموعظة الحسنة، كما كان الصمت حالاً من أحوالهم اتخذوه مسلكاً وطريقاً لعبادة الله وطاعته.

ولقد كان رسول الله (ﷺ) أفصح خلق الله، وأعذبهم كلاماً، وأسرعهم أداءً، وأحلاهم منطقاً، حتى أن كلامه ليأخذ بمجامع القلوب، يسبي الأرواح، ويشهد له بذلك أعداؤه. وكان (ﷺ) إذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبيّن يعده العاد، ليس بهذٍ مسرع لا يحفظ، ولا متقطع تخلله السكتات بين أفراد الكلام، بل هديه فيه أكمل الهدى.

وكان (ﷺ) كثيراً ما يعيد الكلام ثلاثاً ليعقل عنه، وكان إذا سلم سلم ثلاثاً. وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلام. وكان لا يتكلم فيما لا يعنيه، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، وإذا كره الشيء: عرف في وجهه، ولم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، ولا صخّاباً. وكان جُلُّ ضحكه التبسم، بل كله التبسم، فكان نهاية ضحكة أن تبدو نواجذه.

أما بكاؤه (ﷺ)، فكان من جنس ضحكه، لم يكن ورفع صوت كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن كانت تدمع عيناه.

وقد جمع الناس من كلامه (ﷺ) المفرد الموجز البديع الذي لم يسبق إليه دواوين. فلقد رقى في الفصاحة وجوامع الكلم درجة لا يقاس بها غيره وحاز مرتبة لا يقدر فيها قدره (ﷺ).

وقد كان من خصائصه (ﷺ) أن يكلم كل ذي لغة بليغة بلغته على اختلاف لغات العرب وتركيب ألفاظها وأساليب كلامها.

كما كان رسول الله (ﷺ) أكثر الناس صمتاً في غير تكبر، وأنصحهم للناس في غير تطويل.

ولقد جاءت نصوص القرآن الكريم بالقواعد العامة التى تتناول كثيراً من الفروع والمسائل، وأوتي رسول الله (ﷺ) جوامع الكلم، فكان يتكلم بالكلمة الجامعة التي تتضمن المعاني الكثيرة، وتشمل ما لا يحصى من المسائل، فإذا فهمت معاني النصوص في الكتاب والسنة، تبين أنها شاملة لعامة أفعال العباد.

فإن حجية السنة ثابتة بالكتاب كما أن السنة بيان للكتاب، وهذا وذاك يجعل نصوص السنة الصحيحة بمنزلة نصوص القرآن في الاستدلال.

وتتعاضد النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الرائعة والإجماعات القطعية على ذلك.

وكان (ﷺ) يتكلم بجوامع الكلم، فضلٌ لا فضول فيه ولا تقصير، دَمثاً ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعم وإن دقت، لا يذم منها شيئاً ولا يذم مذاقاً ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها.

وكذلك كان (ﷺ) دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح، يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه ولا يجنب فيه قد ترك نفسه من ثلاث: المراء والإكثار وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً ولا يعيره ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرتجى ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رءوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده، متى تكلم أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أوليتهم، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في مسألته ومنطقه.

وكان سكوته (ﷺ) على أربع: الحلم والحذر والتقرير والتفكر.

ومما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أنه خدم رسول الله (ﷺ) عشر سنين إلى أن توفاه الله تعالى، فما قال لشيء فعله لم فعلته ولا لشيء لم يفعله لم لم تفعله.

إن الله سبحانه وتعالى بعث الرسول (ﷺ) بجوامع الكلم وخصه ببدائع الحكم.

ولقد كان رسول الله (ﷺ) في كلامه وجوابه يحسب السائلين، وحسب الجالسين، فليس كلامه لأبي بكر رضي الله عنه ككلامه لأجلاف العرب. فلا يصح طرد كل قول في حق كل أفراد الأمة. وهذا أمر معقول لقوله صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم".

واعلم أن كلامه (ﷺ) بالألفاظ التى فيها حصر لجناب الحق مأمور به لأنه هو المبين.

ولا شك أن الذي عنده قدرة على الاستدلال لا يسوغ أن يترك حديثاً للنبي (ﷺ) لقول إمام من الأئمة مهما تكن منزلته لأنه يترك من قوله حجة ملزمة إلى من ليس قوله حجة بحال من الأحوال، وأقوال الأئمة مهما تكن قابلة للرد، وأما أقوال الرسول (ﷺ) فغير قابلة للرد، ولكنها قابلة للمعارضة بمثلها، وإذا لم تثبت المعارضة فالأصل قبولها، ومن ترك حديثاً لقول إمام فقد جعل الأصل فرعاً، والفرع أصلاً، لأن قول الإمام إنما يقبل ويعتبر حجة لمقلده، لأنه في نظره دارس لكتاب الله وسنة رسوله، فإذا قبل قوله دون قول الرسول فقد جعلناه أصلاً وقول الرسول فرعاً وأن ذلك يكون مضاهاة للذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، إذ أقاموا قولهم في الدين مقام الاعتبار، ولم يحاولوا أن يعرفوا الدين من أصوله.

خامساً: أوضحت هذه الدراسة أن الصمت كان حالاً من أحوال السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم.

ولقد جاء في الأثر: كانت المسألة من العلم يسأل عنها الرجل من الصحابة فيردها إلى آخر ويردها الآخر إلى آخر حتى ترجع إلى الذي سأل عنها أولاً.

ومن هنا كان الصمت منهجاً سلكه السلف الصالح في كل علم وسلوك. فكان حالاً ملازماً لهم عند كل طرفة عين تعلموه من الرسول (ﷺ) وأخذوا به أخذاً عمليا، كما كانت دعوتهم صادقة في الحث عليه والأخذ به لينالوا رضوان الله والفوز بالجنة. كما قدموا لنا نماذج رائعة من الصمت بل ودروس عملية لكي تكون نبراساً في حياتنا. وكان جهادهم النفسي في تعلم الصمت وتطبيقه خالصاً لوجه الله تعالى.

سادساً: جاء التابعون خلفاً للسلف الصالح فكانوا أصحاب منهج إسلامي في سلوكهم وأعمالهم فكانوا لا يتكلمون إلا بالقرآن مخافة فلتات اللسان ليحميهم من الوقوع في الزلل. واتفقت عقولهم السليمة وفطرهم المستقيمة، على العناية بالمقاصد والغايات. فكانوا أصحاب همم عالية وعقول راجحة تميزت بمنهج علمي يقيني في الفكر والسلوك والتطبيق أو إن شئت فقل أصحاب منهج استنباطي.

ولقد صدق الشافعي إذ يقول: الكلمة كالسهم إن خرجت منك ملكتك ولم تملكها. كما قال: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر. وقال أيضاً: لو علم الناس ما في الكلام والأهواء لفروا منه كما يفرون من الأسد.

ومن هنا آثر العلماء الصمت لما علموا أن الكلام من الآفات، ثم لما فيه من حظ النفس وإظهار صفات المدح والميل إلى ما يميز عن أشكاله بحسن النطق وغير هذا من آفات الكلام.

ويقول حكيم: إنما خلق للإنسان لسان واحد وعينان وأذنان ليسمع ويبصر أكثر مما يقول، فمن لم يغتنم السكوت فإنه إذا نطق إنما ينطق بلغو.

وهنا ينبغي أن نوضح أن الجسد والروح، هما الأبوان الشرعيان للنفس. والذي يعنينا هنا هو البحث في حقيقة الصمت إنما تتم في حفظ اللسان الذي يتم به حفظ الجوارح.

لذلك قيل: إذا كان العبد ناطقاً فيما يعنيه وما لابد منه فهو في حد الصمت والدليل على صحة ذلك: "إن الحكماء ورثوا الحكمة بالصمت والتفكير".

وتظهر العلاقة واضحة بين العلم والصمت في قول أحد العلماء قد جزئ هذا العلم على قسمين: نصفه سكوت، ونصفه أن تدري أين تصفه.

ومفهوم هذا القول ينبغي على الناس أن يتعلموا الصمت ولا ينطقون بأقوالهم وإنما ينطقون بأفعالهم بمعنى أن يكون الفعل الصادق ترجمة لصاحبه حتى يكون أهلاً للقدوة والسلوك. وبعبارة أخرى: جالس من تكلمك أعماله، ولا تجالس من يكلمك لسانه.

ولعل الكلمة الجامعة المانعة في تحديد حقيقة الصمت أنه باب كبير من أبواب العلم. فالصمت منام العقل، والنطق يقظته، ولا منام إلا بيقظة، ولا يقظة إلا بمنام.

وكذلك ينبغي أن نوضح أن الكلام يظهر حمق الأحمق، وعقل العاقل.

ولعل في هذا يفسر قول أحد العلماء عندما سئل عن الصمت والنطق فقال: لو علم الناطق ما آفة النطق لصمت إن استطاع عمر النوح، ولو علم الصامت ما آفة الصمت لسأل الله تعالى حتى ينطق.

وأضاف قائلاً: فمن علم أن منطقه من علمه قل كلامه.

ونستطيع على وجه الإجمال أن نقول: الناس حوانيت مغلقة، فإذا تكلموا فقد فتحوا، هناك يتبين البيطار من العطار.

سابعاً: ينبغي للعاقل أن يفهم إذا قل الكلام كثر الصواب. معنى ذلك لابد للمرء من أن يكون حذراً عند الكلام ولا يتكلم إلا لحاجة أو ضرورة.

من هنا قال بعض السلف: تعلم الصمت كما تتعلم الكلام فإن يكن الكلام يهديك فإن الصمت يفيك، ولك في الصمت خصلتان تدفع به جهل من هو أجهل منك، وتعلم به علم من هو أعلم منك.

وقال بعض العلماء: ما أعوز ما يتكلم به العاقل أن لا يتكلم إلا لحاجته أو لحجته ولا يفكر إلا في عاقبته أو في آخرته.

وقال بعض الفصحاء: فم العاقل ملغم إذا هم بالكلام أحجم، وفم الجاهل مطلق كما شاء طلقه.

وقال ايضاً اعقل لسانك إلا عن حق توضحه، أو باطل تدحضه، أو حكمة تنشرها، أو نعمة تذكرها.

ومما قيل: إذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عياً، وإن كان الإكثار واجباً كان التقصير عجزاً.

ومما ينبغي أن يفهم أن الجمال للمرء إنما هو جمال الخلق الذي يظهر على اللسان عند النطق بالكلام. فالكلام المنطوق هو الذي يحدد جمال اللسان إذا تزين بالكلام.

وقد قيل: بين الصمت والنطق برزخ فيه العقل وقبور الأشياء. فمن أطال صمته احتلبت من الهيبة ما ينفعه ومن الوحشة ما لا يضره.

وفي الخبر: من أفة العالم أن يكون الكلام أعجب إليه من الصمت. وفي الكلام تنميق ووزر، وفي الصمت سلامة وغنم. فما دمت ساكتاً فأنت سالم، فإذا تكلمت فخذ حذرك.

ومما يروى أن العبد ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالاً يهوى بها أبعد ما بين السماء والأرض.

وفي لفظ آخر: يتكلم بالكلمة فيهوى فى جهنم سبعين خريفا.

ولبيان أهمية الصمت قال بعض الحكماء مقتل الرحل بين فكبه.

ومن وصايا لقمان لابنه وهو يعظه: يابني إن الرجل ليتكلم حتى يقال أحمق، وما هو بأحمق، وأن الرجل ليسكت حتى يقال له حكيم وما هو بحكيم. فلو لم يكن في الصمت خصلة تحمد إلا تزين العاقل وتستر الجاهل به لكان الواجب على المرء أن لا يفارقه الصمت ما وجد إليه سبيلاً، ومن أحب السلامة من الآثام فليقل ما يقبل منه، لأنه لا يجترئ على الكلام الكثير إلا فائق أو مائق.

ولعل من ذلك يتضح مدى أهمية الصمت، إذ لو كان الفضل في فصاحة اللسان لكان سيدنا هارون أولى بالرسالة من سيدنا موسى عليه السلام.

والصمت من أمهات الفضائل وهو نوعان: صمت باللسان عن الحديث لغير الله، وصمت بالقلب عن كل خاطر يخطر له في النفس في أي كون من الأكوان البتة. فمن صمت لسانه ولم يصمت قلبه خف وزره، ومن صمت لسانه وقلبه ظهر له سره، وتجلى له ربه، ومن صمت قلبه ولم يصمت لسانه فهو ناطق الحكمة. أي ناطق بلسان الحكمة. ومن لم يصمت بلسانه ولا بقلبه كان مملكة للشيطان ومسخرة له.

فصمت اللسان من منازلة العامة وأرباب السلوك. وصمت القلب من صفات المقربين أهل المشاهدات.

فالنطق بالصواب نتيجته الصمت عن الخطأ. والكلام مع غير الله تعالى خطأ من كل وجه، ولغير الله سوء من كل وجه.

من هنا كان للكلام شروط لا يسلم المتكلم من الزلل إلا بمراعاتها:

ـ أن يكون الكلام لداع يدعو إليه اجتلاباً لنفع أو دفع لضرر. والكلام الذي لا داعي له هذيان، وما لا سبب له فهو هجر، والسكوت عنه أسلم.

ـ أن يأتي الكلام في موضعه. فالكلام في غير حينه لا يقع موقع الانتفاع به، فإن قدم ما يقتضي التأخير كان عجلة، وإن آخر ما يقتضي التقديم، كان توانياً وعجزاً، لأن لكل مقام قولاً، وفي كل زمان عملاً.

ـ أن يكون الكلام على قدر الحاجة، فإن الكلام إن لم ينحصر في الحاجة، ولم يقدر بالكفاية لم يكن لحده غاية، ولا لقدره نهاية، وما لم يكن من الكلام محصوراً كان إما حصراً إن قصر، أو هذراً إن كثر.

ـ وجوب اختيار اللفظ، فاللسان عنوان الإنسان يترجم عن مجهوله، ويبرهن عن محصوله، فيلزم أن يكون بتهذيب لفظه حرياً، وبتقويم لسانه ملياً.

وقيل: يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى أصله بعقله، وليس يصح الكلام إلا من أخذ نفسه بالبلاغة وهي أن تكون المعاني الصحيحة مستوعبة في الألفاظ الفصيحة والإجماع على أن فصاحة الألفاظ مع صحة المعاني هي البلاغة.

ولا تصح المعاني إلا من ثلاثة وجوه: هي إيضاح التفسير حتى لا تكون مشكلة ولا مجملة، واستيفاء التقسيم حتى لا يدخل في الكلام ما ليس فيه ولا يخرج منه ما هو فيه، وصحة مقابلة الألفاظ وعدة الموافقة في الائتلاف والمضادة مع الاختلاف.

أما فصاحة الألفاظ ففيها ثلاثة أوجه أيضاً هي: مجانبة الغريب الوحشي منها، وتنكب اللفظ المبتذل حتى لا يسقطه الخاصة، ولا ينبوعن فهمه العامة والتناسب والتطابق بين اللفظ والمعنى، وذلك من علوم البلاغة.

فالإنسان يعلو على نفسه بعقله، ويعلو على عقله بروحه. وحق العقل أن يدرك ما وسعه من جانبه المحدود، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبه المطلق إلا بإيمان وإلهام.

ونقف هنا وقفة إيضاح نبين فيها أقسام الرجال:

الرجل الأول: رجل لا لسان له ولا قلب وهو العاصي الغر الغبي.

الرجل الثاني: رجل له لسان بلا قلب فينطق بالحكمة ولا يعمل بها.

الرجل الثالث: رجل له قلب بلا لسان، وهو مؤمن ستره الله عز وجل من خلقه.

الرجل الرابع: المدعو في الملكوت بالعظيم كما جاء في الحديث الشريف عن النبي (ﷺ): [**من تعلم وعلم، وعمل دعي في الملكوت عظيماً**].

ثامناً: لقد اتصف العرب في جاهليتهم بالفصاحة والبلاغة، وهو ما نلحظه في كلامهم المنثور الواصل إلينا، وذلك ناتج من طبيعة الجزيرة العربية القاسية، وحالة المجتمع القبلي الاجتماعية، فالحاجة في ذلك المجتمع كانت توجب على القبيلة أن يكون لها خطباء وحكماء يرجعون إليهم في أوقات الملمات يحلون مشاكلهم ويرشدونهم إلى الطريق القويم ويذكرونهم بأمجادهم ووقائعهم الهامة وأبطالهم الخالدين الذين دافعوا عن القبيلة كما يردون كيد الأعداء بألسنتهم، وحاجة القبيلة إلى الحكماء والخطباء لا تقل أهمية عن حاجتها إلى الشعراء الذين يمدحون الرؤساء ويهجون الأعداء، ويثيرون الحماس في الجماهير.

ولما أضاء الله الجزيرة العربية بالإسلام، وأرسل إليهم رسولاً من أنفسهم خاطبهم بالقرآن الكريم الذي حاز جميع أسرار البلاغة والفصاحة وفاق جميع فنونهم الأدبية وأغراضهم الشعرية.

وهنا ينبغي أن نوضح ليس يصح اختيار الكلام إلا لمن أخذ نفسه بالبلاغة وكلفها لزوم الفصاحة حتى يصير متدرباً بها معتاداً لها فلا يأتي بكلام مستكره اللفظ ولا مختلّ المعنى، لأن البلاغة ليست على معانٍ مفردة ولا لألفاظها غاية، وإنما البلاغة أن تكون المعاني الصحيحة مستودعة في ألفاظ فصيحة فتكون فصاحة الألفاظ مع صحة المعاني هي البلاغة.

وقال بعض البلغاء لا يكون البليغ بليغاً حتى يكون معنى كلامه أسبق إلى فهمك من لفظه إلى سمعك. وأما معطاة الأعراب، وتجنب اللحن فإنما هو من صفات الصواب والبلاغة أعلى منه رتبة وأشرف منزلة، وليس لمن لحن في كلامه مدخل في الأدباء فضلاً عن أن يكون في عداد البلغاء.

تاسعاً: اعلم أن للكلام آداباً إن أغفلها المتكلم أذهب رونق كلامه وطمس بهجة بيانه ولها الناس عن محاسن فضله بمساوئ أدبه فعدلوا عن مناقب ذكره بذكر مثالبه.

فمن آدابه: أن لا يتجاوز فى مدح ولا يسرف في ذم وإن كانت النزاهة عن الذم كرماً والتجاوز في المدح ملقاً يصدر عن المهانة والسرف في الذم انتقام يصدر عن شر وكلاهما شين وإن سلم من الكذب.

ومن آدابه: أن لا تبعثه الرغبة والرهبة على الاسترسال في وعد أو وعيد يعجز عنهما ولا يقدر على الوفاء بهما فإن من أطلق بهما لسانه وأرسل فيهما عنانه ولم يستثقل من القول ما يستثقله من العمل صار وعده نكثاً ووعيده عجزاً.

ومن آدابه: إن قال قولاً حققه بفعله وإذا تكلم بكلام صدقه بعمله، فإن ارسال القول اختيار والعمل به اضطرار، ولأن يفعل ما لم يقل أجمل من أن يقول ما لم يفعل.

من هنا قال بعض الحكماء: أحسن الكلام ما لا يحتاج فيه إلى كلام. أي يكتفى بالفعل من القول.

ومن آدابه: أن يراعي مخارج كلامه بحسب مقاصده وأغراضه، فإن كان ترغيباً قرنه باللين واللطف، وإن كان ترهيباً خلطه بالخشونة والعنف. فإن لين اللفظ في الترهيب وخشونته في الترغيب خروج عن موضعهما وتعطيل للمقصود بهما فيصير الكلام لغواً والغرض المقصود لهواً.

وقد قال أبو الأسود الدؤلي لابنه: يا بنى إن كنت في قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك ولا بكلامٍ من هو دونك فيزدروك.

ومن آدابه: أن لا يرفع بكلامه صوتاً مستكرهاً ولا ينزعج له انزعاجاً مستهجناً وليكف عن حركة تكون طيشاً وعن حركة تكون عياً فإن نقص الطيش أكثر من فضل البلاغة.

ومن آدابه: أن يتجافى هجر القول ومستقبح الكلام وليعدل إلى الكناية عما يستقبح صريحه ويستهجن فصيحه ليبلغ الغرض ولسانه نزه وأدبه مصون.

ومن آدابه: أن يتجنب أمثال العامة الغوغاء ويتخصص بأمثال العلماء الأدباء فإن لكل صنف من الناس أمثالاً تشاكلهم فلا تجد لساقط إلا مثلاً ساقطاً وتشبيهاً مستقبحاً.

وللأمثال في الكلام موقع في الأسماع وتأثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها ولا يؤثر تأثيرها لأن المعاني بها لائمة والشواهد بها واضحة، والنفوس بها واقعة والقلوب بها واثقة والعقول لها موافقة.

فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله وأوضح بها الحجة على خلقه لأنها في العقول معقولة وفي القلوب مقبولة.

عاشراً: يعتبر الكلام أحياناً الطريق الذي يدخل به صاحبه إلى النار ... كما أنه يكون حيناً السبب المنجي الذي يوصله إلى الجنة، ولكن لا أطيب من اللسان إذا طاب القلب ولا أخبث منه إذا خبث القلب ...

لذلك كان الصمت حكمة، ومن صمت نجا. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي بالصمت،ويعرف أن قليلاً من الناس فاعله.

ويعد الصمت طريقاً إلى الصحة النفسية والكمال الأخلاقي والإنساني، الذي يؤثر الصمت على الكلام قد غسل باطنه من الشهوات والآفات وتحلى بحقائق القرب من الله، وتأدب بكمال آداب العبودية.

والصمت قدرة، والقدرة من الحكمة .. ومن كان عنده قدرة من غير حكمة هلك. ولذلك فكلام صاحب الحكمة مقبول في الباطن سواء وافق الظاهر أو لم يوافقه. أما صاحب القدرة الكلامية فإنه يتظاهر وهو في تلك الحالة لأنه لم يتحقق بحقيقة كلامه، وربما يتكلم رجلان فيتقبل من أحدهما ويرد على الآخر، لأن هناك فرقاً بين صاحب قدرة وصاحب حكمة، والحكمة هي ينبوع الخيرات ومفتاح الرزق.

ويجب أن ننبه أصحاب العقول أن الصمت صفة ثقيلة على النفوس ولا يتحقق بها إلا من أخذ الله بيده لأن من طبيعة النفس الميل إلى الحرية، لذلك

فهي لا تميل إلى الصمت، وإنما تقبل عليه لأنه الميل الشرعي القائم على الوسط العدل.

من هنا نرى أن الصمت صدق مع النفس لذلك لا يتحلى به إلا أهل الصدق الذين عانقوا العبودية واستقاموا. لذلك فإن إمساك اللسان عن ما لا يعنيه هو الطريق المستقيم الذي يوصل إلى الكماليات الأخلاقية.

والصمت هو مخالفة النفس التى تتطلب شهوة الكلام، فهو نجاة من الهوى وفوائده عديدة، فإذا كانت النجاة في صمت العالم، فما بالك إذا كان عن غير علم ...

وقد ورد الصمت في القرآن الكريم على أساس أنه حكمة لبعض أنبيائه في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ (١).

فالصمت آية من آيات الله سبحانه وتعالى وحكمة من حكمه.

ويرى أهل الحق في الصمت لسان الحكيم، لأن عفة اللسان صمته.

والصمت حرب على الغيبة والنميمة، وهو نوع من أنواع الرياضات الكبرى لأنه مخالفة النفس، ورعاية لها من الوقوع في براثن الشيطان، كما أنه ترويض لجنوحها وتهذيب لأخلاقها، فبالصمت تتأدب النفس، فيحصل العلم، وبالعلم يصح لك العمل، وبالعمل يحصل الزهد، وبالزهد تحدث الحكمة، وبالحكمة تحصل مخافة الله تعالى، وبالخوف من وعيد الله تعالى تحصل منازل القرب في الدنيا والآخرة.

ويحسن بنا أن نفرق بين الصمت والكلام. فالصمت سكوت وفي وقته صفة من صفات الرجال، كما أن النطق في موضعه من أشرف الخصال.

وعليه يمكن القول: الصمت من الآداب والأخلاق التى يتأدب ويتخلق به أصحابه، فلا يتكلمون إلا لسبب، ولا يسكتون إلا لحكمة، وفرق بين عبد يسكت

---

(١) سورة مريم: الايه: ١٠.

تهاوناً وكذباً وغيبة، وعبد يسكت لاستيلاء سلطان هيبة الله عليه وخوفه أن يقع في معصية.

وهنا تتضح حقيقة الصمت. فالتكلم بالخير خير من السكوت عنه. والصمت عن الشر خير من التكلم به. فأما الصمت الدائم فبدعة منهى عنها.

ونستشهد هنا بما رواه أنس بن مالك: كل شيء ينتفع بفضله إلا الكلام فإن فضله يضر.

وكذلك قول أبي الدرداء: "لا خير في الحياة إلا لأحد رجلين: منصت واع، أو متكلم عالم".

فالصمت أمان من تحريف اللفظ، وعصمة من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول، وهيبة لصاحبه.

لذلك كان من الواجب على العاقل أن يلزم الصمت إلى أن يلزمه التكلم، فما أكثر من ندم إذا نطق، وأقل من يندم إذا سكت، وأطول الناس شقاء وأعظمهم بلاء من ابتلى بلسان مطلق وفؤاد مطبق.

واللسان فيه عشر خصال يجب على العاقل أن يعرفها، ويضع كل خصلة منها في موضعها: هو أداة يظهر بها البيان، وشاهد يخبر عن الضمير، وناطق يرد به الجواب، وحاكم يفصل بين الخطاب، وشافع ندرك به الحاجات، وواصف تعرف به الأشياء، وحاصد تذهب به الضغينة، ونازع يجذب المودة، ومُسَلٍّ يزكي القلوب، ومعزّ ترد به الأحزان.

فالواجب على العاقل أن يكون ناطقاً كَعَيٍ وعالماً كجاهل، وساكتاً كناطق، لأن الكلام لابد له من الجواب، والجواب لو جعل له جواب لم يكن للقول نهاية، وخرج المرء إلى ما ليس له غاية، والمتكلم لا يسلم من أن ينسب إليه الصلف والتكلف، والصامت لا يليق به إلا الوقار وحسن السمت.

لذلك قال أبو الدرداء: "كفى بك ظالماً أن لا تزال مخاصماً، وكفى بك آثماً أن لا تزال ممارياً، وكفى بك كاذباً أن لا تزال محدثاً، إلا حديثا في ذات الله تبارك وتعالى.

من هنا قيل: لسان العاقل يكون وراء قلبه، فإذا أراد القول رجع إلى القلب، فإن كان له قال، وإلا فلا، والجاهل قلبه في طرف لسانه، ما أتى على لسانه تكلم به، وما عَقَلَ دينه من لم يحفظ لسانه.

والعاقل لا يبتدئ بالكلام إلا أن يسأل ولا يقول إلا لمن يقبل، ولا يجيب إذا شُوتم، ولا يجازى إذا أُسمع، لأن الابتداء بالصمت وإن كان حسناً، فإن السكوت عند القبيح أحسن منه.

وقد قيل: الحكماء ورثوا الحكمة بالصمت والفكر، فأطلق الله ألسنتهم بما ليس بينهم وبين غيره.

ومن منقولات أحد العلماء: الحزم في المجالسة أن يكون الكلام على قدر الضرورة والحاجة مخافة الزلل، وإذا أمرت فاحكم، وإذا سألت فأفصح، وإذا طلبت فأحسن، وإذا أخبرت فحقق، واحذر الإكثار والتخليط، فإن من كثر كلامه كثر سقطه. أي كثر خطؤه وخسرانه.

ولا يسعنا إلا أن نقول: تعلموا الصمت كما تتعلمون الكلام، فإن الصمت حكم عظيم، وكن إلى أن تسمع أحرس منك إلى أن تتكلم، ولا تتكلم في شيء لا يعنيك.

ويفهم من هذا إذا تم العقل نقص الكلام. فالكلام كالدواء، إن أقللت منه نفع، وإن أكثرت منه قتل. لذلك كان الصمت مفتاح السلامة.

فالواجب على العاقل أن يروض نفسه على ترك ما أبيح له من النطق، لئلا يقع في المزجورات، فيكون حتفه فيما يخرج منه، لأن الكلام إذا كثر منه أورث صاحبه التلذذ بضد الطاعات، فإذا لم يوفق العبد لاستعمال اللسان فيما يُجدْي عليه نفعه في الآخرة، كان وجود الإمساك عن السوء أولى به.

وفي الخبر: العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنة قائمة، ولا أدرى.

واعلم أن الصمت إنما يكون عما لا ينبغي من باطل وأما الحق فمن سكت عنه فإنه منافق مراء.

من هنا قيل: الساكت عن الحق شيطان أخرس.

كما قيل: الساكت عن الحق كالناطق بالباطل. وربما يقع السكوت على المتكلم لأن في القوم من هو أولى بالكلام. وقد يقع السكوت على المتكلم لأنه يكون بحضرة من ليس من أهل استماع ذلك الكلام لكونه لا يتأثر بالحقائق ولا بسماع الحكم والمواعظ فيصون ذلك الكلام عن غير أهله.

والصمت من أدب الحضرة فالمتوجه إلى الله تعالى بالعبادة في حضرة الله تعالى فيجب عليه سلوك الأدب فلا ينطق بما لا يحسن من القول. والصمت باللسان يكون بحبسه عن الكلام بما لا فائدة فيه. والصمت بالقلب أن لا يجري على قلبه شيئاً بما لا ينبغي النطق به ولا يجول في فكره ولا يحدث به نفسه.

إن كلام الحكماء إذا كان صواباً كان دواءً، وإذا كان خطأً كان داءً. وإذا أراد الله بلاء أمة أكثر من كلامها وقلل من عملها.

ولقد صدق من قال: الصمت سلم الخلاص. والنطق حبس الهزار في الأقفاص. فلا تفتخر بدقائق الكلم وشقائقها. ولا تكترث بفضول الألسن ورواشقها. فإن لسان الشمعة يضحكه. وعن قليل يهلكه. ولن تعرف سر السكوت إلا بإدمان السكوت. والحكيم المصقع أبتر. والفصيح المكثار عنتر يتغنى ويتعنى.

وقال آخر: خلق الله الآفة وجعل النطق مثارها. وقدر السلامة وجعل الصمت مدارها. وفرسان الكلام يوم القيامة مشاة، والمتجملون بزخارف العبارة عراة. والحكماء بكم، والصمت حكم. ومن عرف الله جل جلاله قل مقاله. وفرق بين النطق والسكوت.

وقد جاء في الأثر: أن الله سبحانه وتعالى لا يعذر على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله، ولا يحل للعالم أن يسكت عن علمه. وقد أمر الجاهل بسؤال العالم، وأمر العالم بحسن الرد على الجاهل فقال للجاهل: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1]. وقال للعالم: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾[2]. يعنى إذا جاءك متعلماً فلا تزجره.

(١) سورة: النحل: الآية: ٤٣.
(٢) سورة: الضحى: الآية ١٠.

فيا أخي إذا كان كلامك كلام السفهاء وفعالك فعال الجهال، وسكوتك سكوت أهل الغفلة، فما ينفعك ما جمعت من طرائف العلم وحكمة الحكماء.

كما جاء أيضاً: كانت المسألة من العلم يسأل عنها الرجل من الصحابة فيردها إلى آخر ويردها الآخر إلى الآخر حتى ترجع إلى الذي سئل عنها أولاً.

ويسوق أحد الحكماء قولاً يقول فيه: "واعلم أن الكلام ينقسم إلى سبعة أقسام، العلم منه قسم واحد وسائر الستة لغو مطروح يلتقطه من لا يعرفه ومن لا يفرق بين العالم والجاهل. ولا يميز بين العلم والكلام. والعرب تقول لكل ساقطة لاقطة، ولكل قائلة ناقلة.

وفرق كبير بين داعية يتكلم بلسانه وهو متصنع بالكلام ليسبي به قلوب الرجال، وبين داعية مؤمن مخلص مكلوم القلب على الإسلام يتكلم بنبضات قلبه، ولواعج حزنه وأساه، لما آل إليه حال المسلمين ! فلا شك أن تأثير الثاني أبلغ، والاستجابه إليه أقوى، والاتعاظ بكلامه أعظم!!

ومما ينبغي أن يفهم عن الحمق أنه داء ماله دواء، هكذا قال شاعر قديم، وقوله حق، وأقبح الحمق، هو الذي يعنف بصاحبه، ويستبد به، فيسلبه عقله وتفكيره، ويملك عليه مشاعره وتدبيره، ويصيره أقرب إلى المجانين.

فهو يثور لأوهى الأسباب، ويغضب لغير ما سبب، يخرج منه القول فلا يعيه، ولا يصيب غير نفسه، وأشد من هذا قبحاً أن يجهل ما عليه نفسه، فيغتر بها، ويورطه غروره، فيظن أن له عقلاً راجحاً فلا يصغي لنصح، ولا يأبه بإرشاد، أما أعقل الناس حقاً، فهو الذي لا يجيب سفيهاً، ولا يرد على جاهل، وإنما يمر بهما مر الكرام، فخير من الإجابة السكوت.

من هنا قيل: راحة اللسان في قلة الكلام. فعلى الإنسان أن يهتم بحفظ اللسان وضبطه وتقييده فإنه أشد الأعضاء جماحاً وطغياناً وأكثرها فساداً وعدواناً.

ولقد جاء في وصية أحد الحكماء: اجعل صومك الصمت عن كل سوء، واجعل صدقتك كف الأذى فإنك لا تتصدق بشيء أفضل منه ولا تصوم بشيء أزكى منه.

وقال آخر: من تكلم فيما لا يعنيه شغله عما يعنيه، ولو تكلم فيما يعنيه ترك ما لا يعنيه.

وقد قيل: العالم من يسكت عن الجاهل حلماً، وينشر الحكمة نصحاً.

كما قيل: إن العالم إذا سئل، ولم يكن له علم بالإجابة، فليصمت؛ فإن الصمت عند ذلك هو الإجابة، ومن قال لا أدري فقد أفتى.

وقيل: صمت تسلم به خير من كلام تندم عليه.

وقيل أيضاً: كثير من ندم على الكلام وقليل من ندم على السكوت.

ويطرح أحد العلماء حكمة يقول فيها: خلق الله اللسان واحداً والقلب واحداً دون غيرهما من الأعضاء إشارة إلى أنه لا يذكر بالواحد إلا الواحد. وفيه حكمة أخرى القلب محل الاجتهاد والنية فلو كان له قلبان لحصل الاختلاف في النية والاجتهاد.

حادي عشر: الحكمة هي إحكام الأمور، وأول علاماتها طول الصمت، والكلام على قدر الحاجة.

من هنا قيل: عليك بالحكمة فإنها تجالس المساكين مجالس الملوك.

وتتمثل الحكمة في الوسطية التى يدعو إليها أحد العلماء بقوله: الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرين السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط.

ومن حفظ قلبه مع الله بالصدق، أجرى على لسانه الحكمة.

ولقد قيل: الساكت بعلم، أحمد أثراً من الناطق بجهل. وذلك لكون الحكمة هي النطق بالحق.

ولقد جاء في بيان العلم وفضله: "تعلم لا أدري، ولا تعلم أدري، فإنك إن قلت: لا أدري، علموك حتى تدري، وإن قلت: أدري سألوك حتى لا تدري!

وقال بعض الحكماء: القلب مثل بيت له ستة أبواب ثم قيل لك: احذر ألا يدخل عليك من أحد الأبواب شيء، فيفسد عليك البيت، فالقلب هو البيت، والأبواب: العينان واللسان والسمع والبصر واليدان والرجلان، فمتى انفتح باب من هذه الأبواب بغير علم ضاع البيت!

ومما سجله بعض الحكماء في وصيته لرجل: "اجعل لدينك غلافاً كغلاف المصحف. قيل له: ما غلاف الدين؟ قال: ترك الكلام إلا ما لابدَّ منه. وترك الدنيا إلا مالابد منها. وترك مخالطة الناس إلا ما لابد منه. ثم اعلم أن أصل الزهد الاجتناب عن المحارم، كبيرها وصغيرها، وأداء جميع الفرائض، يسيرها وعسيرها، وترك الدنيا على أهلها، قليلها وكثيرها.

فأصل العقل الصمت، وباطن العقل كتمان السر، وظاهر العقل الاقتداء بالسنة. وإذا أردت أن تعرف العاقل من الأحمق فحدثه بالمحال، فإن قبل فاعلم أنه أحمق.

فالصمت من الوسائل العملية لرياضة النفس، وهو كف اللسان عن الحديث فيما لا ينفع. وبذلك يصبح الصمت سلامة ونجاة، فإن خطر اللسان عظيم، ولا نجاة من خطره إلا بالصمت.

وهذا يعنى أن الكلام فيما لا يعني الإنسان، أن يتكلم بكلام، وإن سكت عنه لم يرتكب الآثام والمعاصي والسيئات والأخلاق المذمومة.

وإلى هذا المعنى يشير الغزالي بقوله: "حد الكلام فيما لا يعنيك، أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم، ولم تستضر به في حال ولا مآل".

والسؤال عما لا يعني، يؤدي بالسائل إلى تضييع وقته بلا فائدة، ويؤدي بالصاحب الذي تطلب منه الإجابة إلى تضييع وقته فيما لا ينفع.

ومن هنا كان الواجب على الإنسان ترك فضول الكلام الذي لا يعنيه، ويلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعنيه، حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه.

وأكثر ما يراد بترك ما لا يعنى حفظ اللسان من لغو الكلام.

من هنا يجب على كل مسلم أن يعتقد أن خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد (ﷺ).

فالقلوب مزارع فازرع فيها الكلام فإن لم ينبت كله ينبت بعضه.

ولقد جاء في الحكم: "إذا سئل غيرك فلا تجب، فإن ذلك استخفاف بالسائل والمسئول".

فالكلام كالدواء إن قللت منه نفع وإن أكثرت منه صدع. لأن من كثر كلامه كثر ملامه!.

لذلك قيل: إن من السكوت ما هو أبلغ من الجواب. فالعاقل إذا سكت فكر وإذا نطق ذكر، وإذا نظر اعتبر كما أن كلام الرجل ميزان عقله.

ولقد كان الشافعي رضي الله عنه يقول: ما من أحد من المسلمين يطيع الله ولا يعصيه ولا أحد يعصي الله ولا يطيعه فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل. وإذا جعل مثل هذا عدلاً في حق نفسك ومقتضى أخوتك أولى. وكما يجب السكوت عليك بلسانك عن مساويه يجب عليك السكوت بقلبك وذلك بترك إساءة الظن. فسوء الظن غيبة بالقلب.

كما قال بعض الحكماء: ظاهر العتاب خير من مكنون الحقد ولا يزيد لطف الحقود إلا وحشة منه ومن في قلبه سخيمة على مسلم فإيمانه ضعيف، وأمره مخطر وقلبه خبيث لا يصلح للقاء الله. فإنه كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج إلى الكذب فله أن يفعل ذلك في حق أخيه. فإن أخاه نازل منزلته وهما كشخص واحد لا يختلفان إلا في البدن. هذه حقيقة الأخوة.

وقد قيل: إن قلب الأحمق في فيه، ولسان العاقل في قلبه. أي لا يستطيع الأحمق إخفاء ما في نفسه فيبديه من حيث لا يدري به. فمن هذا يجب مقاطعة الحمقى والتوقي عن صحبتهم بل عن مشاهداتهم.

ثاني عشر: اعلم أن للمزاح إزاحة عن الحقوق ومخرجاً إلى القطيعة والعقوق يصم المازح ويؤذي الممازح فوصمة المازح أن يذهب عنه الهيبة

والبهاء ويجرى عليه الغوغاء والسفهاء. وأما أذية الممازح فلأنه معقوق بقول كريه وفعل ممض إن أمسك عنه أحزن قلبه وإن قابل عليه جانب أدبه. فحق على العاقل أن يتقيه وينزه نفسه عن وصمة مساويه. ولقد سمى المزاح مزاحاً لأنه يزيح عن الحق.

من هنا قيل: المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب.

وبعبارة أخرى: من كثر مزاحه زالت هيبته ومن كثر خلافه طابت غيبته.

وليحذر أن يسترسل في ممازحة عدو فيجعل له طريقاً إلى إعلان المساوئ هزلاً وهو مجد، ويفسح له في التشفي مزحاً وهو محق.

وقد قال بعض الحكماء: إذا مازحت عدوك ظهرت عيوبك.

وأما الضحك فإن اعتياده شاغل عن النظر في الأمور المهمة مذهل عن الفكر في النوائب الملمة، وليس لأكثر منه هيبة ولا وقار ولا عن وسم به خطر ولا مقدار. فكثرة الضحك تميت القلب. ومن كثر ضحكه قلت هيبته.

وقيل في منثور الحكم: ضحكة المؤمن غفلة من قلبه والقول في الضحك كالقول في المزاح إن تجافاه الإنسان نفر عنه وأوحش منه، وإن ألفه كانت حاله ما وصفناه، فليكن بدل الضحك عنه الإيناس متبسماً وبشراً.

فالتبسم دعابة وهذا أبلغ في الإيناس من الضحك الذي قد يكون استهزاء وتعجباً.

هذا رسول الله (ﷺ) وهو أملك الخلق لنفسه قد تبسم حتى بدت نواجذه.

وقد قيل: إذا أردت أن توفق للهيبة فاترك المزاح والضحك فإنهما يسقطان الهيبة.

فمن الأخلاق الرديئة التي تعد نقائص ومعايب التبذل، وهو إطراح الحشمة، وترك التحفظ عن الهزل واللهو، ومخالطة السفهاء، وحضور مجالس السخف والهزل والفواحش، والتفوه بالخنا، وذكر الأعراض والمزح، والجلوس في الأسواق، وعلى قوارع الطرق، والتكسب بالمعاش الرديء، والتواضع للسفلة.

وهذا الخلق قبيح بجميع الناس.

ولقد جاء في أحد الوصايا: إياك وهذر الكلام وكثرة الضحك والمزاح، ومماراة الإخوان، فإن ذلك يذهب البهاء ويوقع الشحناء، وعليك بالرزانة والوقار من غير كبر يوصف منك، ولا خيلاء تحكى عنك.

ويجوز المزاح، أو المداعبة بالكلام من أجل السرور، والمؤانسة، واستمالة القلوب، في حدود الحق والصدق، وتجنب إيذاء الغير. وهو الذي كان يفعله النبي (ﷺ).

ومع جواز المزاح في الحدود التي لا تتجاوز الحق، ولا يشوبه إثم، فقد رأى البعض أنه لا ينبغي أن يكثر منه الإنسان لمنافاته للوقار، وقد يورث الضغينة أحياناً.

ومما يوصي به أحد الحكماء أنه قال لابنه: "يا بني لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا الدنيء فيجترئ عليك".

فالواجب على العاقل أن يستميل قلوب الناس إليه بالمزاح، وترك التعبُّس. والمزاح على ضربين: فمزاح محمود، ومزاح مذموم.

فأما المزاح المحمود: فهو الذي لا يشوبه ما كره الله عز وجل، ولا يكون بإثم ولا قطيعة رحم.

وأما المزاح المذموم: فهو الذي يثير العداوة، ويذهب البهاء، ويقطع الصداقة، ويجرئ الدنيء عليه، ويحقد الشريف به.

وقد قيل: إياكم والمزاح، فإنه يفسد المودة ويُغلُّ الصدر.

إن اليقين الذي لا شك فيه أن المزاح في غير طاعة الله تعالى مسلبة للبهاء، مقطعة للصداقة، يورث الضغائن، وينبت الغلّ.

ومن الحق أن تقول: أن المزاح سمي مزاحاً لأنه زاح عن الحق، وكم من افتراق بين أخوين، وهجران بين متآلفين، كان أول ذلك المزاح.

من هنا قيل: لا تمازح إلا من يحبك.

كما يمكن أن يقال: لا تمازح الغلمان فتهون عليهم، أو يجترئوا عليك.

فالمزاح من آفات اللسان وهو مذموم، يورث الضغينة، ويجر إلى القبيح من القول والفعل، ويفسد المودة، ويغل الصدر.

ثالث عشر: الجدال في أسباب الدنيا، منه ما هو مذموم ومنه ما هو ممدوح. أما الممدوح منه فمجادلتك عن المظلوم عند حاكم أو غيره، تجادل بالحق لتدفع عنه ظلماً، أو ليستخرج له حقاً. وكذلك المكذوب عليه، فتجادل عنه بالحق لترد عنه الكذب، والمظنون فيه السوء وهو مستور عندك فتجادل عنه لتزول عنه التهمة، أو من اغتيب فتجادل عنه بغير تكذيب للقائل، ولكن تجادل لتقيم عليه الحجة لما حرم الله عز وجل من الغيبة، ولما أمر به رسول الله (ﷺ) من ستر عورات المسلمين. وكذلك مجادلتك عن نفسك في كل ذلك.

ومن الجدال المذموم مجادلتك عن الظالم لترد عنه أخذ الظلامة منه، أو عن الكاذب على مسلم أو معاهد ليصدق ولا يكذب، أو عن الظان بالسوء لتحقق ظنه، وعن الذي اغتاب لتثبت ما عاب به المشتوم، ليبرأ من غيبته.

وكذلك مجادلتك عن نفسك في جميع ذلك، لتدفع عنك أخذ الظلامة أو لتمنع حقاً، أو ليصدق كذبك، أو ليحقق ظنك، أو لتثبت عيباً بغيبة مسلم.

ومما أنكره السلف: الجدال والخصام والمراء في المسائل الحلال والحرام، ولم يكن ذلك طريقة أئمة الإسلام، وإنما أحدث ذلك من بعدهم كما أحدثه فقهاء العراقين في مسائل الخلاف بين الشافعية والحنفية وصنفوا كتب الخلاف ووسعوا البحث والجدل فيها. وكل ذلك لا أصل له وصار ذلك علمهم، حتى شغلهم عن العلم النافع. وقد أنكر ذلك السلف وورد في الحديث المرفوع في السنن: "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلاّ أوتوا الجدل".

كما قال بعض السلف: إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عنه باب العمل وفتح له باب الجدل.

وبذلك يمكن أن يقال: المراء والجدال في العلم يذهب بنور العلم.

ونقل عن سلفنا أنهم سكتوا عن كثرة الخصام والجدال لا جهلاً ولا عجزاً ولكنهم سكتوا عن علم وخشية. فالكلام كالدواء إن أقللت منه نفع وإن أكثرت منه قتل.

ولقد جاء التحذير عن الخصومات في الدين لكونها تشغل القلب وتورث النفاق. فليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال ولكنه نور يقذف في القلب يفهم به العبد الحق ويميز به بينه وبين الباطل ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصلة للمقاصد. وقد كان النبي (ﷺ) أوتي جوامع الكلم واختُصر له الكلام اختصاراً. ولهذا ورد النهي عن كثرة الكلام في القيل والقال.

فيجب أن يعتقد أنه ليس كل من كثر بسطة للقول وكلامه في العلم كان أعلم ممن ليس كذلك.

ولقد صدق ابن مسعود رضي الله عنه في الصحابة: "إنهم ابر الأمة قلوباً وأعمقها علوماً وأقلها تكلفاً".

ويسير على نهجه أحد أصحابه فيقول: أسكتتني كلمة لابن مسعود عشرين سنة: "من كان كلامه لا يوافق فعله فإنما يوبخ نفسه...".

فأفضل العلوم في تفسير القرآن ومعاني الحديث، والكلام في الحلال والحرام ما كان مأثوراً عن الصحابة وتابعيهم إلى أن ينتهي إلى أئمة الإسلام المشهورين المُقتدى بهم.

ومما ينبغي أن يُفهم أن قلة الكلام من السلف إنما كان ورعاً وخشية لله. فمن عرف قدر الصحابة رضي الله عنهم عرف أن سكوتهم عما سكتوا عنه من ضروب الكلام وكثرة الجدال والخصام والزيادة في البيان على مقدار الحاجة لم يكن عياً ولا جهلاً ولا قصوراً، وإنما كان ورعاً وخشية لله واشتغالاً عما لا ينفع بما ينفع. وسواء في ذلك كلامهم في أصول الدين وفروعه وفي تفسير القرآن والحديث وفي الزهد والرقائق والحكم والمواعظ وغير ذلك مما تكلموا فيه.

فمن سلك سبيلهم فقد اهتدى ومن سلك غير سبيلهم ودخل في كثرة السؤال والبحث والجدال والقيل والقال فإذا اعترف لهم بالفضل وعلى نفسه بالنقص كان حاله قريباً.

ويتبين لنا بوضوح أن المراء هو كل اعتراض على كلام الغير، بإظهار خلل فيه، إما في اللفظ، وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم. أما المجادلة، فهي عبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه، بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور أو الجهل.

إن من صفة العالم، العاقل، الذي فقهه الله في الدين، ونفعه بالعلم: أن لا يجادل، ولا يماري، ولا يغالب بالعلم، إلا من يستحق أن يغلبه بالعلم الشافي.

كما أن من صفات العالم العاقل أن لا يجالس أهل الأهواء، ولا يجادلهم.

فالمراء أكثره يغير قلوب الإخوان، ويورث التفرقة بعد الألفة، والوحشة بعد الأنس. فالمؤمن العاقل يخاف على دينه من الجدال والمراء، ومن العالم العاقل إذا عارضه في محلس العلم، والمناظرة بعض من يعلم أنه يريد مناظرته للجدل، والمراء، والمغالبة، لم يسعه مناظرته.

رابع عشر: لقد أوجب الحق سبحانه وتعالى العفو، ومدح الكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس.

ومن المعلوم أنه لا يوجد إنسان على وجه الأرض ــ ماعدا الأنبياء والرسل ــ بدون مساوئ. وتلك حقيقة لا يفهمها حق فهمها إلا من ابتلي بالمذمة بلاءً شديداً.

فالناصح المهدي إلينا معرفة عيوبنا مستوجب للمحبة والشكر منا. وأما المفتون العظيم في نفسه فما يتعظ بمدح ولا ذم.

فانظر يا أخي المسلم كيف صور القرآن الكريم "الغيبة" وهول من شأنها، حيث شبه المغتاب بالذي يأكل لحم أخيه بعد موته. ومما لا شك فيه أنه لا توجد نفس تقدم على أكل جيفة أي إنسان، وما دام الأمر كذلك أفلا يجب

على المسلمين ترك الغيبة تلك العادة الرذيلة التي تفشت بين المسلمين، وأصبح لا ينجو منها إلا أحباب الله المقربون.

فالإسلام جعل المسلم الذي يحفظ لسانه من الوقوع في أعراض إخوته المسلمين في أسمى الدرجات. وجعله من أفضل عباد الله عند الله تعالى.

من هنا كان الواجب على الإنسان أن يحافظ على كل كلمة تخرج منه لأنه سيحاسب عليها يوم القيامة، وهي مكتوبة ومسطرة عليه في صحائف أعماله.

خامس عشر: الواجب على العاقل أن يراقب الحق سبحانه وتعالى ولا يغتر بالمدحة، فكم من معدل في الناس ليس بعدل عند الله تعالى ولا مرضي، وكم من مجتهد في العبادة صار للنار حطباً، وصارت عبادته هباءً منثوراً، أولهم إبليس. وكم من عبد يصبح مؤمناً ويمسي كافراً، ويسلب إيمانه وما يشعر.

ولقد قال الإمام مالك رضي الله عنه: إذا مدح الرجل نفسه ذهب بهاؤه.

كما كان البخاري يقول: المادح والذام من الناس عندي سواء.

فالعاقل لا يمدح نفسه بقاله ولا يذمها بماله إلا لحكمة تنفي النقص عن كماله.

وقد قيل: سكون النفس إلى المدح وقبول المدح لها أشد عليها من المعاصي.

وللمدح آفات: منها ما يتعلق بالمادح. ومنها ما يتعلق بالممدوح. فأما آفات المادح، فقد يقول ما لا يتحققه، ولا سبيل للاطلاع عليه، مثل أن يقول: إنه ورع وزاهد، وقد يفرط في المدح فينتهي إلى الكذب، وقد يمدح ما ينبغي أن يذم.

وأما الممدوح: فإنه يحدث فيه كبراً وعجباً، وهما مهلكان. وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز من آفة الكبر والعجب، والفتور عن العمل، ولا ينجو من هذه الآفات إلا أن يعرف نفسه، ويتفكر في أن المادح لو عرف منه ما يعرف من نفسه ما مدحه.

سادس عشر: الحسد مفسد للطاعات باعث على الخطيئات وأنه الداء العضال الذي يبتلى به كثير من القراء والعلماء. فضلاً عن العامة والجهال حتى أهلكهم وأوردهم النار.

والحسد هو إرادة زوال النعم عن أخيك المسلم مما له فيه صلاح فإن لم ترد زوالها عنه ولكن تريد لنفسك مثلها فهو غبطة.

إن للنفس الإنسانية طاقات قوية إذا استخدمت في الشر أمكنها أن تدمر الإنسان. هذه القوى الروحية عند النفوس غير القوية في إيمانها يمكنها أن تؤثر تأثيرات سيئة في الإنسان نفسه وفي غيره من الناس. هؤلاء الذين لا يحبون الخير للناس ويحقدون عليهم عندهم من الطاقات الروحية ما يكفي للتدمير، هذه القوة تسمى: "الحسد".

والحسد مظهر من مظاهر تأثير قوى النفس في النفوس الأخرى ويمثل الجاني السئ منها إذ لا يخفى أن للنفوس الصالحة التقية تأثيراً طبيعياً على النفوس التى تنفعل بها. وهذه الطاقة النفسية تزيد وتنقص تبعاً لاختزانها أو تصريفها بإعطاء النفس مشتهياتها ورغباتها فمن خالف نفسه زادت عنده الطاقة النفسية ومن أسرف في شهواته وهوى نفسه نقصت عنده هذه الطاقة وتوجيه هذه الطاقة النفسية إلى أي شئ بقصد الضرر تسبب ضرراً.

وللوقاية من الحسد يذكر اسم الله عند رؤية الأشياء أو الإنسان ولا يبدأ أي عمل إلا بذكر اسم الله، فكل شيء لا يبدأ باسم الله فهو أبتر، وإذا ذكر الله ولى الشيطان وأصبحت قوى الخير هي المسيطرة.

ولقد أوصانا رسول الله (ﷺ) بالاستعاذة من الشيطان ومن الحسد بقراءة المعوذتين.

وقد قيل: لا راحة لحسود ولا مروءة لكذوب.

واعلم أن الحسد حرام وهو داء لا دواء له من أمراض القلوب العظيمة وهو يضر ديناً ودنيا ولا يضر المحسود ديناً ولا دنيا، إذ لا تزول نعمة بحسد

قط وإلا لم تبق نعمة لله على أحد حتى الإيمان، لأن الكفار يحبون زواله عن أهله. بل المحسود منتفع بحسد الحاسد ديناً لأنه مظلوم من جهته سيما أن أبرز حسده له بالغيبة وهتك الستر وغيرهما من أنواع الإيذاء، فهذه هدايا تهدى إليه حسناته بسببها حتى يلقى الله يوم القيامة مفلساً محروماً من النعم ومستحقاً للنقم. فعلم أن هذا داء عظيم أعاذنا الله تعالى منه.

ومما ينبغي أن يفهم أن الناس يتحاسدون على الدنيا ويتقاتلون على متاعها الفاني، ويتخاصمون فيها، ويتزاحمون على زخرفها الزائل فينشأ البغض والحسد، والكره والتعادي، ويظهر ذلك في السب واللعن والشتم والطعن والدس والوقيعة، والكذب والخديعة، والتلون والنفاق، والكذب وضعف الأخلاق، فكثر الغضب بين الناس، وثارت النفوس وهاجت، وتعددت الجرائم وزادت لقلة الصبر ونفاد الحلم وعدم التسامح، وضيق الصدر.

لذلك كان الحلم راحة للجسد من آلام الانفعال، وراحة للقلب من الغل والحسد.

وما أروع ما سجله ابن عطاء في هذا الصدد حيث قدم توبيخاً للحاسد يقول فيه: "كفى بك جهلاً أن تحسد أهل الدنيا على ما أعطوا وتشغل قلبك بما عندهم فتكون أجهل منهم لأنهم اشتغلوا بما أعطوا واشتغلت أنت بما لم تعط".

فما دام الحسد هو تمنى زوال نعمة الغير فليحذر الإنسان من تمنى زوال نعمة أحد أو دوام نقمته أو يكره أن يكون لجاره مال كثير أو جاه عريض أو كلمة مسموعة أو مكانة مرموقة .. إن الذين تدور برؤوسهم هذه الخواطر ما هم إلا أنانيون.

ثم ليعلم الحاسد وليضع أمام بصره أن هذا المنكر الذي يسمى الحسد سبب البلاء من قديم الزمان إذ هو الذي جلب اللعنة على إبليس بعد أن كان طاووس الملائكة، إذ ابتلي به الرجيم فضاق صدره أن يسجد لآدم مع علمه أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود له، فنظر في نفسه وفيمن حوله وأبت عليه نفسه أن يسجد لمخلوق من طين وهو من نار تستطيع أن تحرق الطين، فجره

ذلك التنافس المشئوم إلى العتو والنفور فنودي من الجبار: "فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين".

وما سبب أول دم سال في الأرض إلا الحسد وهل أجج نار العداوة والبغضاء بين أبناء الأب الواحد إلا تلك الصفة المرذولة الملعونة.

والحاسد يجادل في الحق الظاهر ويريد أن يخفي النور الباهر. وهو عدو لنعمة الله ومبارز لربه لأمور أحدها أنه يبغض كل نعمة ظهرت على غيره. إنه ساخط على كل قسمة قسمها رازقه كأن يقول: لم قسمت هذه القسمة؟!

معترضاً على ربه، والله يبسط الرزق لمن يشاء ويقبضه عمن يريد، وهذا الحاسد لو أمسك فضل رزق من ربه لقبض عن الناس خشية الإنفاق بخلاً وحسداً.

إنه يريد زوال النعمة من بين يدي عباد الله، إنه أعاد عدو الإنسان إبليس اللعين، ولا ينال الحاسد من دنياه إلا الندامة، وتهديه الملائكة اللعنة والبغض، ولا ينال في الخلوة إلا جزعاً وغماً ولا يزداد من الله إلا بعداً ومقتاً ولا يصيبه إلا الاحتراق والخزى.

وعلى المسلم بدل أن يتمنى زوال نعمة غيره يتمنى أن يكون في درجته أو جاهه أو سلطانه أو علمه أو يعطيه الله مثل خيره، ثم يجاهد ويجتهد مع التمنى وذلك هو التنافس المحمود. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

واعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلب. ومرض القلب لا يداوى إلا بمعجون العلم والعمل.

سابع عشر: السر لطيفة مودعة في القلب كالأرواح، ويطلق لفظ السر على ما يكون مصوناً مكتوماً بين العبد والحق سبحانه وتعالى في الأحوال. وعليه يحمل قول من قال: أسرارنا بكر لم يفتضها وهم واهم. ويقولون: صدور الأحرار قبور الأسرار.

ومن هنا قيل: صيانة الأسرار عن الالتفات إلى الأغيار من علامات الإقبال على الله تعالى. فالسر الذي يسلم من رعونة البشر سر رباني.

كما قيل: من حَصَنَ بالكتمان سره تم له تدبيره، وكان له الظفر بما يريد، والسلامة من العيب والضرر، وإن أخطأه التمكن والظفر، والحازم يجعل سره في وعاء، ويكتمه عن كل مستودع، فإن اضطره الأمر وغلبه أودعه العاقل الناصح له، لأن السر أمانة، وإفشاؤه خيانه، والقلب له وعاء، فمن الأوعية ما يضيق بما يودع، ومنها ما يتسع لما استودع.

وهنا يقول أبو حاتم: الإفراط في الاسترسال بالأسرار عجز، وما كتمه المرء من عدوه فلا يجب أن يظهره لصديقه، وكفى لذوي الألباب عِبَراً ما جربوا، ومن استودع حديثاً فليستر، ولا يكن مِهْتاكاً، ولا مِشْياعاً، لأن السر إنما سمى سر، لأنه لا يفشى. فيجب على العاقل أن يكون صدره أوسع لسره من صدر غيره بأن لا يفشيه.

ومن كتم سره كانت الخيرة في يده، ومن أنبأ الناس بأسراره هان عليهم وأذاعوها، ومن لم يكتم السر استحق الندم، ومن استحق الندم صار ناقص العقل، ومن دام على هذا رجع إلى الجهل. فتحصين السر للعاقل أولى به من التلهف بالندم بعد خروجه منه.

وقد قيل: المستشار مؤتمن، وليس بضامن، والمستشير متحصن من السقط، متخير للرأي. والواجب على العاقل السالك سبيل ذوي الحجى: أن يعلم أن المشاورة تفشي الأسرار، فلا يستشير إلا اللبيب الناصح الودود في دينه، وإرشاد المشير المستشير قضاء حق النعمة في الرأي، والمشورة لا تخلو من البركة إذا كانت مع من وصفنا نعته.

ومن الوصايا: الواجب على العاقل إذا استشير قوم هو فيهم أن يكون آخر من يشير، لأنه أمكن من الفكر وأبعد من الزلل، وأقرب من الحزم، وأسلم من السقط، ومن استشار فلينفذ الحزم بأن لا يستشير عاجزاً، كما أن الحازم لا يستعين كسلاً، وفي الاستشارة عين الهداية، ومن استشار لم يعدم رشداً، ومن ترك المشاورة لم يعدم غياً ولا يندم من شاور مرشداً.

إن من شيم العاقل عند النائبة تنوبه: أن يشاور عاقلاً ناصحاً ذا رأي ثم يطيعه، وليعترف للحق عند المشورة، ولا يتمادى في الباطل بل يقبل الحق ممن جاء به، ولا يحقر الرأي الجليل إذا أتاه به الرجل الحقير، لأن اللؤلؤة الخطيرة لا يشفيها قلة خطر غائصها الذي استخرجها، ثم ليستخر الله، وليمضِ فيما أشار عليه.

وهنا يقول أحد الحكماء: اجعل سرك إلى واحد ومشورتك إلى ألف. فلسان العاقل وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه.

ولذلك قيل: لا تفعل شيئاً خفية، لأن الزمن يرى، ويسمع ولا يكتم السر.

كما قيل: سرك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره.

فالقلوب أوعية والشفاه أقفالها والألسن مفاتيحها ... فليحفظ كل إنسان مفتاح سره.

ونأخذ قول الإمام على رضي الله عنه دليلاً على صحة ما تقدم: العادات قاهرات فمن اعتاد شيئاً في سره وخلوته فضحه في جهره وعلانيته.

من هنا كان لابد من كتمان الأسرار وعدم تبليغها لأحد. لذلك قيل: قلوب الأحرار قبور الأسرار.

والجدير بالذكر أن هذا الخلق قد صار غريباً في هذا الزمان فربما يسمع أحد الناس الكلمة الآن فيحكيها لغالب من يدخل عليه، وربما كان فيها خراب الديار. ومن فعل ذلك أصبح معدوداً من الفاسقين بنقل النميمة وإفساده بين الناس وإن لم يقصد هو ذلك.

وقد قيل: من نقل إليك نقل عنك ومن مدحك بما ليس فيك فلا تأمن أن يذمك بما ليس فيك.

واعلم أن كتمان الأسرار من أقوى أسباب النجاح وأدوم لصلاح الأحوال.

وقال بعض الحكماء لابنه: يا بنيَّ كن جواداً بالمال في موضع الحق ضنيناً بالأسرار عن جميع الخلق.

وقال بعض الأدباء: من كتم سره كان الخيار إليه ومن أفشاه كان الخيار عليه.

وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو كتمه كان من سطوته آمناً وفي عواقبه سالماً ولنجاح حوائجه راجياً.

وقد قيل: من حصن سره فله بتحصينه خصلتان: الظفر بحاجته، والسلامة من السطوات. وإظهار الرجل سر غيره أقبح من إظهار سر نفسه لأنه يبوء بإحدى وصمتين: الخيانة إن كان مؤتمناً أو النميمة إن كان مستودعاً فأما الضرر فربما استويا فيه أو تفاضلا وكلاهما مذموم وهو فيها ملوم.

وفي الاسترسال بإبداء السر دلائل على ثلاثة أحوال مذمومة:

إحداها: ضيق الصدر وقلة الصبر حتى أنه لم يتسع لسر ولم يقدر على صبر.

والثانية: الغفلة عن تخدر العقلاء والسهو عن يقظة الأذكياء.

وقد قال بعض الحكماء: انفرد بسرك ولا تودعه حازماً فيزل ولا جاهلاً فيخون.

والثالثة: ما ارتكبه من الغرر واستعمله من الخطر.

وقد قال بعض الحكماء: سرك من دمك فإذا تكلمت به فقد أرقته.

واعلم أن من الأسرار ما لا يستغني فيه عن مطالعة صديق مساهم واستشارة ناصح مسالم فليختر العاقل لسره أميناً إن لم يجد إلى كتمه سبيلاً وليتحر في اختيار من يأتمنه عليه ويستودعه إياه، فليس كل من كان على الأموال أميناً كان على الأسرار مؤتمناً، والعفة عن الأحوال أيسر من العفة عن إذاعة الأسرار؛ لأن الإنسان قد يذيع سر نفسه بمبادرة من لسانه وسقط كلامه ويشح باليسير من ماله حفظاً له وضناً به ولا يرى ما أضاع من سره كبيراً في جنب ما حفظه من يسير ماله مع عظم الضرر الداخل عليه فمن أجل ذلك كان أمناء الأسرار أشدَّ تعذراً وأقل وجوداً من أمناء الأموال. وكان حفظ المال أيسر من كتم الأسرار؛ لأن إحراز الأموال منيعة وإحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق.

ومن صفات أمين السر أن يكون ذا عقل صاد ودين حاجز ونصح مبذول ودّ موفور وكتوماً. بالطبع فإن هذه الأمور تمنع من الإذاعة وتوجب حفظ الأمانة فمن كملت فيه فهو عنقاء مغرب.

وقيل في منثور الحكم: قلوب العقلاء حصون الأسرار وليحذر صاحب السر أن يودع سره من يتطلع إليه ويؤثر الوقوف عليه فإن طالب الوديعة خائن.

وقال بعض الحكماء: كلما كثرت خزائن الأسرار ازدادت ضياعاً.

وقال آخر: من أفشى سره كثر عليه المتآمرون.

وقد قيل: خير الصديق هو الذي يحفظ السر.

كما قيل: العاقل كاتم سره والجاهل فاضح سره.

من هنا كان الواجب على الإنسان أن يكون كاتماً لأسراره ولا يشكو للناس ما به من آلام.

ولذلك قيل: احذر عدوك مرة واحدة واحذر صديقك ألف مرة.

فلربما انقلب الصديق ∴ فكمان أعلم بالمضرة

وإياك ومؤاخاة الأحمق، فإنه يضرك من حيث يريد أن ينفعك..

ويقول الإمام على رضي الله عنه: الكلام في وثاقك ما لم تتكلم به، فإذا تكلمت به صرت في وثاقه.

فالرجل الحازم الذي لا يتعداه سره ولا يفشيه إلى أحد.

وقد قيل: خمس خصال تزيد المرء هيبة وكمالاً: لزوم الصمت، وترك ما لا يعنيه، والنظر إلى عيوب نفسه، وترك عيوب غيره، والاستعانة على إنجاح الحوائج بالكتمان.

كما قيل: من كتم تم، ومن باح ناح، لأن من باح بسر نفسه ندم. لأنه كما قيل: السر في الكتمان.

ومن حبس كلمة السوء كان سيداً لها، ومن لفظ قالة السر أصبح عبداً لها مقيداً بها محاسباً عليها، ومن أمسك الفضل من قوله سلم، ومن أطلق لسان الذم ندم، وكف اللسان خلق الشجعان وإطلاق عنان الملام من سوء الخلق وزعزعة الإيمان.

فكتمان السر خلق مركب من الوقار، وأداء الأمانة. فإن إخراج السر من فضول الكلام وليس بوقور من تكلم بالفضول.

وإفشاء السر من الأخلاق الرديئة. وهذا الخلق مركب من الخرق والخيانة، فإنه ليس بوقور من لم يضبط لسانه، ولم يتسع صدره لحفظ ما يستسر له. والسر أحد الودائع، وإفشاؤه نقيصة على صاحبه.

وكان الشافعي رضي الله عنه يقول: من كتم سره ملك أمره.

كما قيل: إذا مكثت الأنوار في السر نطقت الجوارح بالبر.

ومن كلام أحد العلماء: من أبدى من أسرار الله تعالى ما لا يليق إبداؤه وأفشى من العلم المكنون ما لا يناسب إفشاؤه عوقب بسوء الظنون فيه أو بما هو فوق ذلك من العقوبات.

من أجل ذلك قلنا: السر في المتكلم لا في كلامه فمتى انبسط المتكلم إلى السامع انشرح له كلامه وإن قل ومتى انقبض المتكلم لم تنبسط للسامع معاني كلامه وإن كثر. والكلام صفة المتكلم فمن وجد الموصوف وجد صفته وإلا فلا، إذ الصفة متى انفصلت عن موصوفها زالت مرتبتها وغاب عنها.

وكان أحد الحكماء يقول: ما في القلب يظهر على الوجه، وما في النفس يظهر على الملبوس، وما في العقل يظهر في العين، وما في السر يظهر في القول، وما في الروح يظهر في الأدب، وما في الصور كلها يظهر في الحركة.

ثامن عشر: الصمت أسلم، والكلام أفضل عند الله تعالى إذا أريد به وجهه، وقصد به مع الإصابة أن يكلم كل قوم على قدر فهمهم، ولغة ألسنتهم. ولا يفرط أيضاً في الصمت، كما لا يفرط أيضاً في الكلام.

إلا أنه إذا أفرط في الصمت ضيع كثيراً من حقوق الله تعالى أن يقوم بها بلسانه. ويعتري من الإفراط آفات كثيرة.

وقد قيل في جهاد النفس: إن النفس قد اعتادت على لذة الكلام، فإذا ألزمها الإنسان الصبر فيما لا يعنيها اعتادت على السكوت عن الكلام، فاستراح الإنسان فلا يتكلم إلا بحق وصار سكوته عبادة وكلامة عبادة ونطقه عبادة وإذا سكت سكت بحق.

وإذا كانت الوسطية في الإسلام هي الطريق الأقوم حيث لا تفريط ولا إفراط. فإن أهل الوسط هم أهل الصراط المستقيم كفوا ألسنتهم عن الباطل وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة فلا يرى أحدهم أن يتكلم تذهب عليه ضائعة بلا منفعة فضلاً أن تضره في آخرته.

وقد قيل للجنيد رضي الله عنه: يا أبا القاسم يكون لسان بلا قلب. قال: كثير. قالوا: فيكون قلب بلا لسان؟ فقال: نعم قد يكون. ولكن لسان بلا قلب بلاء، وقلب بلا لسان نعمة. قالوا: فإذا كان لسان وقلب. قال: فذاك الزبد بالعسل.

ومن مرويات القشيري: السكوت في وقته صفة الرجال كما أن النطق في موضعه من أشرف الخصال. فالإنسان لا ينبغي له أن يخرج من كلامه إلا ما يحتاج إليه كما أنه لا ينفق من كسبه إلا ما يحتاج إليه.

فمقام العبد يظهر من كلامه لا سيما إن صمم عليه. والظاهر عنوان الباطن. فكل من تكلم إنما يتكلم عن ذوقه وما هو غالب على باطنه فكل إلى مشيئة الله تعالى فيما هو عندك باطل واتبعه فيما هو حق.

وقال الحكيم: عبر بلسانك عن حالك ولا تكن بكلامك حاكياً لأحوال غيرك.

كما قال: إذا لم تنتفع أنت بعلمك فكيف ينتفع به غيرك.

وقال أحد العلماء: كل كلام كنت مختاراً في قبوله ودفعه منفعة عندك قليل وكل كلام قهرك على قبوله فذلك الذي يدفع بك إلى الأمر الحسن الجميل.

ومن هنا قيل: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه.

تاسع عشر: الإشارة ما يخفى عن المتكلم كشفه بالعبارة للطافة معناه. والمقصود من علم الإشارة أنه علم ذوقي خاص. ،إذا أصبح عبارة خفي ولا يعرف المقصود.

والرمزية تجد أصلها مجملة في القرآن الكريم. فلغة الرمز تعلو على الحس. ومن هنا يكون الكلام غريباً على السامعين.

فأهل الخصوص يستخدمون مصطلحات وإشارات رمزية يدللون بها على ما يقصدون من معاني تتداول فيما بينهم وذلك للكشف عن معانيهم لأنفسهم علاوة على الإجمال والستر على من باينهم في طريقتهم.

إن الرمزية في التعبير لها عمل كعمل السحر، لا تمس العقل إلا من حيث تثير فيه الخيال، والوجدان ولكنها تمس القلب مساً مباشراً. ويعمق أثرها، وتتضح معانيها مع التكرار.

وهذه الألفاظ أو المصطلحات التي يستخدمها العارفون تسمى علوم الإشارة المتفرقة بينها وبين علوم العبارة.

فعلوم الإشارة غوص في بحار المعاني، وبحثاً عن الجواهر واللآلئ الثمينة التي يعز وجودها ويعجز غيرهم عن الحصول عليها أو اقتنائها.

ونستشهد في هذا المقام بقصة مريم عليها السلام في القرآن الكريم فقد عدلت من استخدام العبارة إلى الإشارة في ولادتها عيسى عليه السلام بلا أب، وعندما تجمع القوم حولها ليستنكروا فعلتها جهلاً منهم لحكمة الله البالغة. "فأشارت إليه".

فالعبارة التي يمكن أن تدافع بها عن نفسها وعن وليدها لن تكون مقنعة لديهم إذا المعنى المقصود إليه لا يتحمله لفظ أو عبارة. إنه يجل عن فهم أصحاب العبارة.

وكانت قضية العلم اللدني والمعرفة الفوقية تلك التى يؤتيها الله من يشاء من عباده العالمين العارفين المتقين المخلصين. فإذا تذكرنا قصة موسى مع الخضر كان لنا مع هذه القصة رباط بين المعرفة الإشراقية اللدنية وبين ما أثارته هذه المعرفة من قضايا جوهرية حول الولاية عند الخضر الذي كان بمعرفته اللدنية فوق معرفة النبوة الإيمانية درجات ودرجات.

ولقد قيل: إن العبارة لا تفي بيان المضمون من كلام العارفين. إنما هي أنوار وإشارات، والنفس تذوق من المعاني بقدر ما وهبها الله.

وكلمة الحضرة إشارة إلى قوله تعالى: ﴿كُن﴾. ففي قول الحق: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (١). فهي صورة الإرادة الكلية.

فاستخدام الرمزية في التعبير له أهميته الأساسية وهو الحرص على المعاني والأسرار وصوناً للقداسة والروحانيات التى تحملها الإشارة.

كما قيل: الحقيقة لا ينطق بها لسان، بل هي ذوق ووجدان. لأن اللسان يعجز عن التعبير عنها، لأنها سر من أسرار الله تعالى، فلا تتكيف بالحروف والكلمات.

وتتفاوت الرموز أو الخواطر أو الإشارات تبعاً لمقام قائلها، وهي غالباً ما ترتكز على أربع صور منهجية هي: الموازنة بين الظاهر والباطن، والتجريد، والإيماء الحسي بالظاهر إلى الباطن، والاعتناء بالأصوات والأبحاث اللغوية.

وهنا ينبغي أن نوضح ما ورد في القرآن الكريم من الحروف. يعتقد علماء التفسير أن تلك الحروف أسرار لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، ولم يطلع على جملتها سوى آدم عليه السلام، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم. ولذلك قال: "أوتيت جوامع الكلم".

وكذلك الرمزية فعل للتجرد والتصفية والتخلية.

(١) سورة النحل : الآية : ٤٠.

ولقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: "من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن". وأن ذلك بلا ريب لا يكون بغير تعمق في الفهم، وتعرف بالإشارة والمرامي، من غير اقتصار على ظاهر الألفاظ والمعاني.

ولقد رمز العارفون إشاراتهم اكتفاءً بها فيما بينهم غيرة على طريق الله الخاصة أن يدعى معرفتها أحد بالعبارة فإن الكتاب يقع في يد أهله وفي غير أهله فقصدوا برمزها بقاءها في الوجود بعدهم تنوب عنهم في إرشاد المريدين.

وهكذا كان يفعل العلماء لا يقررون مسائل العلم بالله تعالى إلا بعد غلق أبواب بيوتهم وأخذ مفاتيحها ووضعها تحت وركهم خوفاً على إفشاء أسرار الله تعالى بين المحجوبين عن حضرته.

فإذا كمل العارف في مقام العرفان أورثه الله علماً بلا واسطة وأخذ العلوم المكتوبة في ألواح المعاني ففهم رموزها وعرف كنوزها وفك طلسماتها وعلم اسمها ورسمها وأطلعه الله تعالى على العلوم المودعة في النقط. ولولا خوف الإنكار لنطقوا بما يبهر العقول.

وكذلك لهم من اشارات العبارات، عبارات معجمة وألسن مختلفة، وكذلك لهم في معاني الحروف والقطع والوصل والهمزة والشكل والنصب والرفع ما لا يحصر ولا يطلع عليه إلا هم.

فالحروف خزائن الله المخفية، فمن شاهدها: تصرف في العلوية والسفلية. وسر الحروف لا يفشي، والعارف لا يرقب غير الله ولا يخشى.

عشرون: الأمثال العربية غاية في البلاغة والفصاحة من حيث إيجاد ألفاظها، وإصابة معانيها. فقد أوصلت إلينا الأمثال حكم العرب وإرشاداتهم وحسن أفكارهم ونتائج تجاربهم، وأعطتنا فكرة كاملة بكلام موجز عن الأشخاص الذين استعملوها، وصورت لنا أخلاقهم وعاداتهم.

لذلك كانت الأمثال والحكم سجلاً من سجلات العرب التى نقلت إلينا أحداثهم وثقافاتهم المختلفة.

فالبلاغة هي اختيار الكلام وتصحيح الأقسام وحسن الإختصار عند البديهة والغزارة للإطالة ومعرفة الفصل من الوصل والكلام الطيب.

وهنا ينبغي أن ننبه أن غير العربي من الألفاظ دون العربي في الفصاحة والبلاغة، وهذا أمر لا شك فيه. وكذلك يمكن القول: إن العبارة ربما تتمتع بالصحة اللغوية والسياق اللغوي لكونها صحيحة ولكنها ليست صحيحة لكونها حقيقة علمية. والعكس ربما تكون العبارة صحيحة علمياً ولكنها غير صحيحة من حيث السياق اللغوي.

وقد قيل: من تمسك بالعدل، وترك فضول الكلام، وأوجز في النطق، وترك مالا يعنيه، واقتصر في أموره فهو عابد.

فإذا كانت اللغة هي وسيلة الفهم والتفاهم فإنها تدل على الحياة العقلية من ناحية أن لكل أمة في كل عصر مظهر من مظاهر عقلها، فلم تخلق اللغة دفعة واحدة ولم يأخذها الخلف عن السلف كاملة، انما يخلق الناس في أول أمرهم ألفاظاً على قدر حاجتهم. فإذا ظهرت أشياء جديدة خلقوا لها ألفاظاً جديدة. وإذا اندثرت أشياء قد تندثر ألفاظها، وهكذا اللغة في حياة وموت مستمرين، وكذلك الاشتقاقات والتعبيرات فهي أيضاً تنمو وترتقي تبعاً لرقي الأمة.

وقد قيل: إعراب اللسان يقيم جاهك عند الناس وإعراب القلب يقيم جاهك عند الله تعالى.

ويقال: لا يصح التعبير عن حقيقة الإيمان لأنه شيء وقر في الصدر لا يمكن التعبير عنه. وأما ما ورد في السنة من الألفاظ التى تحكم لصاحبها بالإيمان فكلها راجعة إلى التصديق والإذعان الذين هما مفتاحان لباب العلم بالمعلوم المستقر في قلب العبد بالفطرة. ولذلك لم يسأل أحد من الصحابة رسول الله (ﷺ) عن حقيقة هذه الألفاظ ولا ناقشوا أصحابها بل أجروا حكمهم على الظاهر ووكلوا سرائرهم إلى الله تعالى.

من هنا قيل: مادامت العلوم في معادنها فهي واسعة مطلقة لا تقبل تغييراً ولا تبديلاً فإذا ظهرت مقيدة بالحروف دخلها ما يدخل الكون من التغيير والتبديل واختلاف العبارات.

ومن البلاغة في الإيجاز: أخذ كل موجود حظه مما قابله. بحيث: كل ميسر لما خلق له.

قال العلامة ابن خلدون في مقدمته: إن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان. ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان، فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه، يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطبتهم، وينظم الكلام على هذا الوجه، وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه منحى البلاغة التى للعرب.

ثم يمضي ابن خلدون في بحثه عن الذوق فيعتبره ميزاناً من موازين الحكم الأدبي، بل يعتبره الحاكم المستبد بذلك فيقول: وملكة البلاغة ــ التى هي الذوق ــ تهدي البليغ إلى وجوه النظم وحسن التركيب الموافق لتركيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم.

وكذلك أشار الشيخ عبد القاهر الجرجاني إلى صلة الذوق بصيرفة الكلام والحكم عليه في مواضع متفرقة في كتابه: "دلائل الإعجاز" فقال: وهو يتحدث عن اللفظ والنظم: "واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعاً من السامع، ولا يجد لديه قبولاً، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة". وقد ختم كتاب: "دلائل الإعجاز" بكلام طويل انتهى فيه إلى أن العمدة في إدراك البلاغة إنما هو الذوق والإحساس الروحاني، فلا يصح للإنسان أن يرى الرأي في الأدب، ويقضي في الشعر "إلا إذا صحت قريحته، وصح ذوقه، وتمت أداته"، ثم أتى لهذا الكلام بكثير من الشواهد والأمثال، وحث القارئ على التدبر فيها والتأمل.

وفي هذا المعنى يقول ابن خلدون: "إن الذوق ملكة تحصل بالممارسة والإعتياد والتكرار لكلام العرب، فإن عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه والفارسي والزمخشري، وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجاماً مع حصول هذه الملكة لهم، فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا عجماً في نسبهم فقط، وأما المربي والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم ، واستولوا بذلك من الكلام على غاية لا وراءها، وكأنهم في أول نشأتهم من العرب الذين نشأوا في أجيالهم.

ومهما يكن من شيء، فإن المقياس العملي للفصاحة في أي أدب يجب أن يلتمس في كلام فحوله، وأعيان البيان فيه. على كلامهم يجب أن يربى الذوق، وبمقياسهم يجب أن يقيس.

وفي الحق أن علوم البلاغة في أي لغة لم تستنبط إلا من مثل ذلك الكلام، وليس يعوز الأدب العربي شيء من هذا كله، ففيه من كل نوع من أنواع البلاغة المثل بعد المثل، فيه القرآن هو المثل الأعلى الذي لا يفتأ يرقى بمن يهتدي به مراقي البلاغة، وفيه تحققت غاية البلاغة البشرية في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام خلفائه وأصحابه، وفيه قبل ذلك ومن بعد ذلك مثل للبلاغة بعضها فوق بعض، وبعضها يدني من بعض، لا يستطيع الأديب ولا الناقد أن يهملها وهو يطمع أن يكون له في العربية مكان بين المجيدين.

تلك هي النتائج التى توصلنا إليها من خلال دراستنا لموضوع :

"اللسان ميزان بين الصمت والكلام"

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قدمت من فصول هذا البحث، وفيما استخلصته من نتائج في إضافة جديدة إلى ما عرف عن:

"اللسان ميزان بين الصمت والكلام"

كما أرجو أن يكون إسهاماً منى فى هذا المجال. وهو ما وضعناه نصب أعيننا منذ بداية هذا البحث.

إن لي شرف الصواب في كل ما أصبت فيه، كما أن عليّ وزر الخطأ إن جانبني التوفيق في شيء، لأن لي عذر الباحث عن الحقيقة مع صدق القصد في توخي السبيل إليها.

اللهم جنبنا الزلل، ووفقنا إلى خير القول والعمل، واختم بالصالحات أعمالنا، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين. وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والله نعم المستعان وعليه التكلان.

المصادر والمراجع

(ابن) :

ابن الجوزي: (أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزي القرشي):

(١) التبصرة، وثق نصوصه وحقق أصوله طه عبد الرؤوف سعد، وعمرو أحمد عطوه (الإسكندرية: دار ابن خلدون، سنة ١٩٩٥م).

(٢) صيد الخاطر، تحقيق عبد القادر أحمد عطا (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، بدون تاريخ).

(٣) تلبيس إبليس (القاهرة: دار الطباعة المنيرية، الطبعة الثانية، سنة ١٣٦٨هـ).

(٤) مناقب الإمام أحمد بن حنبل (القاهرة: تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م).

ابن الخطيب: (لسان الدين الخطيب بن الوزير):

(٥) روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق عبد القادر أحمد عطا (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى، سنة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م).

(٦) ملحق روضة التعريف بالحب الشريف.

(٧) الفرقان (بيروت: دار الكتب العلمية، بدون تاريخ)

ابن العماد الحنبلي: (أبو الفلاح عبد الحي) :

(٨) شذرات الذهب (القاهرة: مكتبة القدسي، سنة ١٣٥٠هـ)

ابن المرتضى اليماني: (أبو عبد الله محمد):

(٩) إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد (القاهرة: مكتبة الآداب والمؤيد، سنة ١٣١٨هـ).

(١٠) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (القاهرة: المؤسسة السعودية

بمصر، مطبعة المدني، سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م).

(١١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (القاهرة: المؤسسة السعودية بمصر، مطبعة المدني، سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م).

(١٢) مجموعة الرسائل والمسائل، الرسالة الأولى، رسالة الفرقان بين الحق والباطل (القاهرة: المطبعة الشرقية، سنة ١٣٢٣هـ).

(١٣) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق محمد حامد الفقي (القاهرة: مكتبة السنة المحمدية، بدون تاريخ).

ابن حجر العسقلاني: (أبو الفضل أحمد بن على) :

(١٤) الاستعداد ليوم الميعاد (بيروت: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

ابن حنبل: (أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني) :

(١٥) الزهد (الإسكندرية: دار عمر بن الخطاب للنشر والتوزيع، بدون تاريخ)

ابن رجب: (زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن أحمد بن رجب الحنبلي) :

(١٦) تحقيق كلمة الإخلاص (القاهرة: دار الفتح، سنة ١٩٧٩م).

(١٧) جامع العلوم والحكم، تقديم عبد العزيز كامل، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور (القاهرة: دار الكتاب الجديد، ١٩٦٩م).

(١٨) فضل علم السلف على علم الخلف، تحقيق يحيى مختار غزاوي (القاهرة: دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

(١٩) كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة، تعليق أسامة حمزة (القاهرة: دار الفتح، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

ابن سلامة القطاعى: (الإمام القاضي أبي عبد الله محمد) :

(٢٠) دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم "من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب (القاهرة: مطبعة السعادة، سنة ١٣٣٢هـ).

ابن عبد الله الباهلي الأشبيلي: (أبو الحسن) :

(٢١) الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق (القاهرة: المطبعة الوهبية، سنة ١٢٩٨هـ).

ابن عجيبة: (أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني) :

(٢٢) الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، تحقيق عبد الرحمن حسن محمود (القاهرة: دار الشباب، بدون تاريخ).

(٢٣) إيقاظ الهمم في شرح الحكم (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، مطبعة الحلبي، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

ابن عربي: (محيى الدين) :

(٢٤) الأنوار فيما يمنح صاحب الخلوة من أسرار (القاهرة: عالم الفكر، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).

(٢٥) الحكم الحاتمية المسمى بالكلمات والمصطلحات الجارية على ألسنة الصوفية (القاهرة: عالم الفكر، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م).

(٢٦) الموعظة الحسنة (القاهرة: عالم الفكر، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

(٢٧) تهذيب الأخلاق (القاهرة: عالم الفكر، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

(٢٨) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، تحقيق محمد مرسي الخولي (القاهرة: دار الكتاب الجديد، سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م).

ابن عطاء الله السكندري: (أبو الفضل تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم):

(٢٩) التنوير في إسقاط التدبير (القاهرة: مطبعة صبيح، بدون تاريخ).

(٣٠) الحكم بشرح محمد مصطفى أبو العلا (القاهرة: مكتبة الجندي، بدون تاريخ).

(٣١) الله، القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد (الفاهرة: مطبعة صبيح، بدون تاريخ).

(٣٢) تاج العروس (القاهرة: المطبعة اليمنية، سنة ١٣٢٢هـ).

(٣٣) لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي (القاهرة: مكتبة القاهرة، الطبعة الأخيرة، سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

(٣٤) مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح (القاهرة: مطبعة صبيح، بدون تاريخ).

ابن قدامه المقدسي: (أحمد عبد الرحمن):

(٣٥) مختصر منهاج القاصدين، تقديم محمد أحمد دهمان، تعليق شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط (القاهرة: دار التراث العربي، الطبعة الرابعة، سنة ١٣٩٨هـ).

ابن قيم الجوزية: (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب) :

(٣٦) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (القاهرة: مكتبة المتنبي، بدون تاريخ).

(٣٧) الداء والدواء، تقديم محمد جميل غازي (القاهرة: المؤسسة السعودية بمصر، سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

(٣٨) الطب النبوي (مكة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، ١٣٩٩هـ).

(٣٩) زاد المعاد في هدى خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط (القاهرة: دار المنار الإسلامية، سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).

(٤٠) طريق الهجرتين وباب السعادتين، راجعة محب الدين الخطيب (القاهرة: المكتبة السلفية، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)

(٤١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (القاهرة: دار التراث العربي، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م).

ابن كثير: (الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي) :

(٤٢) قصص الأنبياء (القاهرة: دار الأنوار المحمدية، بدون تاريخ).

(أبو) :

أبو الحسن البصري: (على بن محمد بن حبيب البصري الماوردي) :

(٤٣) أدب الدنيا والدين (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٣٢٩هـ/١٩١١م).

(٤٤) ربانية لا رهبانية (القاهرة: دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).

أبو العزائم: (محمد ماضي) :

(٤٥) الفرقة الناجية (القاهرة: دار الكتاب الصوفي، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

(٤٦) أصول الوصول لمعية الله والرسول (القاهرة: دار المدينة المنورة، الطبعة الرابعة، سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

(٤٧) من جوامع الكلم (القاهرة: دار الكتاب الصوفي، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م).

أبو العلا عفيفي:

(٤٨) الملامتية والصوفية وأهل الفتوة (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، مطبعة الحلبي، سنة ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م).

(٤٩) الإنسان والكون فى الإسلام (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، سنة ١٩٧٥م).

أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري:

(٥٠) أخلاق العلماء، تحقيق أحمد السايح (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط٢، سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

أبو سعيد الخراز:

(٥١) الطريق إلى الله "كتاب الصدق" تحقيق عبد الحليم محمود (القاهرة: دار المعارف سنة ١٩٧٩م).

أبو طالب المكي: (محمد بن على بن عطية الحارثى المكى):

(٥٢) علم القلوب، تحقيق عبد القادر أحمد عطا (القاهرة: مكتبة القاهرة، بدون تاريخ).

(٥٣) قوت القلوب (لبنان: دار صادر، بدون تاريخ).

أبو عبد الرحمن السلمي: (محمد بن الحسين):

(٥٤) طبقات الصوفية (القاهرة: دار الشعب، سنة ١٣٨٠هـ).

أبو منصور الثعالبي:

(٥٥) درر الحكم، تحقيق ودراسة محمد إبراهيم سليم (القاهرة: مكتبة ابن سينا، ١٤١٢هـ).

أبو نصر السراج: (الطوسي):

(٥٦) اللمع، تحقيق عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور (القاهرة: دار التراث الصوفي، مطبعة السعادة، سنة ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م).

أبو نعيم الأصبهاني: (أحمد بن عبد الله):

(٥٧) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (القاهرة: مطبعة السعادة، سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

(ال) :

البيهقي: (أبو بكر أحمد بن الحسين) :

(٥٨) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، خرج أحاديثه عبد المعطي قلعجي (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

الترمذي: (محمد بن على الحكيم):

(٥٩) المسائل المكنونة، تحقيق محمد إبراهيم الجيوشي (القاهرة: دار التراث العربي، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).

(٦٠) ختم الأولياء، تحقيق عثمان إسماعيل يحيى (بيروت: المطبعة الكاثوليكيه، بدون تاريخ).

الثعلبي: (أبي إسحاق بن محمد بن إبراهيم النيسابوري) :

(٦١) قصص الأنبياء (القاهرة: مكتبة القاهرة، بدون تاريخ).

الجيلاني: (عبد القادر):

(٦٢) الغنية لطالبي طريق الحق (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، مطبعة الحلبي، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م).

(٦٣) الفتح الرباني والفيض الرحماني (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، مطبعة الحلبي، سنة ١٩٨٥م).

(٦٤) فتوح الغيب (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، مطبعة الحلبي، سنة ١٣٩٢ هـ/١٩٧٣م).

الجيلي: (عبد الكريم):

(٦٥) الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، مطبعة الحلبي، الطبعة الرابعة، سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨١م).

الحافظ ابن أبي الدنيا:

(٦٦) الحلم (القاهرة: مكتبة القرآن، بدون تاريخ).

الحريفيش:

(٦٧) الروض الفائق في المواعظ والرقائق (القاهرة: مكتبة الجمهورية العربية، بدون تاريخ).

الدمياطي: (السيد بكري المكى بن السيد محمد شطا):

(٦٨) كفاية الأتقياء ومنهاج الأصفياء (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثانية، سنة ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م).

الرندي: (ابن عباد النضري):

(٦٩) غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، جزءان، تحقيق عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف (القاهرة: دار الكتب الحديثة، سنة ١٩٧٠م).

السمرقندي: (نصر بن محمد بن إبراهيم):

(٧٠) تنبيه الغافلين (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، مطبعة الحلبى، بدون تاريخ).

السيد دحلان:

(٧١) تقريب الأصول لتسهيل الوصول لمعرفة الله والرسول (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، مطبعة الحلبي، الطبعة الأخيرة، سنة ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م).

الشافعي: (محمد بن إدريس) :

(٧٢) ديوان الشافعي (بيروت: مكتبة الشرق، سنة ١٣٩١هـ).

الشافعي: (أحمد بن محمد بن عياد):

(٧٣) المفاخر العلية في المآثر الشاذلية (القاهرة: دار الطباعة المحمدية، الطبعة الأخيرة، سنة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م).

الشعراني: (عبد الوهاب بن أحمد) :

(٧٤) الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية، هامش الطبقات الكبرى للشعراني (القاهرة: مطبعة صبيح، بدون تاريخ).

(٧٥) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية (القاهرة: دار جوامع الكلم، سنة ١٣٩٠هـ).

(٧٦) الطبقات الكبرى (القاهرة / مطبعة صبيح، بدون تاريخ).

(٧٧) الوصية المتبولية (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الخامسة، سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م).

(٧٨) تنبيه المغترين (القاهرة: مطبعة صبيح، بدون تاريخ).

(٧٩) كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان (القاهرة: مطبعة حجاج، الطبعة الأولى، سنة ١٣٤٧هـ).

(٨٠) مختصر تذكرة القرطبي (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، مطبعة الحلبي، بدون تاريخ).

الطبري: (أبو جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبري) :

(٨١) الرياض النضرة في مناقب العشرة، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا، أربعة أجزاء، سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م).

الغزالي: (أبو حامد محمد بن محمد) :

(٨٢) الأدب في الدين، ضمن جواهر الغوالي (القاهرة: مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م).

(٨٣) الأربعين في أصول الدين، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا (القاهرة: مكتبة الجندي، سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م).

(٨٤) العلم اللدني، ضمن الجواهر الغوالي (القاهرة: مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م).

(٨٥) المرغوب من مكاشفة القلق (القاهرة: مطبعة الشمرلي،)

(٨٦) روضة الطالبين وعمدة السالكين، ضمن رسائل الإمام الغزالي (القاهرة: دار الطباعة المحمدية، مكتبة الجندي، سنة ١٣٩٢هـ).

(٨٧) مكاشفة القلوب، لقدمه محمد رشيد القباني، راجعه بهيج الغزاري (القاهرة: مكتبة الزهراء، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٣ه÷/١٩٨٣م).

(٨٨) منهاج العابدين (القاهرة: دار الطباعة المحمدية، مكتبة الجندي، سنة ١٣٩٢ هـ).

الفيروزآبادي: (مجد الدين محمد بن يعقوب) :

(٨٩) القاموس المحيط (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، مطبعة الحلبي، الطبعة الثانية، سنة ١٣٧١هـ/١٩٥٢م).

القزويني:

(٩٠) مختصر شعب الإيمان، تحقيق عبد الله حجاج (القاهرة: دار التراث الإسلامي سنة ١٩٨٤م).

القشيري: (أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان) :

(٩١) الرسالة (القاهرة: مطبعة صبيح، بدون تاريخ).

(٩٢) شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق وشرح أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلواني (القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية سنة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م).

الكاشاني: (عبد الرازق بن جمال الدين محمد، الكاشاني، أبو الغنائم كمال الدين):

(٩٣) اصطلاحات الصوفية، حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور/ عبد الخالق محمود عبد الخالق (المنيا: دار حراء، سنة ١٩٨٠م).

المحاسبي: (الحارث بن أسد) :

(٩٤) التوبة، تحقيق عبد القادر أحمد عطا (القاهرة: دار التراث العربي، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٠هـ).

(٩٥) الرزق الحلال وحقيقة التوكل على الله، تحقيق محمد عثمان الخشت (القاهرة: مكتبة القرآن، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

(٩٦) القصد والرجوع إلى الله، تحقيق عبد القادر أحمد عطا (دار التراث العربي،، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٠هـ).

(٩٧) الرعاية لحقوق الله، تقديم عبد الحليم محمود (القاهرة: دار المعارف، سنة ١٩٨٤م).

(٩٨) المسائل في الزهد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا (القاهرة: دار التراث الإسلامي، سنة ١٩٨٦م).

(٩٩) المسائل في أعمال القلوب والجوارح، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا (القاهرة: دار التراث الإسلامي، سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

(١٠٠) رسالة المسترشدين، تحقيق عبد الفتاح غدة (بيروت: دار السلام، طبعة ثانية، سنة ١٣٩١هـ).

المعجم:

(١٠١) المعجم الوجيز (القاهرة: مجمع اللغة العربية، طبعة وزارة التربية والتعليم، سنة ١٩٩٣م).

النبهاني: (يوسف بن إسماعيل) :

(١٠٢) الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية (القاهرة: المطبعة الميمنية، سنة ١٣١٢هـ).

(١٠٣) الشرف المؤبد لآل محمد (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، مطبعة الحلبي، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م).

(١٠٤) جامع كرامات الأولياء (بيروت: المكتبة الشعبية، سنة ١٣٩٤هـ).

النووي: (الإمام أبي بكر محيى الدين بن شرف النووى الدمشقي) :

(١٠٥) بستان العارفين، هامش تنبيه الغافلين للسمرقندي (القاهرة: مطبعة صبيح، بدون تاريخ).

(١٠٦) رياض الصالحين (الإسكندرية: دار القادسية، بدون تاريخ).

(١٠٧) شرح الأربعين النووية (القاهرة: شركة الشمرلي، سنة ١٩٨١م).

(الألف) :

أحمد بن يحيى الحفيد:

(١٠٨) الدر النضير من مجموعة الحفيد (القاهرة: مطبعة التقدم، الطبعة الأولى، سنة ١٣٢٢هـ).

أحمد أمين:

(١٠٩) فجر الإسلام (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٦م).

أحمد عبد الوهاب:

(١١٠) النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام (القاهرة: دار غريب، سنة ١٤٠٠هـ).

أحمد فؤاد الأهواني:

(١١١) الكندي فيلسوف العرب، أعلام العرب، العدد (٢٦) (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للترجمة والنشر، سنة ١٩٧٠م).

(١١٢) الشريعة والحقيقة (الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، سنة ١٩٨٢م).

(الحاء) :

حسن الشرقاوي:

(١١٣) ألفاظ صوفية ومعانيها (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، الطبعة الثانية، بدون تاريخ).

(١١٤) نحو علم نفس إسلامي (الإسكندرية: دار المعارف فرع الإسكندرية سنة ١٣٩٢هـ/١٩٨٢م).

حلمي عبد الحميد:

(١١٥) مختارات إسلامية (القاهرة: المكتب المصري الحديث، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨١م).

(الخاء) :

خالد محمد خالد:

(١١٦) الله والموعد (القاهرة: دار ثابت للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

خطب:

(١١٧) خطب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ووصاياه جمع وتحقيق وتعليق محمد أحمد عاشور (القاهرة: دار الاعتصام، سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

(الدال) :

داود الأنطاكي:

(١١٨) تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق (القاهرة: المطبعة الأزهرية المصرية، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٢٨هـ).

(الراء) :

رؤوف شلبي:

(١١٩) "يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم" (القاهرة: دار الاعتصام، الطبعة الرابعة، سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).

(السين) :

سعيد حوى:

(١٢٠) تربيتنا الروحية (القاهرة: دار التراث العربي، سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٩م).

سلامة القضاعي:

(١٢١) براهين الكتاب والسنة الناطقة (القاهرة: مطبعة السعادة، سنة ١٩٦٦م).

سيد عبد التواب عبد الهادي:

(١٢٢) الرمزية في القرآن الكريم (القاهرة: دار المعارف، سنة ١٩٧٩م).

(الشين) :

شرف الدين عبد المؤمن هبة الله:

(١٢٣) أطباق الذهب (القاهرة: المكتبة الأزهرية، الطبعة الأولى، سنة ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م).

(الصاد) :

صالح الجعفري:

(١٢٤) أسرار الصيام للخواص والعوام (القاهرة: دار جوامع الكلم، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).

صالح أحمد بن حنبل:

(١٢٥) سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد (الإسكندرية: دار الدعوة، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

(العين) :

عبد الباري محمد داود:

(١٢٦) السياحة في الإسلام (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، سنة ١٩٩٦م).

(١٢٧) الفتوحات الربانية في الآيات القرآنية (بيروت: دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٧هـ).

(١٢٨) الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخري. دراسة مقارنة (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٧م).

(١٢٩) سيكولوجية الصمت. دراسة نفسية إسلامية (بنها: بحث منشور بمجلة كلية الآداب، جامعة بنها، سنة ١٩٩٤م).

عبد الحليم محمود:

(١٣٠) أبو الحسن الشاذلي (القاهرة: دار التراث العربي، سنة ١٩٧٧م).

(١٣١) الفضيل بن عياض (القاهرة: دار الشعب، سنة ١٩٧١م).

(١٣٢) أبو مدين الغوث (القاهرة: الدار المصرية للطباعة، سنة ١٩٧٦م).

(١٣٣) بشر بن الحارث الحافي (القاهرة: دار الشعب، بدون تاريخ).

(١٣٤) سهل التستري (القاهرة: دار الشعب، سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

(١٣٥) سفيان الثوري (القاهرة: دار المعارف، سنة ١٩٧٩م).

(١٣٦) عبد الله بن المبارك (القاهرة: دار الشعب، سنة ١٤٠٢هـ).

(١٣٧) فاذكروني في ذكركم (القاهرة: دار المعارف، سنة ١٩٧٩م).

عبد الرحمن الصفوي:

(١٣٨) نزهة المجالس ومنتخب النفائس (القاهرة: دار الفتح، سنة ١٩٧٩م).

عبد الرحمن الصنع:

(١٣٩) الأنابيس، ثلاثة أجزاء (المنصورة: مكتبة الإيمان، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

عبد العزيز الدباغ:

(١٤٠) الإبريز (القاهرة: مطبعة صبيح، بدون تاريخ).

عبد العزيز الديريني:

(١٤١) طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب، تحقيق محمد إبراهيم داود (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، سنة ١٣٩١هـ).

عبد القادر محمود:

(١٤٢) الفلسفة الصوفية في الإسلام (القاهرة: دار الفكر العربي، سنة ١٩٦٦م).

(١٤٣) دراسات في الفلسفة الدينية والصوفية والعلمية (القاهرة: دار الفكر العربي، سنة ١٩٨٧م).

(١٤٤) الإنسان في القرآن الكريم من البداية إلى النهاية (القاهرة: دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

(١٤٥) الشيطان والإنسان بين أوليائه وأعدائه (القاهرة: دار الفكر العربي، سنة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

(١٤٦) الله والإنسان، قضية الألوهية بين الفلسفة والدين (القاهرة: دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، سنة ١٣٨٤هـ/١٩٦٢م).

عبد الله بن المبارك:

(١٤٧) الزهد والرقائق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي (القاهرة: دار عمر بن الخطاب، بدون تاريخ).

عبد الله بن يحيى الغامدي:

(١٤٨) قطوف مختارة من الأحاديث ــ الحكم ــ المواعظ ــ الأدعية المأثورة (مكة المكرمة: مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الثالثة، سنة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).

عبيد العزيز (تقي الدين عبد الملك بن أبي المنى):

(١٤٩) نزهة الناظرين في الأخبار والآثار المروية من الأنبياء الصالحين (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م).

عثمان أمين:

(١٥٠) الجوانية (القاهرة: دار القلم، سنة ١٩٤٦م).

علي سامي النشار:

(١٥١) نشأة الفكر في الإسلام (الإسكندرية: دار المعارف، فرع الإسكندرية، سنة ١٩٦٥م).

على عبد الجليل راضي:

(١٥٢) الروحية عند ابن عربي (القاهرة: دار نهضة مصر، سنة ١٩٤٦م).

علي محمد مطاوع:

(١٥٣) مدخل إلي الطب الإسلامي (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م).

عماد الدين الأموي:

(١٥٤) حياة القلوب، هامش قوت القلوب لأبي طالب المكي (لبنان: دار صادر، بدون تاريخ).

(الكاف) :

كامل سعفان:

(١٥٥) سبحان الله (القاهرة: دار المعارف، سنة ١٩٨٠م).

(الميم) :

محمد أبو زهرة:

(١٥٦) ابن تيمية (القاهرة: دار الفكر العربي، سنة ١٩٧٧م).

محمد إسماعيل إبراهيم:

(١٥٧) قصص الأنبياء والرسل (القاهرة: دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م).

محمد جلال شرف:

(١٥٨) دراسات في التصوف الإسلامي (الإسكندرية: دار الفكر الجامعي، بدون تاريخ).

محمد على الصابوني:

(١٥٩) النبوة والأنبياء (القاهرة: دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٠ هـ).

محمد مصطفى:

(١٦٠) المقامات والأحوال، دراسات في الجنيد البغدادي (القاهرة: دار الطباعة المحمدية سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

محمد مصطفي حلمي:

(١٦١) الحياة الروحية في الإسلام (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٤م).

مسلم جاسم حميد:

(١٦٢) ينابيع المعرفة (بغداد: مكتبة النهضة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٥م).

مصطفى كامل خطاب:

(١٦٣) دراسة وتحليل في أدب النفس لأبي الحسن البصري في كتاب أدب الدنيا والدين، مقال منشور بمجلة منبر الإسلام، يناير ١٩٧٨م).

مصطفى كمال وصفي:

(١٦٤) أحمد الرفاعي (القاهرة: المكتبة الرفاعية الأحمدية، بدون تاريخ).

محيى الدين طاهر:

(١٦٥) الصحبة (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٩٢م).

مقداد يالجن:

(١٦٦) دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية (القاهرة: دار الشروق، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

(١٦٧) فلسفة الحياة الروحية ومنابعها ومشاربها (القاهرة: دار الشروق، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

ملا عبد الرحمن الجامي:

(١٦٨) الدرة الفاخرة (كردستان: مطبعة كردستان العلمية، بدون تاريخ).

مناع القطان:

(١٦٩) تاريخ التشريع الإسلامي (بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الحادية عشرة، سنة ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

المصادر الأجنبية:

(170) Arberry, A, J., An Introduction of his Edietion the Mawagif and Mukhatabat, of Al-Niffari. Cambridge University Press, London, 1935.

فهرس


Bibliotheca Alexandrina
0374482